د. محمد حسين الأعرجي

أجداد وأحفاد

تراجم وذكريات







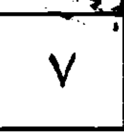
أجداد وأحفاد

(تراجم وذكريات)









اسم المؤلف : د. محمد حسين الأعرجي
عنوان الكتاب : أجداد وأحفاد
الناشر : المدى
الطبعة الأولى : ١٩٩٩
الحقوق محفوظة

Author: Dr. M. Hussein al-Araji
Title : Ancestors and Grandsons
Al- Mada : Publishing Company
First Edition 1998
Copyright © al-Mada

دار المدى للثقافة والنشر

سورية – دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٢٧٧٢٠١٩ – ٢٧٧٦٨٦٤ – فاكس : ٢٧٧٣٩٩٢
بيروت – لبنان صندوق بريد : ٣١٨١ – ١١ فاكس : ٤٢٦٢٥٢ – ٩٦١١

Al Mada : Publishing Company F.K.A.
Nicosia - Cyprus , P.O.Box . : 7025
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366 . Tel: 2776864 , Fax: 2773992
P.O. Box : 11 - 3181 , Beirut - Lebanon. Fax : 9611- 426252



د. محمد حسين الأعرجي



تراجم وذكريات




مكتبة
الفكر
الجديد

مُقدمة

هذا كتابُ يكادُ يكون مدخولَ النِّسبةِ في كتبي وليس مدخولَها تماماً في كتبِ الآخرين ؛ لأنَّه مباحثُ متفرِّقةٌ لا يكادُ يجمعُها جامعٌ ، سوى أنها في تراجم أدباء قُدماء كبارٍ ، وذكرياتٍ عن أمثالِهم من المعاصرين الكبار . ومن هنا فهو مباحثُ مُتفرِّقةٌ ولكنَّها مؤتلِفةٌ . وحسبُك من مُفارقةٍ أن يكونَ المتفرِّقُ مؤتلِفاً .

تأتلِفُ هذه المباحثُ بما يُعجِبُك من ثورتيْ بكر بن عبد العزيز العِجْليِّ ، والجواهريِّ ـ على الرُّغم من أنَّ بينهما أحد عشر قرناً ـ ولكنَّ بكراً لا يأتلِف مع الجواهريِّ فنياً حتى لو قلتَ لي : إنَّ بكراً لا يبلغُ خُمسَ قامة الجواهريِّ شعرياً لوافقتُكَ . والجواهريُّ لا يأتلِفُ مع بكرٍ فارسَ ميادين وقريعَ حروبٍ حتّى لو قلتَ : إنَّ الجواهريَّ لا يبلُغُ خُمسَ قامة بكرٍ فارسَ ميادين لما جادلتُكَ . ولكنَهما مع هذا وذاك مؤتلِفانِ إذا نظرتَ إلى ما يَنقُصُ بكراً إزاء الجواهريِّ ، وإلى ما ليس في الجواهريِّ من بكرٍ ، وأهمُّ من هذا أنَّهما مؤتلفان إذا نظرتَ إلى معنى ثورة الشاعر في القرن التاسع الميلاديِّ ما هي ؟ وإذا نظرتَ إليها في القرن العشرين ما معناها ؟

وما أقولُه عن بكرٍ والجواهريِّ أُعيدُه مُنزِّلاً الناسَ منازِلَهم عن الآخرين : ابن الأعرابي والمخزوميَّ ، الحِمّاني ومصطفى جمال الدين ، الخوارزمي والطاهر ، وهكذا .



ولك أن تسألني عن هذا الائتلاف المُختَلِفِ فأقول : لم يكن في ذهني أن أصنعَ ما صنعتُ فأُوقِعَ القارئَ بما تراني مُدافعاً عنه ، وإنما هي دراساتٌ كتبتُها عن أعلامٍ قُدماء أسهموا في تكويننا الثقافيَ العربيَ من مثل : ابن الأعرابيّ ، وأبي الفرج الأصبهانيّ ، وأبي بكر الخوارزميّ ، وسواهم . أقول : هي دراساتٌ كتبتُها في أزمانٍ مُتفاوتةٍ بدواعٍ لو شئتَ أن أُجملَها لك بجملةٍ واحدةٍ لقلتُ هي : اهتمامي بتحقيق بعض كتبِ أولئك الأعلام ، فقد كنتُ حقّقتُ كتابَ : «مُقطّات مَراثٍ» لابن الأعرابيّ ، وكنتُ حقّقتُ «الأمثال المولّدة» لأبي بكر الخوارزميّ ، و«تلقيح العقول» لابنِ أبي اليُسر الرّياضي ، وحقّقتُ سواها .

وإذاً فقد حقّقتَ تلك الكتب ، وقلتَ عن أصحابِها ما قلتَ ، فما معنى الإعادة ؟

وأقول الحقّ : إنّه لم تكن هناك إعادةٌ ، إلاّ بمقدار ما سترى ، فما قُدِّرَ له أن يُنشَرَ في هذا الكتاب من تلك الدراسات نُشِر في الجزائر يوم كنتُ أستاذاً في جامعتِها طيلة ستّ عشرة سنةً ، ولكنْ من مآسي الكتاب في الجزائر أنّه لا يراه إلاّ الأشقّاء الجزائريون أنفسهُم ، فإن قُدِّر له الانتشار في أقطار المغرب العربيّ بِيعَ على أنّه سلعةٌ تكاد تكون مُهرّبةً . وحسبُك من هذا أنّني كنتُ رأيتُ كتاب : «الأمثال المولّدة» في مكتبةٍ أظنُّها تُسمّى مكتبةَ الجامعة بطرابلس الغرب سنة ١٩٩٤ : فعجزتُ عن شرائه ؛ إذ رأيتُ أنّه سُعِّر بخمسة أمثال سعرِه في الجزائر . وإذا شئتَ أن أزيدَك علماً بمأساة ما يُنشَر في الجزائر ، وبندرة توزيع الكتاب الجزائري قلت : إنّني كنتُ ندمتُ على استغلاني سعرَ الأمثال فعُدتُ في اليوم الثاني مُقرّراً أن أشتري ما تحتمله حافظةُ نقودي من نُسَخه التي كانت بي حاجةٌ إليها ، فلم أرَ للكتاب أثرا ، وإذ سألتُ صاحبَ المكتبةِ عن كتابٍ رأيتُه أمسِ اسمُه : «الأمثال» كنتُ كمن يسأله عن الكبريت الأحمر!

وإذاً ، فما نُشِر في الجزائرِ هو في حُكمِ غيرِ المنشورِ إلاّ بمقدار . هذا



إلى أنَّ طائفةً من هذه الدراسات من مثل بكر بن عبد العزيز ، وابن المرزبان ، وبريّة بن أبي اليُسر ، والمخزومي ، وجمال الدين لم تُنشر حتّى هذا اليوم .

فإذا وضُح هذا ـ ويُخيَّلُ إليَّ أنه واضحٌ ـ كنتُ في غِنًى أن أعتذر عن إعادة النشر .

وأعود إلى رأسِ ما كنتُ فيه من أمرٍ فأقول : إنَّ هذا الكتابَ مدخولُ النِّسبةِ في كتُبي ؛ لأنه عبارةٌ عن مباحث ، وليس كتاباً في موضوعٍ واحدٍ تبدأ فيه بحرف الألف وتنتهي منه أو ينتهي منك عند حرف الياء . أمّا في كتب الآخرين من الأساتذة الأجلاء فهو أمرٌ مألوفٌ جداً ، بل لعلّه يَبلُغُ من هذه الألفة أن تولّتْ مثلُ هذه الكتبِ إعلاءَ شأنِ بعضٍ منهم ، وإلاّ أفَمَا سمعتَ بحديث الأربعاء لطه حسين ، والمعقول واللامعقول لزكي نجيب محمود ، ومقالات لعلي جواد الطاهر ؟ ثمَّ أمَا سمعتَ بكتاب العلاّمة الراحل مصطفى جواد : « في التراث العربيّ » ؟ هذه واحِدةٌ فأما الثانية فهي أنه يمكن أن يُوحي الكتابُ للقارىء ، وهو يقرأ فيه : « أديبان خالدان ، أبو الفرج الأصبهانيّ ، الطاهر... » ـ على سبيل المثال ـ أنني أمنّيهِ بموازنةٍ يخرجُ منها برابطةٍ قويّةٍ تؤلّفُ بينهما ، كأن أُثبِتَ أن الطاهر كان أخبارياً كما كان أبو الفرج ، أو أن أبا الفرج كان ناقداً كما كان الطاهر . والحقُّ أنني لم أقصِد إلى ذلك ، ولو كنتُ أقصده لكان من حقّ الجواهريّ أن يُقرَنَ إلى المتنبّي لا إلى بكرٍ فإن لم أستطِع أو لم يسمحْ لي شِعرُهُ فإلى البحتريّ ، وكان من حقِّ جمال الدين أن يكون ابنَ عمّ الشريف الرضيّ ، والمخزوميّ ابناً باراً بأبيه : الخليل بن أحمد الفراهيديّ ، وأن أنسب الطاهر إلى عبد القاهر الجرجانيّ ، وهكذا . ولكنّني ـ كما قلتُ ـ لم أُرِد هذا ، لا لأنّني لا أريدهُ ، وإنّما لأنه لم يتهيأ لي في هذا الكتاب ، ولم يستَقِمْ .

وجليّةُ الأمر أنّ هذا الكتاب هو قصيدةٌ مُطولةٌ حديثةٌ وليست طويلةً ، وإن شئتَ التخصيص قلتُ : إنّه مثل قصيدة « مديح الظلّ العالي » لمحمود درويش .



ويجمع بين هذا الكتاب وتلك القصيدة أنَّ لكلِّ مقطعٍ منها معنًى ، فإذا أردتَ أن تجمع من كلِّ تلك المقاطع معنًى عاماً مُشترَكاً ينمو بين يديك نمواً عضوياً خرجتَ بقول الإنجيل : « باطلُ الأباطيل ، وقبضُ الرِّيح » ، وكذلك الشأن في هذا الكتاب : فكلُّ مقطعٍ فيه مُستقِلٌّ بنفسِهِ ، ولكن أرجو ألاّ يكون في النهاية باطلَ الأباطيل ، وقبضَ الرِّيح ، لأنَّ للكتابِ - أيِّ كتابٍ - شأناً غيرَ شأن القصيدة .

فإذا سألتَ درويش عن مقاطع قصيدتِه كيف انتظمَها نسقٌ واحدٌ - وكلُّ مقطعٍ فيها يكادُ يشتُم أخاه وهو إن لم يكن أخاه فيها فجارٌ جَاورَه - وجدتَ أنَّ المقاومة التي جُوبه بها العدوَ الصهيوني في اجتياحه بيروت ، ١٩٨٢ ، وقرَفَ درويش من التواطؤ العربيَ على ذلك الاجتياح هو الذي جمعَ المقطعَ وابنَ عمِّه ، والبيتَ وربيبَ أبيه .

وكذلك كتابي فقد جمعتُ فيه ما يُظنُّ أنّه متنافرٌ وهو مُتَّفِقٌ ، وما يُحسبُ أنَّه بعيدٌ وهو قريبٌ .

ويبقى هنالك فرقٌ جوهريٌّ بين مديح الظلَ العالي - وأكثرُ الشعر الحديث من هذه البَابة - وهذا الكتاب ، وهذا الفرق هو أن درويش أراد أن يمدح المقاومة فهجاها من حيث لا يريدُ في قولِه :

« كم كنتَ وحدَك يا ابنَ أمي يا ابنَ أكثرِ من أبِ
كم كنتَ وحدَك »

فكان شأنه في ذلك شأن الشاعر الذي مدحَ زبيدة بنت جعفر زوج الخليفة هارون الرشيد بقولِه :

أزبيدةُ . ابنةَ جعفرِ طوبَى لسائلك المُثابِ
تُعطينَ من رِجليكِ ما تُعطي الأكفُ من الرِّغابِ



أقول هذا لأنَّ درويش لو كان مدحَ بهذا القولِ دهقاناً من دهاقنةِ الفُرسِ ، وليس عربيّاً من بني بكر أو تغلب لقامت «بَسوسٌ» أخرى ، وإلاّ فتأمَّل أن يُقال لعربيٍّ يفهم شيئاً من العربيّة : إنَّ أمّه أمٌّ واحدةٌ ولكنَّ آباءه كثيرون كيف سيكون ؟ وإياك أن تفهم أنني لا أعرف قصد درويش من أنَّ الأنظمة العربية كلَّها تدّعي أبوّةَ القضيـة الفلسطينيـة ولكنّها تخونُها ، إيّاك أن تفهم هذا فما سُقتُ من مديحِ زبيدة ما سُقتُ عبثاً .

المهمُ أنّه أراد أن يمدحَ فهجا ، أمّا أنا فقد أردتُ أن أدرس دراسةً موضوعيةً ـ وقد فعلتُ فيما أزعمُ ـ فوجدتُني مُعجَباً في الأعم الأغلب بهؤلاء الناس الذين كتبتُ عنهم . ولا أظنُّ أنَّ إعجابي كان قائماً على شفيرِ هارٍ أو يوشك أن ينهار ، فأما القدماءُ فحسبُك أنَّ منهم من ماتَ جسدياً قبل ألف سنةٍ أو ما يزيد على ألفِ سنةٍ وما زلنا نَطعَمُ من أطايبِ مائدتِهِ ما نَطعَمُ ، وأمّا المعاصرون فقد كتبتُ عنهم ما قُدِّر لي أن أبلُوَه بنفسي من أمرِهم أريد أن أشهَدَ بشهادةٍ ﴿من كتمَها فإنَّه آثِمٌ قلبُه﴾ ؛ ولهذا كان اسمُ الكتابِ ما تَراه : «أجدادٌ وأحفاد» .

ولكنَّ شهادتي هذه عن هؤلاء العمالقة الكبار ما كانت لتكون لولا تحريضُ صديقينِ أثيرَينِ عندي جداً بما فَسَحَا لي من صَدرِ ما يُصدرانِ هما : أستاذي علاّمة الجزيرة العربيّة الشيخ حَمد الجاسر ، وأخي الكبير : الأستاذ أبي ثابت الدكتور غانم حمدون ، فلولا تحريضُهما ما كنتُ كتبتُ ما كتبتُ ؛ لا لأنّني قليل الوفاء ، ولكن لأنّي كسولٌ لا أكادُ أكتبُ إلاّ بتحريضٍ ، ولأنّي كنتُ أظنُّ أنَّ ما اختزَنَتْهُ الحافظةُ ، فوعتْهُ الذاكرةُ لا يستحقُّ أن يُنشَر على الناس . فأما الحميمُ أبو ثابت : غانم فأنا مَدينٌ له بكلِّ ما كتبتُ إلاّ شهادةً واحدة هي : «علي جواد الطاهر» التي كلَّفني بكتابتها مُتفضِّلاً الشيخُ حمد الجاسر لكي تكون رثاءً للطاهرِ في آخر كتاب صدر له بعد وفاته هو : «معجم المطبوعات العربيـة» وكتبتُ تلك الشهادةَ وطُبِعتْ في كتابه . أمّا ما عدا ذلك فكلُّه من



أفضالِ أبي ثابت ، ومكارم «الثقافة الجديدة» في تخليد رموز ثقافتنا الوطنية الأصيلة . فللعزيز أبي ثابت وللعلاّمة الجاسر أجزلُ الشكر ، وأصدقُ الثناء ، فقد تفضّلا عليَّ من حيثُ حَسِبا أنهما ـ وحاشاهما ـ كلّفاني .

والآن لماذا قرَنتُ هذا القِران البعيدَ في الكتاب ؟

وأقول : إنّني فعلتُ ذلك لسببين أوّلُهما أنّني لم أُرد للكتاب أن تتجاورَ مباحثُه على غير نسقٍ كأن يكون فصلٌ فيه عن بكرٍ ، وبعدَه فصلٌ عن الجواهريّ ، وفصلٌ عن المخزومي وبعده أخوه عن ابن الأعرابيّ ، وهكذا ، ولم أُرد له أيضاً أن يُقسَّم تقسيماً تقليدياً ، وإلاّ فما كان أسهلَ التقسيم التقليديّ عليَّ ، فأقول : القسم الأول : بكر... ابن الأعرابي... الخوارزمي... وهكذا ، ثم آتي إلى القسم الثاني فأقول : الجواهري... جمال الدين... المخزومي... الطاهر... وهكذا .

أمّا السببُ الثاني فهو أنّني أردتُ أن أُنبِّه إلى اللُّحمةِ الخلاّقة بين ماضينا وحاضرنا الثقافيّين ، لأنني أرى أنَّ هذه اللُّحمةَ تكادُ تنقطعُ إن لم تكن قد انقطعتْ ـ ودعْ عنك التنظيرَ الأجوفَ ـ فعلاً عن جهلٍ مُرعِبٍ يُسمّيه أدعياءُ الأدبِ حداثةً مرّةً ، وأصالةً مرّةً أخرى . فإذا نظرتَ في رطانة الاثنينِ من أدعياء الحداثة والأصالة وجدتَها رطانةً غريبةً واحِدةً ، ووجدتَ أنَّ كلَّ ما هنالك من فرقٍ بينهما أن اغترب الأدبُ الحديثُ في الجغرافيا ، واغترب الأدبُ التقليديُّ في التاريخ ، وسيكون من المُضحك حدَّ الاختناقِ أن توازنَ بين موتين أيُّهما أفضلُ : الموتُ أم المنيَّةُ ؟

هذا ما عنَّ لي أن أكتبَه فكتبتُهُ غيرَ مُدَّعٍ أنّه أدبٌ فضلاً عن أن أدَّعي أنّه صوابٌ ، فإن كان فيه ما يُقرأ فتلك فرحةُ كلِّ مَن يكتبُ شيئاً للناسِ ينشره عليهم ، وإنْ لم يكن فيه ذلك فإنَّ فيه لأجيالنا القادمة نمطاً من تفكيرٍ ، وهَمّاً من هُموم .

محمد حسين الأعرجي

الأستاذ بجامعة آدم مشكيفج ـ بوزنان . بولندة

بوزنان : ٢٢/٤/١٩٩٨



شاعران ثائران

بكر بن عبد العزيز العجليّ

محمد مهدي الجواهريّ




مكتبة
الفكر
الجديد

بكر بن عبد العزيز العِجليّ

وديوانُه

لم يقف مصدرٌ من مصادر الأدب المعروفة عند بكرٍ شخصاً ، أو شاعراً ؛ فما كان هذا الشاعرُ ليُعرَف لولا أن نازعَتْه نفسُه إلى الإمارةِ ، ولولا أنه ثار من أجلها مما جعَل مصادر التأريخ الإسلاميِّ تمرُّ به نازعاً ثائراً .

وإذا كانت هذه المصادر تقف عندَه ، وقد أقَلَّتْه السنون أن يثور وأن يُشاقِقَ أهل السلطانِ في عصرِه ؛ فإنَّها لم تكد تلمحُهُ وهو طفلٌ ، ولم تحفل به وهو صبيٌّ ؛ مما يجعل الدارسَ يتلمَّسُ أمر سيرتِه تلمُّساً حذِراً ، فيقول :

هو بكر بن عبد العزيز بن دُلف بن القاسم بنِ عيسى (والقاسمُ هو المعروف بأبي دُلف العجلي) بن إدريس بن معقل بن عمرو بن شيخ بن معاوية بن خزاعيِّ بن عبد العُزّى بن دُلف بن جُشم بن قيس بن سعد بن عِجل بن لجيم بن علي بن بكر بن وائل...[1] ، يُكنى بأبي دُلَف[2] .

لا نعرف متى وُلِد ، ولكنَّنا نُرجِّح أنَّه تُوفِّي عنه أبوه عبد العزيز ، وهو

---

(١) الأنساب ١٠ : ٣٨٢ ، والأغاني ٧ : ٢٨١ ، وسلسلة نسبه في جمهرة أنساب العرب ٢ : ٣١٢ مختلفة ففيه : «معقل بن سيار بن شيخ بن سيار بن عبد العزى...» ودرجت مصادر ترجمته أن تقول : إنه بكر بن عبد العزيز بن أبي دلف اختصاراً ، ولكن ابن حزم نصَّ على أنَّ جدَّه هو دُلف ، ويوافق ما قاله ابنُ حزم ما جاء على وجه الورقة الأولى من ديوانه .

(٢) لم يذكر أحدٌ كنيته وإنما هي من شعره .



صغيرٌ ؛ إذ لم نجدْ له في حياة أبيه ذكراً مثل الذي وجدناهُ لأخويه : دُلفٍ ، وأحمدَ . وإذا كنّا لا نعرف تاريخ وفاةِ أبيه على وجه اليقين ؛ فإنا نعرف أن أخبارَه قد انقطعت عنّا بعد سنة سبعٍ وخمسين ومائتين يومَ «فارق... الريَّ من غير خوفٍ ، وأخلاها »[1] لصاحب طبرستان الحسن بن زيد العلويّ ، مما يدلُّ على أنه توفّي بعد ذلك بمدّةٍ يسيرة ، فإذا صحَّ هذا صحَّ معه أن يكون شاعرنا قد وُلِد قبل سنة : ٢٥٧هـ .

وأجدني ميّالاً إلى القول إنه ولِد في سنة : ٢٥١هـ على وجه التقريب ؛ يدفعني إلى ذلك أنّه شارك أخاهُ أحمدَ في الوقعة التي كانت بينه وبين عمرو بن الليث الصفّار في شهر ربيع الأول من سنة : ٢٧١هـ[2] . فقد وجدناه يفخر ببلائه في هذه الوقعة[3] ، على الرغم من سكوت مصادر التأريخ عن مشاركتِه فيها . فإذا قدّرنا أنه كان ابنَ عشرين يوم شارك فيها كانت تلك سنة ولادته .

على أن مما يلفتُ النظر في آخر ورقةٍ من شعرِه ما رواه الناسخُ من أن الخليفة المتوكّل سأله عن دواء الخمار ؛ فقد ورد فيه : «قال المتوكل لأبي دُلف : بلغني أن عندَك دواءً للخُمارقال : نعم تقبيلُ الأبكارِ ، ومصُ الفَلَج »[4] . وهذه الراوية لا تصحُ أن تُنسَب إلى أبي دلف الجدِّ لأنه كان قد مات قبل خلافة المتوكّل ، ولا تصحُ أيضاً أن تُنسبَ إلى صاحبنا لأن سنَّه في حياة أبيه لم تكن تؤهّله ـ كما رأينا ـ أن يشاركه وقائعَه ، فإذا علمنا أن كنية والد شاعرنا بكرٍ هي أبو دلف ، ولعلَّ دلفاً هو ولدُه الأكبرُ ملنا إلى أن الذي سأله المتوكّل هو والد الشاعر وليس الشاعر .

---

(١) الكامل في التأريخ ٧ : ٢٤٩ .

(٢) السابق ٧ : ٤١٦ ، وتأريخ الطبري ١٠ : ١٢ .

(٣) تنظر قصيدته التي مطلعها :

ليس هذا أوان ذات الحجال ... فاصرمي قد صرمتُ منك حبالي

(٤) في الأصل : الثلج . وهو تصحيف .



وعليه ، وُلِد بكرٌ في حدود سنة : ٢٥١هـ في بلاد الجبل ـ كما يغلب على الظن ـ لبيتٍ عربيٍّ عريق أصله من الكوفة ، ولكنَّه انتقل إلى أصبهان في زمنٍ لا نعرِفُه على وجه التحديد ، وإن كنّا نعرف أن عيسى بن إدريس العِجليَّ كان «هو وأولادُه يقطعون الطريق في بريَّة نواحي أصبهان ، ثمَّ تابَ وجمع عشيرتَه ، وأجرى الماء في أرض الكَرَج ، وتوطَّنها ، ثم ابنُه أبو دلَف القاسم بن عيسى... زاد في عمارتِها ، وجعلها تُشبِه البلدة»[١] . وكان بناؤها في زمن الخليفة المهدي .

والبيتُ الذي وُلد فيه بكرٌ بيتُ إمارةٍ ورِثها عن باني مجد هذا البيت ، أعني به : أبا دلف القاسم بن عيسى العِجلي ؛ إذ لم يكن أحدٌ من أهلِ بيتِه ذا شأنٍ قبلَه ؛ فإذ كان أبوه عيسى بن إدريس ـ كما رأينا ـ قاطعَ طريقٍ ، فإنَّ جدَّه إدريس بن معقل «كان عطّاراً»[٢] . ولعلَّ هذه الحقيقة ـ زيادةً على سلسلة النسب ـ هي التي جعلتْ عبد العزيز أبا شاعرِنا يُسمي أحد أبنائه بِدُلَف ، وجعلت الشاعر نفسَه يكتني بأبي دُلف كما هو واضحٌ من شعرِه . وكأن أفراد هذا البيت كانوا حريصين أن يُخلِّدوا اسمَ باني مجدِهم جيلاً بعدَ جيل .

وهو بيتُ شِعر أيضاً ، فقد كان أبو دلف العجلي شاعراً مثلَ أبيه[٣] ، وكان ابنُه عبد العزيز شاعراً أيضاً[٤] . أما الحديث عن شجاعة أهل هذا البيت وفروسيَّتهم فقد تكفَّلت به كتبُ التأريخ ؛ فقد كان أبو دلف ـ على سبيل المثال ـ من قواد الخليفة المأمون ، وكان ابنُه هشامٌ من قواد المستعين[٥] .

---

(١) الأنساب ١٠ : ٣٧٩ .

(٢) جمهرة أنساب العرب : ٣١٢ .

(٣) تنظر مقطوعة عيسى العجلي والد أبي دلف في ثمار القلوب : ٣٦١ .

(٤) تاريخ الأدب العربي ٢ : ٥٣ . ونقل الدكتور شوقي ضيف عنه دونما إشارة في تأريخ الأدب العربي . العصر العباسي الثاني : ٤٠٩ .

(٥) ينظر الكامل في التاريخ ٧ : ١٦٤ ، ١٦٥ .



ويهمني من أمر هذا البيتِ أنه كان لأبي دُلفٍ من الأولاد يوم أن توَفّيَ ممن نعرف ـ ولستُ في معرض التأريخ له ولأولاده ـ دُلف ، وعيسى ، وإبراهيم[1] ، وهشام ، وأنه كان لدُلف ، ممن نعرف أيضاً ، ولدان هما : محمد[2] وعبد العزيز ، فأما محمد فقد أنجبَ عليّاً الجدَّ الثالث لابن ماكولا صاحب «الإكمال» ، وأما عبد العزيز فقد أنجب ستةَ أولادٍ هم :

- دُلف .
- وأحمد ، وكنيتُه أبو العباس[3] .
- وعُمر[4] .
- والحارث ، وكنيتُه أبو ليلى ، وأبو وائل .
- وبكر ، وكنيتُه أبو دُلَف .
- وهَطّال[5] .

وكان أبو دُلفٍ قد أسَّس لنفسِهِ ـ كما هو معروفٌ ـ «سلطاناً مستقِلاً في الكَرَج بين همذان وأصفهان ، وكان والياً عليها للمأمون والمعتصِم»[6] . فاستأنف حفيدُه عبد العزيز على أيام الخليفة المعتز بالله عملَ جدِّه ، فولي الجبل سنة اثنتين وخمسين ومائتين ، وكان الذي ولآه وصيف ، فبلغت ولايتُه بعد سنتين الأهواز ، وجندي سابور ، وتستر ؛ فقد جباها له ولدُه دُلف[7] .

---

(١) ينظر شعراء عباسيون ٢ : ٢٧ .

(٢) لم يذكره ابنُ حزم في جمهرة أنساب العرب .

(٣) كُنى أولاد عبد العزيز مأخوذةٌ من شعر بكر .

(٤) هكذا هو اسمُه في ديوان أخيه بكر ، وهو يردُ في كتب التأريخ على : عمرو ، وكذلك سماه ابنُ حزمٍ ، وليس بصحيح ، وتابعه عليه الدكتور يونس السامرائي في شعراء عباسيون ٢ : ٢٧ .

(٥) انفرد ابنُ حزمٍ بذكره ، ولم يرد شيءٌ من أخباره في كتب التأريخ ، ولعل السبب في ذلك أنه لم يكن مثل إخوانِه عنفواناً وثورةً .

(٦) تاريخ الأدب العربي ٢ : ٥٢ .

(٧) ينظر تاريخ الطبري ٩ : ٣٧٢ ، ٣٨١ .



وخَلَف دلفُ أباه ـ وهو على قيد الحياةِ ـ في ولايته حتى وثَبَ به القاسمُ بنُ ممّاه وهو بأصبهان ، فقتلَه سنة ستٍّ وخمسين ومائتين ، فخلَفه أخوه أحمد على ولاية الجبل حتى وفاتِه في آخر شهر ربيع الأول من سنة ثمانين ومائتين[1] .

وبوفاة أحمد بقي من أولاد عبد العزيز أربعةٌ هم : عمر ، وبكر ، والحارث ، وهطال ، فتنازع عمر وبكر على الولاية .

ويُخيَّل إليَّ أن عمر كان أكبر سناً من بكر ، وأنَّ رئاسة بني عجلٍ ، وولاية الجبل كانتا له ، ولكنَّ الخليفة المعتضد لم يُولِّه إلاّ بعد سنةٍ من قيامِه الفعلي بالولاية ، مما جعله يتمرَّدُ على الخلافة ، ويُشاقِقُ الخليفة .

ووقف بكرٌ أوّل الأمر مع أخيه ، فقاتلا معاً ـ بعد وفاة أخيهما أحمد ـ رافع ابن هرثمة ، وانهزما أمامه في جُمادى الأولى من سنة ثمانين ومائتين[2] . ولكن عبيد الله بن سليمان ، وزير المعتضد ، وبدراً غلامه استطاعا أن ينفذا إلى مطامح بكر في الولاية فيثيراها أشدَّ ما تكون الإثارة ، حين وعدا بكراً ـ وقد دخل في أمانهما ـ أن يتولّى عمل أخيه إذا هو حاربه ، مما أطمعه في ولاية أخيه ، وجعله ينازعه إياها[3] .

ولم تكن ولاية الجبل التي طمع فيها بكر يوم ولاّها المعتضدُ عمر بن عبد العزيز لتتعدّى « أصبهانَ ونهاوندَ والكَرَجَ » مما جعلَ عمر ـ كما يبدو ـ مستمراً في سخطه على الخلافة وفي تمرّدِه ، حتى دخل في الأمان سنة ثلاث وثمانين ومائتين .

وإذ دخل عمر ـ كما قلتُ ـ في أمان بدرٍ وعبيد الله انقلب الرجلان على بكرٍ ـ كما هو منتظر من ألاعيب السياسة وأشراكِها ـ وأناطا أمرَه وأمرَ أخيه

---

(١) ينظر السابق ٩ ، ٥٤٢ .

(٢) ينظر الكامل في التاريخ ٧ ، ٤٥٧ .

(٣) ينظر تاريخ الطبري ١٠ ، ٤٧ ، والكامل في التاريخ ٧ ، ٤٧٩ .



برأي الخليفة المعتضد قائلَيْنِ له : «إن أخاك قد دخل في طاعة السلطان ، وإنما كنا ولّيناك عملَه على أنه عاصٍ ، والآن فأميرُ المؤمنين أعلى عيناً فيما يرى من أمركما ، فامضيا إلى بابه»[1] .

ولم تكن خسارة بكر لتمرَّ على نفسِه مَرّاً هيناً ، فجمع من أصحابه العرب ما جمع ، وتوجه بهم إلى الأهواز ، «فوجَّه المعتضدُ في طلبه وصيفاً موشكير ، فخرج من بغداد في طلبه حتى بلغ حدودَ فارس ، وكان لحِقَه.. ولم يُواقِعه ، وباتا كلُّ واحدٍ قريبٌ من صاحبه ، فارتحل بكرٌ في الليل فلم يتبعه وصيف ، ومضى بكرٌ إلى أصبهان ، ورجع وصيف إلى بغداد ؛ فكتب المعتضد إلى بدرٍ يأمره بطلب بكر وعربِه ، فتقدَّم بدرٌ إلى عيسى النوشريِّ بذلك»[2] ، فانهزم عيسى أمامَه ؛ فقال بكرٌ يذكر هربَه ، وإحجامَ وصيف عن مقاتلتِه قصيدتَه التي مطلعها :

عنّي إليك فليس حين ملامِ ... هيهات أجدب رائد اللوّامِ

وفي شهر صفر من سنة أربع وثمانين ومائتين أعادَ النوشريُّ الكرَّة على بكر وهو في حدود أصبهان «فقتل رجالَه ، واستباحَ عسكرَه ، وأفلتَ في نفرٍ يسيرٍ»[3] ، فلحِق بمحمد بن زيد العلويِّ بطبرستان ، وكان قد مهَّد لهذا اللحاق ـ على ما يبدو ـ بقوله :

أنا الرَّبعيُّ بكرٌ لستُ أبغي ... فإنَّ البغيَ يُزري بالكرامِ
ولكنّي بعون الله أدعو ... إلى آل الرسولِ عُرى الأنامِ

على أنَّ قولي هذا لا يعني أنّه قال ما قال قبل توجّهه مُباشرةً إلى محمَّدٍ

---

(١) المصدران نفساهما .

(٢) تاريخ الطبري ١٠ : ٤٧ ؛ والكامل ٧ : ٤٨٠ .

(٣) تاريخ الطبري ١٠ : ٥١ ؛ والكامل ٧ : ٤٨٤ ، ويبدو أن مصادر التاريخ لم تذكر كل معاركه ، ففي إحدى هذه المعارك المنسية سار إليه المعتضد ومعه بنو حمدان . ينظر ديوان أبي فراس : ١١١ .



تملُّقاً له ، فأنفي بذلك عنه تشيّعه ؛ إذ أن بكراً قد ورث التشيّع ـ كما يبدو ـ عن جدّه أبي دلف[1] ، وعن عائلته .

وأغلبُ الظنِّ أنَّ أخاه الحارث كان يقفُ إلى جانبه في صراعه مع عمر مما جعلَ عمر يعتقِله في قلعةٍ لهم بالكرج تُدعى : الزُّزّ ، فكان من أمر الحارث ـ وقد انهزم أخوه بكر ـ أن ينتقم لهزيمة أخيه ، فاستطاع أن يكسر قيودَه ، وأن يُفلِتَ من مُعتَقَله في القلعة ، وأن يُجهِّز أصحابَه يخرجُ بهم على السلطان ، فكانت بينه وبين عيسى النوشريِّ وقعةٌ «دون أصبهان بفرسخين ، فأصابَ أبا ليلى [الحارث] سهمٌ في حلقه... فنحرَه فسقطَ عن دابَّته ، وانهزم أصحابُه ، وأُخذ رأسُه إلى أصبهان»[2] . ثم إلى بغداد ، ثم استوهبَه أخوه عمر من المعتضد فوهبه إياه فدفنه[3] .

وبكى بكرٌ ـ كما هو منتظرٌ ـ أخاه الحارث حتى لحِق به ؛ إذ توفي في طبرستان سنة : ٢٨٥هـ[4] . أما تفاصيل هذه الوفاة فيقال : إنَّ محمد بن زيد

---

(١) ينظر في تشيّعه مروج الذهب ٤ : ٧٥-٧٦ ، ووفيات الأعيان ٤ : ٧٧-٧٨ وقد أجهد الدكتور يونس السامرائي نفسه كثيراً في نفي التشيّع عن أبي دُلف العِجلي جدّ بكر ، وكأنَّ التشيع لآل البيت سُبّةٌ يجب أن ينزّه العِجليون الكوفيون عنها . ينظر شعراء عباسيون٢ : ٢٢-٢٣ . وينسى الدكتور يونس أن الكوفة موطن الشيعة الأول ، على أنني أظنُّ أن ماترويه بعض المصادر من أنه قال : «من لم يكن مُغالياً في التشيع..» هو من أكاذيب خصومه عليه . ومن أعاجيب الدكتور يونس أن عدَّ وقوف أبي دلف إلى جانب المأمون وسواه من الخلفاء العباسيين دليلاً على عباسيّة الرجل فإذا صحَّ دليله هذا فمعناه أن الإمام الرضا كان من شيعة بني العباس أيضاً ؛ لأنه قَبِل أن يكون وليَّ عهد المأمون ؛ فأيُّ عاقل يقبل هذا ؟ ومن أدلّته أنه كان مُقرَّباً «إلى قاضي القضاة أحمد بن أبي داود الذي كان يُمثّل الجانب العربيّ في تلك الحقبة» وهو دليل آخر يبعث على العجب . فهو يفترضُ أنَّ كلَّ شيعي هو فارسيٌّ بالضرورة . فإذا كان هذا هكذا فكثيِّر عزّة فارسيٌّ ، والكميت ، ودعبل ، ومحمد بن صالح العلوي ، والحماني العلوي ، وأبو فراس الحمداني ، والشريفان الرضيّ والمرتضى وعشرات سواهم كلّهم من الفرس . فهل قال أحد النسّابين بهذا ؟

(٢) الطبري ١٠ : ٦٦ ؛ والكامل ٧ : ٤٨٨ .

(٣) ينظر الطبري ١٠ : ٦٧ .

(٤) مروج الذهب ٤ : ٢٢٦ ، وينظر الكامل في التاريخ ٧ : ٤٨١ .



العلويّ قد «... أكرمَه ، وأقطعه بلاد رُويان ، وجالوس ، وقبل أن يصل... إلى ولايته الجديدة هذه قُتِل مسموماً في مدينة ناتل...»[1] .

وهكذا طُويت حياةُ شاعرٍ فارس وهو في العقد الخامس من عُمره .

والآن وقد التقطنا من حياة بكرٍ ما يسَّرته مصادرُ التاريخ لنا منها ينبغي أن نقفَ وقفةً قصيرةً عند شعرِه . وهذه الوقفة لا تعدو أن تكون عرضاً لما انطبع في نفسي وأنا أقرأ ديوانَه ، فأقول :

يوشِك أن يكون ديوانُ بكر بِدعاً بين دواوين الشّعر العربيِّ ؛ إذ تلتبسُ قضيةُ الصدق الأخلاقيِّ فيه بالصِّدق الفنيِّ التباساً قلَّ أن نجد نظيراً له عند الشعراء الآخرين . ومن هنا لا يكاد يمرُّ بك بيتٌ لا تجد مصاديقَه في حياة بكرٍ نفسها ، هذه الحياة التي أوشكتْ أن تنقسِم ـ لولا إلماحاتٌ حيِيَّةٌ إلى المرأة ـ على جانبين لا ثالث لهما هما : فروسيَّته ، وتوجّعُه على أهل بيتِه .

فأمّا فروسيّته ففي ما سُقناهُ من تفاصيل حياتِه ما يقفُ شاهداً لا يعرف الزُّورَ عليها ، وأما توجّعُه على أهل بيته فبحسبِه أن يكون فُجِعَ ـ وهو يُعاني مرارةَ الهزيمة ـ بأقرب الناسِ إلى نفسه ، وأعزِّهم عليها : أخيه أبي ليلى الحارث .

ولعلَّ حياةً حافلةً بالمعارك ـ مثل حياة بكرٍ ـ تُغري العارف بها بانتظار أن يرسُم له بكرٌ في شعرِه لوحات معاركِه ، وتوشية تفاصيلها بما يجعلها لوحاتٍ فريدةً في تأريخ الشعر العربيِّ تتحدَّث عن هذه المعارك من داخلها ، وترصد أحاسيسَ أبطالِها ، وحركاتِهم ، وليس كما فعل الآخرون من شعرائنا حين راحوا

---

(١) تاريخ الأدب العربي ٢ : ٥٢٠ . ويبدو أنه اعتمد تاريخ طبرستان لابن اسفنديار وهو بالفارسية ، إذ ليست هذه المعلومة في سائر المصادر ، وكرّرها الدكتور شوقي ضيف في تاريخ الأدب العربي ـ العصر العباسي الثاني : ٤١١ دون أن ينصّ على مصدر أو مرجع . فهل يُحسن الدكتور ضيف الفارسية ؟ وناتل . وتسمى ناتلة أيضاً بلدٌ بنواحي طبرستان بينها وبين آمل خمسة فراسخ .



يصفونها مُتفرِّجين مرَّةً ، ومُتخيِّلين أخرى . ولكنَّ هذا الانتظار يذهب سدًى ؛ لأن نزعة الفخر ـ وربما جاءته هذه النزعة من ثقافته الشعرية ـ كانت تطغى على شعرِه طغياناً جعلَه ، وهو يتحدَّث عن هذه المعارك ، يتَّكيء على حافظتِه لا على خيالِه ، فلا نظفر منه في وصف وقائعه بأكثر من «التقت حلَقاتُ البطان» و«صمَّت صَمام» و«صابت بقُرّ» و«شمَّرت الحربُ عن ساقها» وما إلى ذلك مما درَج الشعراءُ العربُ على وصف ضراوة النزال به ، وصراع المتحاربين ، فأصبح لكثرة تكراره من قبيل العبارات الجاهزة التي لا تعني شيئاً ، ولا تثير في مخيلة السامع شيئاً .

وكان من المقدَّر لهذا الجانب أن يجعل شعره باهتاً لا قيمة له ، ولكنَّ تدفّقه الحادّ ، وشبوب أحاسيسه جعل الأمر مختلِفاً .

وإذاً ، استحال خوض المعارك عنده إلى فخرٍ ، وهذا طبيعيٌ مُنتظَرٌ ممن هو مثلُه نسبَاً ، وشجاعةً ، ومنزلةً ، وكان يحفز نفسه إلى الفخر بكلِّ هذا عنده ، كما قلتُ ، ثقافتُه الشعرية . ولكنَّ هذا الفخر ـ وهذا من آيات صدقِه ـ لم يُنسِه أن يتذكَّر الجانبَ الآخر من حياتِه أيامَ الرَّخاء ، والدَّعة ، أعني جانبَ اللهو في حياة مَن هم مثلُه من الأمراء .

وينبغي ألاَّ نتصوَّر أنه انشغل بهذا الجانبِ من حياتِه ؛ إذ هو لم يكد يَمَسُّهُ إلاَّ مسّاً رفيقاً لا يشي بأنه من ذوي النفوس الصغيرة الذين يغرقون في ملذّاتهم غرقاً يُنسيهم كلَّ شأنٍ من شؤونِهم الأخرى :

ليس هذا أوانَ ذاتِ الحِجالِ ... فاصرِمي ، قد صرَمتُ منك حبالي
أنا منكنَّ ما صفا جانبُ الدَّهـ ... ـرِ . وما سالمَتْ صروفُ الليالي
فإذا ما ألمَّ خطبُ ترينني ... شَمِريّاً مُشَمِّرَ الأذيالِ

ويلفِتُ النظر مع هذا أنه لم يُفرِد قصيدةً للغزل بامرأةٍ ، أو للحديث عن ندماه ، فهل الحرمانُ من لوازم الحبِّ ؟!



وعلى أن كتب التاريخ تصوِّر لنا أنَّ الصراع الذي خاضه مع أخيه عمر على الولاية كانت تُغذّيه نوازعُ فرديّةٌ ـ وكدتُ أقول : أنانيّة ـ إلاّ أن ديوانَه يُنبئ عن حسٍّ عربيٍّ أصيلٍ ، قد يرى فيه الآخرون حسّاً قوميّاً ، وقد يستشهدون على رؤيتهم تلك بقولِه :

... ألقى الأحبّةُ في العراق عِصيَّهمْ ... وثَوَوا بدار إناخةٍ ومُقامِ
وتخاذل العربُ الذين تصدَّعوا ... وبقيتُ نصبَ حوادثِ الأيامِ

أو بقولِه :

موتوا جميعاً بني عدنان وانقرِضوا ... فليس في موتِكمْ نَفعٌ ولا ضررُ
... أراكمُ نُهزاً للصائلينَ ، وقد ... كانوا لكمْ نُهزةً والحربُ تستعرُ
فصِرتُمُ بعدَه نهباً لطالبِكمْ ... فتُنحرونَ كما قد تُنحَرُ الجُزُرُ
في كلِّ يومٍ بأيدي الكاشحين لكمْ ... دمٌ كريمٌ على أسيافِهمْ هَدرُ

ولعلَّ الذي عمَّق هذا الحسَّ في نفسِه أن الذين قاتلوه كانوا في الغالب من الأعاجم ، فلم يُقاتِله عليُّ بن المعتضد ، وإنَّما قاتله وصيف موشكير ، ولا أخوه عمر بن عبد العزيز وإنما عيسى النُّوشَريّ ؛ مما جعله ينظر إلى صراعِه مع أخيه على أنه صراعٌ عربيٌّ أعجميٌّ . ولم يكن هذا الحسُّ غريباً ـ لدى الحقِّ ـ على القرن الثالث الذي عاش فيه بكرٌ ؛ فقد رأينا أبا عليٍّ البصير ـ وهو من أبناء هذا القرن ـ «واقفاً بباب الجوسق ، وكانت المواكب تمرُّ به فيسأل عن أصحابها فيقال : هذا فلانٌ الخَزريُّ ، وهذا فلانٌ الفرغانيُّ ، وهذا فلانٌ الديْلميُّ ، ولا يُذكَرُ له أحدٌ من العرب المذكورين ، ولا من أبناء المهاجرين والأنصار ؛ فيقول : يا بني النِّعمة اصبروا لهم كما صبروا لكم»(١) .

والآن ، وقد عرفنا الهموم الكبيرة في ديوانه ، نقول : إنَّ الهموم الكبيرة ـ

---

(١) طبقات الشعراء : ٣٩٧ .



كما نعرف جميعاً ـ لا تصنع وحدَها شعراً ؛ إذ ليس من المهم في الشِّعر أن يقول فقط ، وإنما الأهم فيه أن كيف يقول ؟ أي كيف يصوغُ الشاعرُ هذه الهمومَ فنياً ، فكيف صاغ صاحبنا همومَه وطماحَه ؟

لم تكن موهبةُ بكرٍ من المواهب الكبيرة[1] ، بل لعلَّه لم يكن من المقدَّر له أن يصل إلى قرننا لولا صدقُه في الذي عالجَ ، وفي الذي قال ؛ ولولا ضربةُ حظٌّ بارِعة ؛ إذ هو من هواة الشِّعرِ الذين يقولونه في شؤونِهم الخاصة شأنه في ذلك شأن أبيه ، وجدِّه أبي دُلفٍ ، وأبي جدِّه .

وعلى أن هذه الحقيقة ـ أعني هواية الشعر ـ يمكن أن تكون له ، إلاّ أنها يُمكنُ أن تكون عليه . هي له بما يأسرنا به من صدقِه ، وهي عليه إذ لم يُطل النظرَ في شعرِه ، ولم يعدَّ الشِّعرَ همّاً من همومه التي ينبغي أن ينصرف إليها . والحقُّ أنَّ حياته لم تكن تسمح له بمثل هذا الانصراف . على أن هذا كلَّه لا يعني أنه لم تكن له قصائد جيّدةٌ من مثل قصيدتِه التي مطلعها :

طلابُ العُلا بركوبِ الغَرَرْ ولا ينفعُ المُشفِقين الحَذَرْ

فقد وجد فيها الناسُ في عصره من الجودة ما جعل المولَّدين يتخذون من مطلعِها مَثلاً يتمثَّلون بصدقِه كلما دعت الحاجة[2] .

وكان من الممكن أن تكون قصائدُه جميعاً على مثل هذا المستوى ، أو ما يُقاربه لو كان لبكرٍ من الثقافة الواسعة ما كان لمعاصريه من الشعراء ، ولو كان له من الموهبة الشعرية ما كان لمعاصريه من الشعراء ؛ ولكنَّ موهبته ـ كما أسلفتُ ـ لم تكن من المواهب الكبيرة . على أنَّ هذا لا يعني أنها كانت من المواهب الضحلة .

---

(١) توهَّم كارل بروكلمان في تاريخ الأدب العربي ٢ : ٢٠د أن أبا هفان كان يقول : «أدركتُ الناسَ يقولون : خُتِم الشِّعرُ ببكر بن عبد العزيز» مُحيلاً على شرح الحماسة للتبريزي ٠٦٦٠٥ . وليس النصُّ عن صاحبنا . وإنما خلط بينه وبين بكر بن النطّاح .

(٢) ينظر الأمثال : ٢٤٥ ، ٢١٨ .



أما ثقافته الشعرية فقد اقتصرت ـ كما يبدو ـ على الشّعر الجاهليّ دون أن تمسَّ شيئاً من رؤية المولّدين لطبيعة الشعر ، ودون أن تقترب من أساليبهم في قول الشعر إلاّ على استحياء .

ومن هنا كان أسلوبُه أقربَ إلى الجاهليين منه إلى مُعاصريه ، وكانت لغتُه الشعرية نفسُها أقربَ إلى لغتِهم ، حتى ليبدو من العسير على قارئه غير المتخصِّص ، وهو يقرأ قولَه :

فولَّوا شِلالاً فما يعلمونَ أمَرْخٌ خيامُهمُ أم عُشَر

أقول من العسير أن يكتشف أن عَجُز البيت لامرئ القيس وليس له . وحتى ليصعب عليه أن يجد فرقاً بين قول مُهلهل بن ربيعة التغلبيِّ :

إنّا لنضربُ بالسيوفِ رؤوسَهمْ ضربَ القُدار نقيعةَ القُدّامِ

وقول بكرٍ :

ولأضربِنَّ الهامَ دونَ حريمِهمْ «ضرب القُدار نقيعةَ القدّامِ»

وعلى أنَّ هذا يمكن أن يكون دليلاً على براعة بكرٍ ، وهو يوائم بين ما يقول وما يُضمِّن من قولٍ بحيث لا يندُّ قولُه عن قول الآخرين ، ولا يضطرب فيضمنُ بذلك استواء البيت إلاّ أن هذا لا ينفي دلالتَه الأولى أعني : قربَ لغته من لغة الشعر الجاهليِّ .

وترتّب على كونِ بكرٍ هاويَ شعرٍ لا محترفاً شيءٌ آخرُ يتعلّق ببناء قصيدتِه ، فكان البناء له ولتاريخ القصيدة العربية ؛ إذ أن قصائده جاءت قصيرةً لا يبلغ أطولُها الأربعين بيتاً . أمّا سائر ما في الديوان فهو مُقطّعاتٌ ، فكان من ميِّزات هذه القصائد أنّها توفّرت لا على الوحدة الموضوعية فحسب ، وإنّما كان في بعضها من النموّ والحيويّة ما يكادُ يُوفِّر لها وحدةً عضويّة . وإذا كان لا بدَّ من مَثَلٍ فتحضرني قصيدتُه التي يتحدَّثُ فيها عن أسرِه ، والتي مطلعها :



لطمتْ خدَّها وأعلنتِ الرنَّةَ (م) لمَّا رأت قيوداً ثِقالا

وإذا كان ذلك كذلك فمن البدهيِّ أن أقول : إنَّ قصائده لا تعرفُ شيئاً اسمُه مقدِّمة ، وإنما هي تنطلِقُ منذ البداية إلى موضوعِها حتى آخر بيت فيها .

وإذا كان من ملاحظةٍ على هذا البناء فهي أن القصيدة لا تشعِرُك ـ في أحيانٍ ـ أنَّها أكملت دورتَها فانتهت نهايتَها الطبيعيّة . ويمكنني أن أضربَ على هذا مثلاً بقصيدتِه التي ذكرتُها آنفاً : طلابُ العُلا بركوب الغَرَرْ

فقد انتهت عند قولِه :

أنا ابنُ الذؤابةِ من وائلٍ وفي السَّمعِ من عِجلِها والبَصرْ
نَمتْ بي إلى هضبةٍ في الذُّرى تُنهنِه من بسطةِ المُفتَخِرْ
وأيّامُنا في قِراعِ الكُماةِ وفكِّ العُناةِ مشاهيرُ غُرْ

أقول : انتهت عند هذا الحدّ ، وهي نهايةٌ يتوقَّع معها القارئُ أن يكون لها ما بعدَها ، ولكنَّ توقّعه يخيبُ ؛ لأن الشاعرَ شاء أن يُنهي القصيدة قبل أن تنتهي هي ، وقبل أن تخبو جمرة عنفوانها . ولعلَّ قِصرَ نفس الشاعرِ يقفُ وراء مثل هذه النهاية[١] .

وتُحسُ أحياناً أنَّ انفعاله أكبرُ من أدواتِه الشعرية ، أو أن المعاني الشعرية تُعاصيه فيلجأُ إلى مبالغاتٍ هي أقربُ إلى سذاجة الانفعال العاديِّ منها إلى الانفعال الفنيِّ ، كمثل قولِه يُخاطبُ العربَ بعد موتِ أخيه أحمد :

لو كان فيكمْ لربِّ الخلقِ من أربٍ ما ماتَ سيِّدُكمْ ما أورق الشَّجرُ

وتبدو لك القافيةُ في أحيانٍ قليلةٍ لا تنهضُ بالبيتِ نهوضاً يُبقي معناهُ في نفسِك فضلاً عن أن يؤكِّدَه كمثل قولِه :

---

(١) وتنظر أيضاً قصيدته التي أوّلها :

ومُجرِّرٍ لقناتِه خرَقَ الصفوفَ يريدُ قرنا

ومُقامُ العزيزِ في بلَدِ الذُّلِّ (م)		إذا أمكنَ الرَّحيلُ مُحالُ

فالقافية : «محالُ» نزلتْ ـ كما هو بيِّنٌ ـ بالبيت من علياء سماوات الشعر إلى وهدة النثر المألوف .

واضطرَّته القافيةُ ـ ذات مرّةٍ ـ ألاّ يفرِّق بين الفصل والوصل فيقول :

ولربَّما أبصرتَني في ريطةٍ		بين الغواني مُرجَّلاً وكحيلا

ولبكرٍ نظراتٌ في الحياة مبثوثةٌ في قصائده كان من المُقدَّر لها أن تكون خالدةً خلود نظرات المتنبّي لو كان رُزِق موهبته ، ولكن هذه النظرات رغم سيرورة بعضها لم تأتلِق بتوهّج الحياة الذي يهبُها السيرورة المُتألِّقة المتوهّجةَ على مرِّ العصور .

ورغم كلِّ هذا فشعر بكرٍ يرقى إلى درجةٍ رفيعةٍ بموقفِه ـ والشِّعرُ موقفٌ ـ وبصدقِه مع نفسِه ، ولعلَّه بسببٍ من هذا يبقى قريباً إلى النفسِ حميماً كما لو أنه حديث صديق صدوق يبوح لك بأسرارِه حاليْ فرحِهِ وحُزنِهِ .



شيءٌ عن الجواهري

الشاعر والنبوءة

ولهذه النبوءة قصَّةٌ ؛ فقد زار الكويت بدعوةٍ منها عام ١٩٧٩ : إذا صدقت الذاكرةُ ، وقرأت كفَّه فيها إحدى الزاعمات أنهن ممن يعرفن الغيب من خلال قراءة الكفِّ ، فقالت له : إنَّك لن تموت قبل أن تبلغَ المائةَ ، وكان سعيداً بهذه القراءة إلى درجة أنه كان يُباهي بها .

ولكنَّه كان قبل هذه القراءة ـ وهو المحبُّ للحياة ـ يكابرُ أصدقاءه بأنَّه لن يموتَ قبلَهم حتى لأتذكَّر أنه خاطبنا ذات يومٍ : المخزومي ، والطاهر ، وأنا :

ـ والله لآكل حلاوتكم (يقصد الحلاوة (الحلواء) التي اعتاد أهل الميت أن يُطعموها الناسَ يوم مرور أربعين يوماً على وفاتِه) .

وقد أكل حلاوة المخزوميِّ ، والطاهر ومئاتٍ من أصدقائه أمثالهما ، ولم يأكل حلاوتي حتى إنه سألني ذاتَ يومٍ مازحاً :

ـ ولك ، إذا متُّ ترثيني ؟

ـ موت وشوف أبو فرات (بمعنى متْ ترَ) .

ـ طاح صبغُك .

وكان للجواهريِّ من صحةِ الحدس ما يدخل في عالَم النبوءاتِ فعلاً



(وقديما خلط العربُ النبوّةَ بالشعر ؛ لأن من وظائف الشعر عندهم النبوءة) .
فمن نبوءاته أنه كان قد رافقه أحدُ أصدقائه من الشعراء العراقيين على متن طائرةٍ تُقلِّهما من براغ إلى بغداد . وأحسَّ الجواهريُ أن الطائرة ستتعرَّضُ إلى شيءٍ ؛ فلم يكتم ذلك عن رفيق رحلتِه ، ولكنَّه وهو يُفاتحه بما أحسَّ لم يكن يدري أن صاحبَه سيرتعبُ كلَّ ذلك الرُّعبَ ؛ فقرَّر أن يتمادى في تهويل حدسِه ؛ فتناول زجاجة البيرة التي أفرغها توّاً ، وكتبَ على ورقةٍ : «أنا الشاعر العراقي محمد مهدي الجواهري أُحسُّ بأن هذه الطائرة ستسقطُ فلا يخرج منها أحدٌ سالماً» ثم كتب الساعة والدقيقة ووقَّع ، ولفَّ الورقة فأدخلها في الزجاجة وأحكم سدادها . فعلَ الجواهريُّ كلَّ هذا ببرود أعصابٍ ، وكان صاحبه يحسُّ أن قلبه نزل إلى سُرَّته ـ من الخوف ـ ولم يعد في صدره .

وما هي إلاّ دقائق حتى اضطربت الطائرة ، وأشعل قائدها الضوء الأحمر ، وطلب من ركابها شدَّ الأحزمة ، ثمَّ هبط مضطراً في مطار صوفيا . حدثَ كلُّ هذا والجواهريُّ سعيدٌ يضحك أنَّ صاحبَه خائفٌ وأن نبوءته تحقَّقتْ .

وإذ روى لي الحكاية ، كان صاحبُه قد رواها لي من قبلُ ، مما جعلني أسأله ، وأنت ألم تحسَّ بالخوف من الموت ؟

قال : لا ، لأنني بالغتُ في تصوير حدسي لمّا رأيتُ رُعبَ صاحبي .

وإياك أن تظنَّ أن الجواهري ممن يتلذَّذ بخوف الناس ، ولكنه كان من الولع بممازحة أصدقائه ونصب المقالب لهم شيئاً عجيباً ، ولن يكفَّ عنك إذا نصبَ لك المقلبَ إلاّ حين يتأكَّد من أنك استوفيتَه . وكانت علامةُ الاستيفاء عنده أن يهتف مُبتهجَ الصدرِ ، سليمَ الطوية :

ـ أكلها طريمش .

طاف هذا في ذهني كما يطوف النَّدى في رمالٍ قاحلة وأنا أستمع منصعِقاً إلى نبأ وفاته ؛ فوجدتُني مُنشدّاً إلى كلِّ ذكرى عذبةٍ من ذكرياتِه حتى إنَّني



هُرِعتُ إلى خزانةٍ صغيرةٍ في مكتبتي أُقلِّب فيها بعض ما أحتفظُ به من رسائلِه إليَّ وأوراقِه ؛ فورقةٌ يعدِّد فيها القوافي التي يمكن أن يستعملها في قصيدةٍ لا أظنُّ أنها اكتملتْ أو نُشِرتْ ؛ لأنه لا أكرم من الجواهري في قراع خصومِه ، وأخرى يُعدِّد فيها ما أنفق من كرونات جيكيَّة في هذا الشهر أو ذاك ليعرف كيف يتدبَّر أمره ، وثالثة يتعلَّمُ بها بعض الكلمات الجيكية يكتب نُطقها بحروفٍ عربيةٍ ، وخامسةٌ وسادسةٌ ، وهكذا .

ولكن كيف تهيَّأ لي أن أعرف الجواهريَّ وأنا لا أكاد أبلغُ نصفَ سنِّهِ . إنَّ لذلك قصَّةً ترتبطُ أعمق الارتباط بإيمان الجواهريَّ بضرورة أن يمتلك كلُّ إنسانٍ ضميراً اجتماعياً يضعُ المقاييس في نِصابِها .

كان ذلك في عام ؛ ١٩٦٩ يوم انعقد مؤتمر الأدباءِ العرب في بغداد[١] الذي ألقى الجواهريُّ فيه ؛

يا ابنَ الفراتين قد أصغى لك البلدُ	زعماً بأنَّك فيه الصادحُ الفردُ

فقد كان من أمرِ هذا المؤتمر أن تألَّب جماعةُ الكتبة من جمعيَّة المؤلِّفين والكتّاب العراقيين على الجواهريَّ ؛ وكأنَّهم لم ينسوا ثأرهم عن قصيدته الميميَّة «دارة المجد» التي قالها قبل ستِّ سنواتٍ من انعقاد المؤتمر المنشورة في الجزء السابع من ديوانه ، ، والتي لم يُنشَر فيها قوله مخاطباً عبد السلام عارف رئيس الجمهورية العراقية ، وجمال عبد الناصر الذي هيَّأ للانقلاب الأسود : انقلاب شباط عام ١٩٦٣ :

يا عبدَ حربٍ وعدوَّ السلامْ	يا خِزيَ من زكّى وصلّى وصامْ
يا ابنَ الخنا إنَّ دماء الكرامْ	نارٌ تلظَّى في عروق اللئامْ

---

(١) وينظر أيضاً أستاذ ن كبيران فقد تكرر الحديثُ عن هذه الذكرى في ذكرياتي عن أستاذي العلامة الدكتور علي جواد الطاهر .



أبكي بأنَّ الطفلَ بعدَ الرضاعِ ... يُذبَحُ والذَّبحُ له كالفِطام
فهنِّئ الفرعونَ في «مِصرِهِ» ... بينَ الغواني وكؤوسِ المُدامْ
أن العراق انتُهبتْ دورُه ... عشيَّةً ثمَّ استتبَّ النظامْ
وكان للأزهرِ من شيخِهِ[1] ... عمامةٌ قد باض فيها الحَمام

أقول : تألّب جماعة الكتبة فكان أن ألقى في المؤتمر المحامي هلال ناجي قصيدةً يردُّ فيها على الجواهري قصيدتَه :

من قالَ والخسفُ يطوينا وينشرنا ... وفي جراحاتنا من قيدِهِ أثرُ
«فضيِّقِ الحبلَ واشدُدْ من خناقهمُ ... فربَّما كان في إرخائه ضررُ» ؟

وكان كلُّ هذا مما يمكن أن يتكفَّل به الفقيد في القاعة . فأما الذي لم يتكفَّل به فهو أنَّه كان بسيم الذويب ـ وهو ضابط شرطةٍ يحبُّ الأدب ويكتب الشعر من أعضاء جمعية الكتاب والمؤلّفين ـ قد قرَّر أن يُصدر كتيِّباتٍ اسمها «شعراء المؤتمر» ينقلُ فيها للناس القصيدة التي ألقاها هذا الشاعر أو ذاك ثم ينقدها . وكان من انعدام الحسِّ الأدبيِّ في أمر هذه الكُتيباتِ ، ومن غلبةِ أمر التجارة عليها بحيث أن كان يقرأ الشاعرُ قصيدتَه الليلة فتصدر بعد أيامٍ .

وقرأتُ ما قال عن الجواهريِّ فرأيتُ الجهلَ يمشي في كتيبِّه على قدمين ، ولم يكن يهمني أنذاك أن أناقشَ الحقدَ على الجواهري أو الخصومات السياسية معه أو ما أشبه ؛ لأن سنّي لم تكن تؤهِّلني أن أناقش مثلَ هذه الأمور .

وهالني جهلُ بسيم الذويب أن ينصبَ خبر «إنَّ» في القصيدة لكي يقول : إنَّ الجواهريَّ يجهل أن خبرها مرفوعٌ . وهكذا ؛ لأنَّ ما كتبتُ منشورٌ يُمكن أن يُرجع إليه . فكتبتُ إلى جريدة «النور» التي كانت تنطق باسم حزب الأستاذ جلال الطالباني مقالاً أناقشُ فيه ما قاله المرحوم الذويب ـ وكان المشرف على

---

(١) من الأمانة أن أقول إنني غير متأكد من رواية صدر البيت



الصفحة الأدبية في (النور) يومذاك الفقيد الأديب هاشم صاحب ـ ولم أكن أعرفه ـ وإذا بي أجد المقالَ يحتلُّ الصفحة الأدبية من «النور» بكامِلها!! .

ولك أن تتصوَّر مشاعر ولدٍ لم يكد يُجاوز المراهقة ويزعم أنه يهوى الأدب ـ وهو يرى أن أوَّل مقالٍ يُنشرُ له يحتلُّ صفحةً كاملة ـ كيف تكون ؟ فأما الولدُ فلا يستطيعُ أن يتذكَّرها تماماً ، ولكنه يستطيع بوضوحٍ تامٍّ أن يتحدَّث عن آثارها في حياتِه .

فكان من هذه الآثارِ أن دخلَ إلى صفِّه في كلية الآداب أول مرَّة الدكتور الراحل علي جواد الطاهر ، فقرأ أسماء الحاضرين وحين وصل إلى أن يقرأ اسمه سأله :

ـ أأنتَ صاحب مقالة «النور» يوم أمسِ ؟

فقال وهو خائفٌ وجِلٌ متلجلجاً :

ـ نعم أنا . وسكت الدكتور .

ولكن حين انتهت المحاضرة وخرجنا وجدتُ الدكتور الطاهر مع الفقيد الدكتور باقر سماكة يقول له :

ـ هذا هو الذي أنفقنا جلستنا أمسِ مع الجواهريِّ في مقالِه : إنَّه فلانٌ .

ولا أتذكَّر في كلِّ أيامي أنني كنتُ أتصوَّرُ أنَّ الدنيا كانت تستحقُّ أن تُعاشَ كما تصوَّرتها يومذاك وإلاّ فكيف تكافئُ ولداً مثلي لم يُجاوز تماماً أعتاب المراهقة أن يكون حديث مجلس الجواهريِّ .

وكانت الصاعقة الأخرى في حديث الطاهر أن الجواهريَّ كتب أبياتاً في المسألةِ برمتها وأنه يريد أن يراني .

وقلتُ لأستاذي الفقيد الطاهر :



ـ إن شاء الله .

وكنتُ أدري سلفاً أنَّ الله لن يشاءَ ، لأنني لا أتصوَّر أن أكون في حضرة الجواهريِّ ، وأنا الذي لا يستطيعُ أن يُدخِّن يومذاك في حضرةِ أساتذتِه خجلاً .

ولم أر الجواهريَّ إعظاماً له حتى خاطبني في ذلك مرَّة أخرى ابنُ عمّي المحامي أحمد الأعرجيّ ؛ فقد كان أحمد وكيلَه القانونيَّ في كلِّ شيءٍ إلى الدرجة التي وصفه بها إليَّ في رسالةٍ أنه «لو شاء أن يحرمني أنا وعيالي من لقمة الخبز لفعل» .

ولا أظنُّ أن الجواهريَّ أُعجِب بالمقالة التي كتبتُها لأنها كانت من قلم عبد القاهر الجرجاني ، أو تي . أس . إليوت ، وإنَّما كان ـ ولا شكَّ ـ معجَباً بروح الإنصاف فيها .

وبهذا يجبُ أن نفسِّر حملته على الدكتور محمد مندور في قصيدتِه «دجلة الخير» ابتداءً من قولِه :

ويا زعيماً بأن لم يأتِه خبرُ   عمَّا يُنشَرُ في تلك الدواوين

بل إن الجواهريَّ كان لا يمتنع أن يحمل على أقرب أصدقائه إذا رأى أنَّهم سكتوا عن إحقاق الحق ، فقدأجرت مجلة الديار اللبنانية في أواسط السبعينات مقابلة مع الشاعر الأستاذ عبد الوهاب البياتي انتقص فيها من شاعريَّة الجواهري ، فكتب بوحي من هذه المقابلة قصيدتَه «أزح عن صدرك الزَّبدا» وإذ انتهى فيها من الأستاذ البياتي عرَّج على أصدقائه المقرَّبين الذين لم يقولوا رأيهم في المقابلة فكان من رأيه فيهم :

بهم عِوزٌ إلى مَدَدٍ   وأنت تُريدُهم مَدَدا

وأرجو ألاَّ تسألني عن هؤلاء الأصدقاء من هم ؟

ولعلَّ هذا هو السبب الذي لم يجعله يرثي الدكتور طه حسين وهو



صديقُه ؛ لأن الدكتور طه كان لايرى مانعاً أن يُعيد ما ينشُرُه الجواهريُ في العراق في مجلة «الكاتب المصري» ، ولا يرى حرَجاً أن يُثني على شاعريَّة الجواهريَ بلسانه ، ولكنَّه لا يرى أن يُثني عليه بقلمِه .

وأتذكَّر أننا كنّا جالسين في مقهى فندق «الألتيه» بالجزائر ، (ويسمى الآن فندق السفير) فجاء أحدُ الشعراء الجزائريين يُسلِّم عليه وهو لا يعرفه ، فدعوناه للجلوس معنا ، وقال الشاعر الجزائريُ أثناء الحديث أنه مُعجَبٌ بما كتبَه طه حسين عن الجواهريَ فسأله الجواهري :

ـ أين ؟

فقال : في حديث الأربعاء .

فأجابَه بحدَّةٍ :

ـ أتحدَّاك إذا كان ذَكر فيه حرفَ الجيم من اسم الجواهري! ثمَّ أردف :

ـ أتدري لماذا ؟ لأنني عراقي .

ويتحدَّث كلُّ من عرفَ الجواهريَ أنه شاعرٌ نرجسيٌ لا يُعجب إلاّ بما قال ، ولكنَّ ذلك ليس صحيحاً تماماً ؛ فقد كان من مذهبه في إحقاق الحقَ أنه لم يكن يبخس الناسَ أشياءهم ، وأتذكَرُ الآن حادثتين أولاهما أن دوَّت في العراق قصيدة الصديق الشاعر الأستاذ مظفَّر النَّواب «وتريات ليلية» فبلغ دويُها مسامعَ الجواهري ؛ فسألني ذات يوم عما إذا كان لديَ فكرةٌ عنها أو أنني سمعتُها ، فقلتُ له :

إنها من القصائد التي تستحقُ الدويَ رغم أن بناءها ، من الناحية النقدية ، مُفكَّكٌ شيئاً ما ، وإنني أحتفظُ بنسخةٍ منها يُلقيها بصوتِه ، فطلب منّي الشريط وإذ سمِعَ قال :

الناسُ مُحقّون في الإعجاب ، إنها قصيدة!!



أما الحادثةُ الثانية فهي أن اقتحمَ عليه داره ذاتَ يوم الفقيدُ الشاعرُ عبدُ الأمير الحُصيريَ وهو طافحٌ لا يكادُ يعقلُ من السكر ليقول له :

نظمتُ خمسةَ أبياتٍ فيك أريد أن تسمعها ؛ فقال له ـ بعد تلكؤٍ لأنَّ الجواهريَّ وهو من المغرمين بالكأسِ كان يُحِبُّ الشربَ ولكنَّه كان يكره العبودية حتى ولو كانت عبودية السُّكرِ ـ : هات :

فقرأ الحصيريُّ أبياتاً خمسةً داليّة لا أتذكّرها الآن ولكنّني أتذكّرُ أن القافية كانت من قبيل : «عمَدُ ، رأدُ ، جُدُدُ ، أحَدُ» وهكذا ، وإذ وصل الحصيريُّ إلى البيتِ الأخير وكان معناه : أن لكلِّ الناس عمراً محدوداً واحداً قال في عجزه :

إلاّ قوافيك ـ واسلمْ ـ عمرُها...

وسكت الحصيريُّ وهو ـ في خيال السكر ـ يقول للجواهريِّ : هاتِ القافية ، فقال له :

ـ طاح حظّك ، ولك هو أكو غير «لُبَدُ» ؟

وفي الأسطورة أن «لُبَد» من النسور التي عُمِّرتْ طويلاً فضُربَ بطول عمرها المثل . فقال الحصيريُّ : وهو يُقهقِه لا :

إلاّ قوافيك ـ واسلم ـ عُمرُها الأبَدُ

وانتفض الجواهريُّ كالملسوع ـ وكان من عادتِه أن يُبلي سروال بجامته ولا يمسُّ قميصها فيبقى جديداً لأنه يلبس مع سروال البجامة قميصاً عادياً ـ فسحب من جيب قميصه خمسة دنانير حلف أنه لا يملك غيرها ، وأعطاها للحصيريِّ وهو يُعانقه قائلاً له :

ـ ولك هذي لعيون هذي القافية والله ، ولو كان معي أكثر منها لوهبتك إياه .

وكدتُ أنسى وأنسيك ما أنا فيه من حديث لقاني به أول مرّةٍ فدعني أقول :



كان أول انطباعٍ لي عنه وهو يتبسَّط في حديثه معي أنه أنسانٌ مثلنا وليس نصفَ إلهٍ كما كنتُ أتصوَّر ، وبدأت أواصر المودّة تنعقد بيننا حتى بلغ من حسنِ ظنِّه بي أن كان يرُسِلُ قصائده للنشر في جريدة الجمهورية على يدي ، وخولّني أن أشرح ما أجدُه مُبهَماً من أبياتها[1] .

وبدأت انطباعاتي عنه وعن شخصيَّته الساحرة ، وعن مزاجه العنيف تتكوَّن يوماً بعد يوم .

والآن إذ أسترجعُ هذه الانطباعات ، وأعيد النظر فيها أجدُ أنَّ أبرز ما يُميِّز الجواهريَ تناقضُ شخصيَّته تناقضاً يكاد يكون نادر الحدوث في تاريخ الشعر العربيّ . ولا أشكُّ في أنه كان يُحِسُّ بهذا التناقض إحساساً عميقاً .

فمن هذا الإحساس العميق كان الجواهريُّ فريداً في تعريَةِ نفسِه وفي محاسبتِها ، ولي في قصيدتِه «أزِح عن صدرك الزَّبدا» مثالٌ صارخٌ على هذه التعرية فقد قال فيها يحاسِبُ نفسَه :

وتطمعُ تجمعُ القمرينِ ... حسنُهما أن انفردا...
عجيبٌ أمرك الرَّجراجُ ... لا جَنَفاً ولا صَدَدا
تضيقُ بعيشةٍ رغَدٍ ... وتهوى العيشةَ الرغَدا

ولا أريد أن أُطيل في ضرب الأمثلة ؛ لأن هذه الظاهرة واضحةٌ كلَّ الوضوح في ديوانه حتى لكأنه لم يكن ابنَ قوله في «المقصورة» :

أقولُ لنفسي إذا ضمَّها ... وأترابَها محفلٌ يُزدهى
تسامَيْ فإنَّكِ خيرُ النفوسِ ... إذا قيسَ كلٌّ على ما انطوى

ومن هذا التناقض أنَّ الجواهريَّ لا يرى في الدنيا مجداً كمجدِ الشعر

(١) من الأمانة أن أقول : إن معظم شروح قصائده في السبعينات هي من عملي وإنَّ الطبعة العراقية من ديوانه ، والسورية من بعدها . قد أخذنا بهذه الشروح .



وكمجدِهِ شاعراً ، ولكنَّه كان أيضاً ـ مثل سلفِهِ المتنبي الذي يلومُه أنه كان يطمحُ إلى مجد السلطة ـ يتحرَّق إلى مجد السُلطة . وأتذكَّر أنّني أجريتُ معه حديثاً سنة ١٩٨٢ في بيته ببراغ استغرق اثنتي عشرة ساعة ضاع منها أثناء تنقلاتي في بلاد الله العريضة ثلاث ساعات ، فكان أن سألتُه فيه :

هل كان يطمح أن يُستوْزَرَ في صدر شبابه أيام كان في النجف كما استُوزِرَ الشيخُ محمد رضا الشبيبي ، وابنُ عمّة الجواهريِّ الشيخُ عليُّ الشرقي ؟ فأجابَ :

ـ كنتُ أكاد أُمزِّق عباءتي ؛ لأنني لم أُستوزر مثلَهما ، وإلاّ فبماذا يفضلانني ؟

وكتب في عام ١٩٨٠ إلى أحد أصدقائه من زعماء الأحزاب السياسية العراقية المعارِضةرسالةً (ومسوَّدة الرسالة عندي في ورقةٍ من أوراقه) يقول له فيها من بين ما يقول :

«المصيبة يا حبيبي... أن هناك من لا يتذكَّرني إلاّ عندما يحتاجُ أن أُغنّيه ؛ حتى لكأني لستُ شيئاً غير ذلك ، وحتّى لكأن كلَّ ذلك التاريخ وكلَّ تلك الجولات ، وكلَّ تلك التضحيات لا تستحِقُ أكثر من أن تُسمّى شعراً ، وصاحبها شاعراً . وعلى هذه المقاييس المضحكة والمبكية معاً ، كان الواقع المرُّ يُطبِّقُ عليَّ حين تُقتسم الحصصُ ، ولك أن تتذكَّر الشواهد عليها» .

ولعلَّ هذا التحرّق إلى السلطة هو الذي خلق من الجواهريِّ شاعراً سياسيّاً فريداً في كلِّ عصور الشعر العربيِّ .

ولكن لا ينبغي لأحدٍ أن يظنَّ أن تناقضاتِ الجواهريِّ كانت تجورُ على ضميرِه ، أو على موقفِه . ولي على ذلك شاهدٌ لن أنساهُ هو أنّه كان ينشرُ في الصفحة الأخيرة من جريدة الجمهوريَّة «مختارات الجواهري» ـ وكان يُشرِف على الصفحة الصديق الحميم سعود الناصريَ ـ وكان كلَّفني الجواهريُّ بالإشراف



على هذه المختارات شرحاً وترجمةً لشعرانها ؛ وإذ وقف الجواهريُّ موقفَه من كامب ديفد ، ومن الزعماء الذين يزعمون أنهم يعارضونها صدر قرارٌ من رئاسة الجمهوريَّة العراقيَّة بمنعِ نشرِ اسم الجواهريّ في العراق ، ووقعت جريدةُ الجمهورية في حيص بيص ـ كما يُقال ـ وأبلغني رئيسُ تحريرها بحرجِه من القرار ، وبلّغتُ به الجواهريَّ فتهلَّل له كما لو أنني أزفُّ له خبر أن إحدى مِلكات جمال العالَم تضعُ قلبها وجسدها تحتَ مشيئته .

ولم يكن كلُّ هذا غريباً عليَّ ولا غريباً على من قرأ شعر الجواهري ، ولكن الغريب أننا كنّا نتقاسم مكافأتَه عن المختارات من جريدة الجمهورية ، إذ كان له ثلثان منهاولي ثلثٌ ، وأتذكَّرُ أنَّ المبلغ كان خمسةً وسبعين ديناراً له منها خمسون ، ولي خمسة وعشرون ، وأن جريدة الجمهورية قد أصرَّت أن تدفعَ لنا مكافأة المختارات حتّى بدون نشرها ، وبلغ إصرارُها على ذلك أن استدعاني مُحاسبُها أن أتسلَّم مكافآتِ ثلاثة أشهرٍ ، فقلتُ له : ينبغي أن أستشير الجواهريّ .

واستشرتُه ـ وليس أحدٌ يُحبُّ المالَ كالجواهري ، ولكنْ لا كحُبِّ البخلاء ، فهو يحبُّه لكي ينفقَه في رفاهية أبنائه وفي ملذّاتِه ـ فسألني :

ـ وأنتَ ماذا رأيك ؟ فقلتُ :

ـ إنّني لن أتسلَّم مالاً عن عملٍ لم أقُم به . فبلغ من الفرح أن هتَفَ بي :

ـ ولك اليوم أنت تستحقُّ كونياك أرارات ، وكان يُحبُّه كثيراً ، وأتى بزجاجةٍ منه ، وشربنا فقال :

ـ كنتُ خائفاً فقط من أنّك محتاجٌ إلى مكافئتهم تستعين بها على أمورك ، اما وقد أسعدتني برأيك فالبس واشربْ . صحتك!

ومن هذه التناقضات أن كان دقيق الحسابِ المعيًّا فيما يهمُّه من أمرِ حتى



لقد قال في آخر بيتٍ من قصيدة ـ غير منشورةٍ ـ يُهديني بها الجزء السادس من ديوانِه عن نفسِه :

بقَدرِ ما كان من ضَعفٍ ومن ثقَةٍ فيما يُحاوله كانتْ ذرائعُهُ

ولكنَّ هذا الذي يُعِدُّ ذرائعه على وفق قوَّتِه وضعفِه ، وكأنه من الستراتيجيين الكبار ، يبلُغ من البراءة ، وسلامة الطويَّة أن استضافه في بيته طاغيةٌ وغدٌ من طغاة العراق الأوغاد ، فطلبَ من الجواهريِّ أن يقرأ له شيئاً من شعره فابتدأ أبو الفراتين ، والله أقرأ لك آخر ما كتبتُ من أبياتٍ لم تكتمل بعدُ ولم تُنشرْ :

قالوا : سكتَّ وأنتَ أفظعُ مُلهِبٍ وعيَ الجموعِ لزندها قدّاحِ
فأجبتُهمْ : أنا ذاك حيثُ تشابكتْ غُلبُ الفوارسِ تحتَ غابِ رماحِ
لكنْ وجدتُ سلاحَهمْ في عَطلةٍ فرميتُ في قَعرِ الجحيمِ سلاحي

حتى إذا وصل إلى قولِه فيها :

ولقد أقولُ لصاحبي لم أدرِه أسيانَ أم ثَمِلاً : أفِقْ يا صاحِ
كنْ فوق داجيةِ الخطوبِ وريبِها وألحَّ من آذيِّها الملحاحِ
وتَحَدَّها فلقد تحدَّتْ صخرةٌ طوفانَ نوحَ ببطشِه المجتاحِ

قال له مُضيِّفه بنفاد صبرٍ :

ـ ما عندك قصيدة غزل ؟

ولن أطيل في هذا التناقض الذي أعدَهُ سرَّ إبداع الجواهري ، ولكنّني أريد أن أحدِّثك عن جانبٍ آخر منه هو أيضاً سرُّ عِفَّة الجواهري ، وعظمتِه في مقارعة خصومِه من سياسيين وغير سياسيِّين . فالفقيد الجواهريَ عنيف المزاج ـ كما قلتُ ـ ويفرضُ عليه عنفُ المزاجِ هذ ، وروح التحدِّي اللذان جُبل عليهما أن يقول ما يراه ممَا يجرح الآخرين بأكثر مما يجبُ أو أن يسيء إلى أولادهم

وأسرِهم فيمتنع عن نشرِهِ تارةً ، وعن إكمالِ ما بدأ به تارةً أخرى على الرغم من أنه كان هو المبدوء بالإساءة دائماً .

ولم يكن هذا الخُلقُ بغريبٍ على رجُلٍ يبلغ من الترفُّع عن الصغائر وعن مهاترات الخصوم مبلغاً جعله يقول :

تقحَّمتُ الوغى وتقَحمتني ... وخضتُ عجاجَها حرباً سجالا
فكانَ أجلَّ مَن قارعتُ خصمُ ... بِنُبلِ قراعِهِ ربحَ القتالا

ولكنني مع هذا أريد أن أضرب مثلين على ما قلتُ أعلمُ أنه لو كان حيّاً لما سمح لي بقولهما ، ولكنَّ الجواهري لم يكن مِلكَ نفسه وإنما هو مِلكُ تاريخنا الأدبيّ ، وملك وطننا العراق .

فأما المثل الأول فهو أنه كان قد هجا مصطفى العمري بقصيدته المشهورة : « طرطرا » وأن القصيدة قد طُبعت في الجزء الثالث من الطبعة العراقية من ديوانه ، وكان قد كمل طبع الجزء وانتهى ، لولا أن أوقف صدورَه حين رأى نفسَه يقول :

إنَّ أبا مؤيَّدٍ ... عريانُ مثلُ القَمَرِ
يصنعُ ما يصنعُ لم ... يخشَ ولم يستَتِرِ
ينيكُ أمَّ المرتشي ... نيكَ الحمار النَّعرِ
ويستهينُ بالوسيـ ... ـط شاكِراً ويزدري
إنَّ أبا مؤيَّدٍ ... لا يُشترى بقَمَري

واستغربتِ اللجنةُ من موقفِه ، واحتجَّت بأن الأبيات سبق أن نُشرتْ في جريدتِه « الرأي العام » وأن الأمانة التاريخية تقتضي أن يُنشَر كلُّ ما كان قد نُشِر كما هو فلم يقتنع بكلِّ هذا ـ وكان أكثر أعضاء اللجنة إلحاحاً على الموضوع الأستاذ رشيد بكتاش ـ فقال :



ـ لا أمانة ، ولا ممانة . قلتُ ما قلتُ يوم كان أرشدُ العمري حيّا بيدِهِ السلطةُ يستطيع أن يدفع عن نفسِهِ وعن ولدِهِ . أما الآن فما هو ذنبُ ولدِهِ مؤيّد أن يُذكر اسمُه في موضعٍ لا ناقة له فيه ولا جمل ؟ لا ، لن يُنشرَ هذا المقطع في الديوان ، وهكذا كان ومن يملك نسخةً من الطبعة العراقية للديوان يجد أن الأبيات التي ذكرتُها جديدةً على طبعتِهِ .

أما المثلُ الثاني فهو أنه استدعاني ذات يومٍ على عجلٍ ـ وكان الوقتُ ظهراً ـ وكان ذلك في سنة ١٩٧٧ إذا صدقت الذاكرة ، وإذ تغدّينا معاً قال :

ـ اسمع أبا هاشم أنا غُدرتُ في مُستحَقات ديوا ني الذي طبعته وزارة الإعلام ، فقد كوفئت عن طبع ستّة أجزاء بخمسة آلافِ دينارٍ عراقيٍّ . صحيح أنا الذي اقترح المبلغَ ولكنك تعلم أنني بريءٌ في هذه المسائل ، وقد خاطبوني الآن يريدون مني الجزء السابع وكأنهم اشتروا كلَّ شعري إلى يوم وفاتي ، فرفضتُ وعرضتُ عليهم أن يُطبع الجزء السابع بعقدٍ جديد ، ومبلغٍ جديد فوافقوا على أن يزورني اليوم : طارق عزيز ـ وكان يومها وزير الإعلام ـ ومحمد جميل شلش ـ وكان مدير النشر ، وعلي الحلّي نتفاوض على الديوان . وطلبتك الآن لكي تُرتِّب لهم جزءاً سابعاً وهاهي مسوّداتُ القصائد على الطاولة ؛ لأنه من غير المعقول أن نتفاوض على شيءٍ غير موجودٍ . أريد أن نصنعَ ملفاً سميناً أعِدُهم أنني سأسلّمه للجنة بعد الاتّفاق .

ولم يكن لدى الجواهري جزءٌ سابعٌ ، وإنما كان عنده مشاريع قصائد بعضها لم يكتمل ، وبعضها كتب منه بيتاً واحداً هو المطلعُ فحسب . ولكنّه كان مُتأكِّداً أن لديه الكثير مما يُطبَع لو لم يكن على عجلةٍ من أمرِهِ .

ورتّبنا الجزء السابعَ فرأيتُ من مسوّدات الجواهريِّ المثلَ الثاني الذي وعدتُك به ، فقد رأيتُه يهجو إحدى الوزارات العراقية على عهد عبد السلام عارف ، وكان فيها وزيران ممن يعرفُهما حقَّ المعرفة أحدُهما ابنُ بلدتِهِ وقد



عُيِّنَ وزير الوحدة والقيادة السياسية الموحَّدة ، وثانيهما صحفيٌ له تاريخٌ معه . فقال في مشروع قصيدتِه ـ كما وعتها الذاكرةُ ـ وهي قصيدةٌ فانيَة لا أظنُ أنه أكملها :

سـفَي وحـتمٌ أن تسـفَي ... مـادام رأسُكِ تحت خُفَّ
مـادام منبـوذُ القطيـ ... ـفِ وزيرَ دولتِك المُصفِّي
والأقـرعُ الركَاضُ بالصَّبيان من صفٌ لصفِّ
رجُلَ القيادةِ والسياسةِ ... والتَّوحُّدِ والتَّحفِّي
سـفَي فـمن ألفٍ مضتْ ... تتدحرجينَ ، وبعدَ ألفِ

وصحيحٌ أن اللغة لا تُجيزُ للجواهريَ ـ كما هي في المعجمات وهو أوسعُ من أيِّ معجم ـ أن يقول : سفَي ، لأن الفعلَ رباعيٌ ، ولكنّه لو كان يريد الاقتراب من الصغائر لما عدِم حيلةً .

ومن ترفّعه عن الصغائر أن انعقدَ مؤتمر قمّة فاس سنة ١٩٨١ : الذي عَرَض فيه الملِكُ السعوديُ فهد بنُ عبد العزيز ما عُرِف ـ بعدئذٍ ـ بمشروع فهد لتسوية الصراع العربيّ الإسرائيليّ ، والذي اختلف عليه الحاكمون العربُ إذ ذاك ؛ فقال :

أقـيم بفـاسَ مـؤتمرٌ تخلَى ... ذووهُ عن طبـاقٍ أو جِناسِ
ومـا كـانوا الرؤوسَ فهمْ ذنابى ... ولا ناسـاً فـهمْ أشبـاهُ ناسِ
ولكنْ نُصِّبـوا شُـرَطاً غـلاظاً ... يُداسُ بهمْ على عَنَتِ المَداسِ
وبعـدَ تلاوةٍ للذِّكـرِ كـانت ... كـتـغطيـةِ الجنائزِ بالقـداسِ
وبعدَ تضاربٍ في الرأيِ أفضى ... وكـادَ إلى التضاربِ بالكراسي
تهاوى جمعُهمْ عجِلاً كسِقطٍ ... تَهـاوى بعد أوجـاعِ النَّفـاسِ
وغُودِرَ غيرَ مـا نَسَبٍ . ولكنْ ... فسا يفسو فُساءً فهو فاسي

وعجز البيتِ الأخير ليس للجواهري وإنَّما هو تضمينٌ لقول الشاعر العربي القديم يهجو أحد أبناء مدينة فاس المغربية بقولِه :



ومـــا فـــاسٌ ببلدتِـهِ ، ولكـنْ   فـسـا يـفـسـو فُـسـاءً فـهـو فـاسي

وتكرَّم الجواهريُّ أن لم ينشر مثلَ هذا القول ؛ لا لأنه لم يرَه من مستواه الشعريِّ ـ رغم أنه من مستواه النضاليِّ ـ ولكنْ لأنه رأى في نشرِه والأمَّةُ برمَّتها سائرةٌ في طريق الاستسلام ضرباً من الصغائر التي يترفَّع عنها .

وسعيدٌ من عاشَ في عصرِ الجواهريِّ وحادثَه ؛ فقد كان وحدَه أزهى عصور الشعر العربيِّ ؛ حتّى لكأن المتنبي العظيم كان ينظر إليه بعين الغيب يوم قال :

غضِبتُ لمَا رأيتُ صفاتِهِ بلا واصفٍ   والشِّـعـرُ تهـذي طمـاطِمُـهْ

وأتذكَّرُ أنني سألتُه ـ ونحنُ في شقتي بالجزائر ومعنا الصديق العزيز الدكتور أبو العيد دُودُو ـ أن كيف استطعتَ وأنت تكره فيصل الثاني كلَّ هذا الكرهِ أن تُجوِّد كلَّ ذلك التجويد في قصيدة تتويجه ؟ فقال :

ـ صحيحٌ أنني أكرهُه ، وصحيحٌ أنني نادمٌ على القصيدة ، ولكن بما أنني نظمتُها فكان ينبغي أن تليق بشاعريَّة الجواهريِّ .

وأسأل الآن : هل ثمَّة من شاعرٍ يزعُم فيجازف أن يقول قصيدةً في رثائه تليقُ بشيءٍ من شاعريّة الجواهريّ ، أو يطمحُ أن تليق ؟!!

لقد قتلنا مُتنبِّيِنا مرّتين : مرَّةً في دير العاقول عام ٩٦٥م ، وأخرى في قصر السبكي بدمشق بعد ألفِ عامٍ وشيءٍ أعني في عام ١٩٩٧ . وإن عجبتَ فاعجبْ أن تُقاسمنا سوريا الشقيقةُ تأريخَ شاعرينا العملاقين ، فهنيئاً لكرمها بتاريخهما .

بوزنان ـ بولندة

في : ١٩٩٧/٨/٨



لُغويّان عبقريّان

ابن الأعرابيّ

مهدي المخزومي


مكتبة
الفكر
الجديد

ابن الأعرابي

في «مُقطَّعاتُ مَراثٍ»

لا أظن أن بي حاجةً الى أن أعرِّف بأبي عبد الله محمد بن زياد الأعرابي ، المعروف بابن الأعرابي ، فهو أشهر من أن يُعرَّف ، والحديثُ عنه في كتب التراجم وطبقات اللغويين حديثٌ مستفيض[1] . ولكنني أريد أن أقف على نسبة هذا الكتاب ؛ فهو كتاب لم تذكره فهارس الكتب مثل فهرست ابن النديم ، وفهرست ابن خير الإشبيلي ، وكشف الظنون وما إليها من الكتب المعروفة المتداولة ، ولم تعرض إليه كتب التراجم التي تحدثت عن مصنفات ابن الأعرابي مما جعل مُحقِّقي كتاب «أسماء خيل العرب وفرسانها» يقولان ـ وهما يعرضان الى كتبه : «مقطعات مَراثٍ... وفي نسبة هذا الكتاب الى ابن الأعرابي شكٌّ»[2] .

والحق أنني لا أعرف إن كان هذا الشك قد جاءهما من عند نفسيهما هما

---

(١) ترجمته في : المعارف ٤٥٦ ؛ ومراتب النحويين ١٤٧ ؛ وتهذيب اللغة ١ : ٢٠ ، طبقات النحويين واللغويين ، ١٩٥ ، الفهرست ، ٢١٢-٢١٤ ؛ تاريخ العلماء النحويين للتنوخي ، ٢٠٥ ؛ تاريخ بغداد ٥ : ٢٨٢ ؛ الأنساب ١ : ٣٠٧ ؛ فهرست ابن خير ، ٣٧٢ ، نزهة الألباء ، ١٥٠ ؛ معجم الأدباء ١٨ : ١٨٩ ، إنباه الرواة ٣ : ١٢٨ ؛ وفيات الأعيان ٤ : ٣٠٦ ، الوافي بالوفيات ٣ : ٧٩ ، مرآة الجنان ٢ : ١٠٦ ؛ البلغة في تاريخ أئمة اللغة ، ٢٢١ ؛ النجوم الزاهرة ٢ : ٢٦٤ ؛ بغية الوعاة ١ : ١٠٥ ـ وقد أثبتَ هذه المصادر محققا أسماء الخيل وفرسانها لابن الأعرابي ، ورتباها ترتيباً زمنياً فأخذتها عنهما . ينظر أسماء الخيل : ٢٢-٢٣ .

(٢) السابق : ٢١ . والمحققان هما د . نوري حمودي القيسي . ود . حاتم صالح الضامن .



أم ردّداه عن آخر . أقول : لا أعرف ؛ لأنني رأيتهما ينصّان ـ في المقدمة ـ على اعتمادهما ما كتبه الدكتور رمضان عبد التوّاب يعرّف بصاحبنا وبمؤلفاته في تقديمه كتابَ «البئر» ، ورسالة الأستاذ كامل سعيد عن ابن الأعرابي[1] ، ولكن الذي أعرفه أنهما لم يذكرا باعثهما على هذا الشك ، ولم يعرضا الى دواعيه مما يجعلني أتبنّى هذا الشك ملتمساً له الأسباب مرة ، وممتحناً أمره مرة أخرى ، عسى أن أصل الى شيء أطمئن إليه .

وينبغي لي قبل أن أخوض في مسألة النسبة أن أقول : إن نسخة الكتاب هي بخط علي بن ثروان الكندي المتوفى بعد سنة ٥٦٥هـ نسخَها عن نسخة بخط الوزير أبي القاسم المغربي المتوفى ٤١٨هـ ، وكان الوزير المغربيّ قد نسخها عن نسخة بخط الإمام ثعلب المتوفى ٢٩١هـ قرأها على شيخه ؛ ابن الأعرابي .

ولكن هذا أمرٌ قد لا يكون له كبيرُ اعتبارٍ إذا قام بوجهه أمرٌ آخر أقوى منه يدفعه ، مما يجعلني أعود الى رأس أمري في التماس أسباب الشك وفي امتحانها فأقول : لعل مما يدعو الى الشك في نسبة هذا الكتاب إلى صاحبنا أنه لم يُذكر ـ كما سبق القولُ ـ في مؤلفاته ، ولم يشتهر أمرُه فتكون منه نُقولٌ تنصّ على النقل منه باسمه . وفي الرأي وجاهةٌ ، أو شيءٌ من وجاهة ، ولكنني لا أستطيع أن أقبله على علاّته ؛ لأن أحداً لا يستطيع أن يزعم أن كتب التراجم ، ومصنّفات المفهرسين قد استوعبت كل آثار علمائنا ، وبحسبي من هذا أن محققي «أسماء الخيل» نفسيهما كانا قد حققا ديوان عديّ بن الرقاع العاملي بشرح ثعلب ، دون أن يذكره في مؤلفات ثعلب أحدٌ من القدماء ، ولم يكلفا نفسيهما عناء إثباتِ نسبة الشرح إليه بله أن يشكّا .

أما لماذا لم يشتهر فتكون منه نقولٌ كثيرةٌ ، فيغلب على ظني أن وراء ذلك

---

(١) السابق : ٢٢ حاشية . والكتابان غير متوفرين في الجزائر ليتاح لي العلم بالأمر .



سببين أولهما أنه عاصر ديوان الحماسة لأبي تمام[١] الذي هو ـ دون شكّ ـ أوسعُ اختياراً من «مقطّعات مَراثٍ» مما أتاح له أن يُخمله ، وثانيهما أنه يلوح لي أن كتاب «النوادر» لابن الأعرابي قد غطّى على سائر كتبه ، وليس قليل الدلالة أن يكون له ثلاثة وثلاثون كتاباً ثم لا يكاد يدور لواحد منها في مؤلفات القدماء ذكرٌ كما دار اسم النوادر . ولكن هل يعني خمولُ كتابٍ ما في عصره ، أو بعد عصره الشكَّ في نسبته الى صاحبه ؟ أظنّ أن : لا .

وقد تحرّيت اسم الكتاب منسوباً الى ابن الأعرابي في المظانّ التي رجعتُ إليها فلم أجد أثراً لذلك ، ولكنني وجدتُ قرائن تدل دلالة إن لم تكن قاطعة فهي شبه قاطعة بصحة نسبة الكتاب ، فمن هذه القرائن أن تكون نسخةٌ منه بخط الوزير المغربي ، إذ لم تكن العناية بمثل هذا الشعر غريبةً عليه ، فقد كان ـ كما يقول عنه أبوه ـ يستظهر ـ من بين ما يستظهر : «نحو خمسة عشر ألف بيتٍ من مختار الشعر القديم... وذلك... قبل استكماله أربع عشرة سنة»[٢] . وإذا كان هذا لا يقطع ـ كما هو بيّن ـ بنسبة الكتاب ؛ فإنه قاطعٌ بأن يكون مثل هذا الكتاب من اهتمام الوزير المغربي . فإذا صدّقنا هذا فما الذي يمنعنا من تصديق الوزير أن أصل نسخته كان بخط ثعلب وأنه قرأ هذا الأصل على ابن الأعرابي ، لاسيما أنه أثبت ما لفت نظره من خط ثعلب على نسخته ، وما الذي يمنعنا من تصديق علي بن ثروان الكندي وهو يشير الى ما وجده بخط ثعلب والى ما رآه بخط الوزير ؟ لاسيما إذا عرفنا أن ابن ثروان كان «مشتهراً بالمعرفة موثوقاً بقوله»[٣] .

وأريد أن أعرض الآن الى قرائن أخرى لعلها أوضح مما سُقتُهُ فأقول : إن

---

(١) ألفه أبو تمام بعد سنة ٢١٣ أثناء قفوله من حضرة عبد الله بن طاهر في خراسان ، وكان ابن طاهر قد وليها سنة ٢١٣هـ . ينظر وفيات الأعيان ٢ : ٨٤ .

(٢) السابق ٢ : ١٨٢ .

(٣) بغية الوعاة ٢ : ١٥٢ .



منها افتتاحَ ابن الأعرابي كتابه يقول : «العربُ تقول : من كل شيءٍ تحفظ أخاك حتى يأخذ القناة» فقد وجدنا هذا القول قد رواه تلميذُهُ الجاحظ ناسباً إيّاه الى أبي المجيب الرَّبعي[١] . ولا نعرف أحداً قال إن الجاحظ سمع من أبي المجيب هذا ، ولا أعرف إن كان قد أدركه أم لم يُدركه[٢] ولكن الذي نعرفه أن أبا المجيب الربعي من فصحاء الأعراب ، وأنه ممن روى عنهم ابن الأعرابي[٣] .

وشيءٌ آخر هو أنّ ابن الأعرابي روى المفضليات عن زوج أمه المفضّل الضبيِّ ، فكانت روايته إياها أصحَ الروايات ، وإننا لنجد تأثير المفضليات في هذا الكتاب ؛ فقد اختار هنا ما قالته امرأةٌ من بني حنيفة هنالك :

ألا هلك ابن قُرّان الحميدُ أخو الجُلّى أبو عمروٍ يزيد[٤]

وكان قد روى قصيدة أبي السفّاح الثعلبي مرّتين في المفضليات[٥] ، ورواها هنا مرة ثالثة .

على أنه يمكن لأحدٍ أن يحتج عليّ باختلاف رواية ابن الأعرابي في المفضليات عما هي هنا مما يجعلني مضطراً أن أفسّر ذلك ، فأقول : إن مردّ هذا الاختلاف ـ كما يُخيَّلُ إليّ ـ أنه قد التزم برواية قصائد «المفضليات» كما سمعها من شيخه المفضل فأداها عنه ، وكان يومذاك شاباً في مقتبل العمر ، أما حين اختار كتابه هذا فقد كان قد تجاوز مرحلة الطلب ، وانتصب للناس ، هذا الى اتّكائه على ذاكرته ، فقد قال ثعلب إنه لزِمَهُ بضع عشرة سنة ما رأى بيده كتاباً قط[٦] . ومن شأن حال كهذه أن تجعل الرواية تختلف قليلاً

---

(١) ينظر البيان والتبيين ١ : ٢٧٢ ورواه «ماتزال تحفظ...» ونقله عنه أسامة في العصا : ٤٨٨ .

(٢) لم يردْ ذكرٌ لأبي المجيب قط في كتاب شارل پلا : الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء .

(٣) ينظر الفهرست : ٢١٥ .

(٤) تنظر المقطعة في المفضليات : ٢٧٣ .

(٥) ينظر السابق : ٣٢١ .

(٦) ينظر الفهرست : ٣١٢ .



في هذه الدُّفعة عن تلك ، فإذا عرفنا أنه من المألوف لدى العلماء أنهم «يؤلفون الكتاب ، ثم يقرأونه على الناس ، ويجيزونهم بروايته ، ثم تمضي الأعوام فيأتي آخرون فيقرأون عليهم الكتاب ، فربما زادوا فيه ما شاءوا وربما نقصوا منه ، وربما رووا خبراً بإسناد ، ثم عادوا فرووا الخبر بغير هذا اللفظ بإسناد آخر ، وطرحوا الإسناد الأول ولفظه . وهذا سببٌ من أسباب اختلاف نسخ الكتاب الواحد»[1] أقول إذا عرفنا هذا أدركنا سبب اختلاف رواية الكتاب الواحد فما بالك بمن يروي كتاباً وهو في زمن الطلب ثم يؤلف كتاباً يُروى عنه ، أيكون عليه أن يؤدي ما رواه أول مرة في كتابه ، وكأن ليس له من شيخٍ إلاّ المفضل ؟ ثم ما بالك برواية الشعر يجد الراوي نفسه وقد قدّم البيتَ على أخيه في هذه الرواية ، وكان قد أخّره عنه في تلك ، وأبدل لفظةً مقاربةً بلفظة نسيها ، وهكذا ؟

وإذاً ، لا غرابة البتّة أن نجد خلافاً بين ما رواه ابن الأعرابي عن المفضل وما رواه هنا . وما يقال عن ابن الأعرابي نفسه يقال عما خالف فيه ثعلب شيخه ابن الأعرابي وهو يروي بعض هذه المقطعات في مجالسه[2] .

وقرينةٌ أخرى هي أننا نعلم جميعاً أن صنعة محمد بن حبيب المتوفى ٢٤٥هـ ديوانَ جرير إنما كانت بروايتين اعتمد في إحداهما رواية شيخه ابن الأعرابي[3] ، وإننا لواجدون مُقَطَّعة جرير يرثي الخليفة الوليد بن عبد الملك في هذا الكتاب مطابقةً تماماً رواية الديوان ، إلا في حرف واحد ، أشرت إليه في الحاشية بعد أن عرضتها على الديوان ، مما يدل على أن الروايتين ـ أعني رواية ديوان جرير ورواية المقطّعات ـ واحدة ، لأن كليهما عن ابن الأعرابي .

---

(١) من مقدمة جمهرة نسب قريش ١٨ .

(٢) قيل عن ثعلب إنه «لا يمسّ بيده كتاباً ، اتكالاً على حفظه ، وثقة بصفاء ذهنه» معجم الأدباء ٥ : ١٠٧ .

(٣) ينظر ديوان جرير : ١٨ .



وأمرٌ آخر يكاد يقوم مقام القرينة إن لم يكُنها هو أن مقطّعة حارثة بن بدر الغُداني في رثاء زياد بن أبيه المروية هنا قد وردت في الكامل للمبرّد ، والعقد الفريد إلاّ بيتاً واحداً هو قوله :

ولا تلينَ إذا عُوسِرتَ مَقْسَرَةً وكلُّ أمرِكَ ما يُوسِرْتَ مَيسورُ

فانفرد ثعلب برواية هذا البيت حتى كأنه ينقله عن ابن الأعرابي[1] .

ومن القرائن على صحة نسبة الكتاب ما رواه القاليُّ بسنده من شعرٍ عن ثعلب عن ابن الأعرابي في الأمالي ، كما صنع - على سبيل المثال - حين روى قصيدة زينب بنت الطثرية عن ابن دريد عن ابن الأنباري عن ثعلب[2] ، وإذا كان لم يرفع سنده الى ابن الأعرابي ، فقد رفعه أبو الفرج الأصبهاني حين روى القصيدة عن الأخفش عن السكري عن محمد بن حبيب عن ابن الأعرابي[3] . وكما فعل حين روى قول الأعرابي المذكور هنا :

فتى مثل ضوء الشمس ليس بباخلٍ بخيرٍ ، ولا مُهدٍ ملاماً لباخل...

عن ثعلب عن ابن الأعرابي[4] ، وكما فعل بقصيدة خالد يرثي أخاه عمراً التي مطلعها :

آب الغُزيُّ ولم يؤبْ عمرو للّه ما وارى به القبرُ

فقد روى ثلاثة أبياتٍ منها عن ثعلب عن ابن الأعرابي[5] بزيادة بيتٍ لم يرد هنا .

ولا أريد أن أتقصى مروياته بمقدار ما أريد أن أشير الى ما لفت نظري من

---

(١) ينظر قواعد الشعر : ٦٤ ويمكن أن تكون روايته قرينة أخرى على صحة ما ذهب إليه الدكتور رمضان عبد التواب من أن قواعد الشعر لثعلب غير مدفوع .

(٢) الأمالي ٢ : ٨٢ .

(٣) الأغاني ٨ : ١٨٢ وقد رواها ابن الأعرابي عن شيوخه .

(٤) الأمالي ٢ : ١٦٠ .

(٥) ذيل الأمالي : ٢٦-٢٧ .



أمر أبي علي القالي حين يروي عن نوادر ابن الأعرابي، إذ ينص عليه فيقول - على سبيل التمثيل أيضاً - «وقرأت على أبي بكر بن دريد للحسين بن مطير الأسدي في نوادر ابن الأعرابي»[١]. ويقول: «وقرأت على أبي عمر في نوادر ابن الأعرابي عن أبي العباس»[٢]. ولكنه حين يروي بعض المراثي، مما ورد هنا بسنده المتصل المرفوع الى ابن الأعرابي لا ينص على اسم كتاب بعينه، فهل يعني هذا أنه يروي عن غير النوادر؟ وإذا كان ذلك كذلك فهل هو يروي عن هذا الكتاب؟ أما ابن الأنباري - تلميذ ثعلب - فقد روى عنه عن ابن الأعرابي قول الحارث بن عمرو الفزاري المرويّ هنا:

لا يبعد اللهُ ربُّ العبا د والملحِ ما ولدت خالده[٣]

دون أن ينصّ على كتاب بعينه، على حين نصّ البغدادي أنها في كتاب النوادر بنسبةٍ أخرى[٤] مما دلّ على أن هذه المقطّعة من مرويات ابن الأعرابي نسبها في النوادر لنهيكة بن الحارث المازني مازن فزارة[٤]، وعاد هنا فنسبها للحارث. ولم يكن ابن الأعرابي بدعاً في هذا؛ فهو مألوف في مصنّفات الأقدمين. ومألوف أيضاً أن يستخدم المؤلّف مقطعة في كتابٍ، ويعود فيذكرها في كتاب آخر.

وملحظٌ آخر هو أنني رأيت بعض ما تفرّد به ابن الأعرابي من رواية بعض المقطّعات شاركه فيه تلميذه الجاحظ فأعاده، إذ لم يذكر مصدرٌ من المصادر شاعراً اسمه محرز بن علقمة يرثي أخاه شريكاً - ومقطّعته هنا - إلا الجاحظ[٥]. فهل يكون هذا من غير دلالة.

---

(١) الأمالي ١ : ١٦٢.

(٢) السابق ٢ : ٢٢٢ وأبو عمر هو أبو عمر المطرز.

(٣) الزاهر ١ : ٢٢٤.

(٤) خزانة الأدب ٤ : ١٦٤.

(٥) البيان والتبيين ١ : ٥، وأعادهما في ٢ : ٢٦٤.



وشيء آخر لا أريد أن أسكت عنه هو تفرّد صاحب هذا الكتاب برواية طائفة من شعر الفقاعسة مثل هند بنت معبد الفقعسية ، وعرفطة بن الطماح الفقعسي ، وسُليم بن ربعي الفقعسي ، وأخيه البراء بن ربعي الفقعسي ، وأبي الحجناء الفقعسي ، فهذه الرواية الواسعة عنهم ـ قياساً الى حجم الكتاب ـ ثم التفرد برواية مقطعاتهم إنما هي من جنس عِلم رجل من أهل الكوفة سمع من بني فقعس ـ وهو فيها ـ فألف من سماعه «نوادر بني فقعس»[١] . أما ذلك الرجل فهو صاحبنا . فإذا كان لكلَ ما سقتُه شيءٌ من معنى ـ ولابد أن يكون ـ فهو أن هذا الكتاب أشبه بعلم ابن الأعرابي من علم سواه ، لاسيما أنني لم أجد ـ وقد ترجمت لكل من استطعت أن أترجم له من شعرائه عامداً ـ لم أجد شاعراً واحداً تأخر زمانُه عن زمان ابن الأعرابي .

كل ذلك يجعلني مطمئناً الى أن الكتاب لابن الأعرابي ليس في نسبته إليه شبهة أو شكّ ، فإذا صحّ هذا واتّسق ، فلا يتّسقُ أن نؤمنَ ببعض الكتابِ ونكفر ببعض ، فنقبلَ أن يكونَ الكتاب من علمِ ابن الأعرابي ونأبى أن يكون اسمه «مُقطّعات مَراثٍ» كما وجده الوزير المغربي بخط ثعلب .

ويزيد من اطمئناني الى صحة عنوانه هو أن لفظ المقطّعات كان كثير الدوران في مؤلفات من عاصروا ابن الأعرابي أو عاصرهم ابن الأعرابي ؛ فقد ألف ـ وأنا أمثّل ولا أستقصي ـ أبو عبد الرحمن الهيثم بن عديّ المتوفى سنة ٢٠٧هـ «كتاب مقطعات الأعراب»[٢] وألّف المدائني المتوفى سنة ٢١٥هـ «كتاب المقطّعات المتخيَّرات»[٣] ، وتحدث الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥هـ عما رسمه في كتابه «من مقطّعات كلام العرب الفصحاء»[٤] ، ووعد المبرِّد المتوفى

---

(١) الفهرست ، ٣١٤ .

(٢) الفهرست ، ١٥١ .

(٣) السابق ، ١٦٦ .

(٤) البيان والتبيين ٢ ، ٧ . وأعاد «مقطّعات الكلام» في ٢ : ١١٧ .



٢١٠هـ وهو يذكر كلام الحكماء أن يعود «الى المقطّعات»[١] وهكذا ، مما يدل على أن العنوان ليس بشاذ عن لغة عصره .

طبيعة الكتاب:

كان من الأسئلة التي شغلتني ـ وأنا أقرأ الكتاب ـ إن كان هذا الكتاب كتابَ مرويّات أم كتاب اختيار ، فكان الغالب على الظن أنه كتاب اختيار ، انتخب فيه ابن الأعرابي أجود ما كان في حافظته من مقطّعات في الرثاء ، ولعل هذا الكتاب وأضرابه مما اختاره العلماء من شعر كان مرحلةً طبيعية مهّدت السبيل لأبي تمام أن يؤلّف «كتاب الحماسة» إن جاز أن يسمّى تأليفاً بعد سنة ٢١٣هـ كما سبقت الإشارة[٢] .

أما الذي جعلني أظن أنه كتاب اختيار فهو ما رأيته من صنيعه تُروى عنه المقطّعة في المظان ـ وهي في الرثاء ـ ثم لا أجد بعض أبياتها في هذا الكتاب ويمكنني أن أضرب مثلاً بقصيدة زينب بنت الطثرية ، فقد رواها عنه أبو الفرج بإسناده عن ابن الأعرابي ، وكان في روايته بيتٌ لم يروه في هذا الكتاب هو قولها :

سيبكيه مولاهُ إذا ما ترفّعتْ عن الساق عند الرَّوعِ يوماً ذلاذِلُه[٣]

هذا الى ما وجدته من نفاسةٍ ظاهرة في طائفة كبيرة من المقطعات التي يرويها .

---

(١) الكامل ١ : ٢٩ .

(٢) لا أستطيع أن أحدد زمن تأليف كتاب ابن الأعرابي ، ولكن ينبغي أن يكون ذلك قبل أن يقرأه ثعلب عليه ، فإذا جمعنا بين قولي ثعلب إنه ابتدأ النظر في العربية والشعر واللغة في سنة ست عشرة بعد المائتين كما في معجم الأدباء ٥ : ١٠٨ وإنه لزم ابن الأعرابي «بضع عشرة سنة» ـ كما في السابق ٥ : ١٠٩ ، والفهرست : ٢٢٢ ـ استقام لنا أن نتصور ، أنه كان اختاره قبل أن يتصل به ثعلب في سنة لا نعرفها تحقيقاً ولكنها إن لم تكن تتقدم زمن اختيار الحماسة فإنها لا تتأخر عنه .

(٣) الأغاني ٨ : ١٨٥ ، ونظائره واضحة في حواشي الكتاب .



على أن السؤال العريض الذي يستوقف المرء في هذا الكتاب هو عن مدى صحة ما دأب عليه الدارسون من تعريف الرثاء بأنه ندبُ الميت ، والوقوف على قبره والثناء على خصاله[1] ، حتى بلغ الأمرُ أن يكون من جملة تعريفات الرثاء أنه «مديح الميت»[2] . إذ لا يجد مثل هذا القول سنداً تاماً عند ابن الأعرابي ومعاصريه حتى ليغلب على ظني أن غرض الرثاء ـ حتى عصر ابن الأعرابي ـ لم يستقر مصطلحاً فنياً كما استقر بعد عصره . أقول هذا وفي ذهني أمران : أحدهما في حماسة أبي تمام ، وثانيهما في هذا الكتاب ، فأما الذي هو عند أبي تمام فقوله في باب المراثي : «وقال أبو الشغب العبسي في خالد بن عبد الله القسريَ ، وهو أسيرٌ في يدي يوسف بن عمر الثقفي :

ألا إن خير الناس حياً وهالكاً ... أسيرُ ثَقيفٍ عندها في السلاسلِ

لعمري لئن عمّرتمُ السجنَ خالداً ... وأوطأتموهُ وطأةَ المتثاقل

لقد كان نهّاضاً بكلّ مُلمّةٍ ... ومعطي اللُّهى غمراً كثير النوافل

وقد كان يبني المكرماتِ لقومه ... ويُعطي اللُّهى في كل حقٍّ وباطل

فإن تسجنوا القسريَّ لا تسجنوا اسمهُ ... ولا تسجنوا معروفَه في القبائل»[3]

وخالد القسري هذا كان على ولاية العراق حتى سنة ١٢٠هـ حين ولي العراق يوسفُ بنُ عمر الثقفي ، فحبسَه وظلّ في حبسه حتى سنة ١٢٥هـ وقيل ١٢٦هـ تاريخ مقتله[4] فإذا عرفنا هذا عرفنا أن أبا الشغب قال أبياته في خالد وهو حيٌّ سجينٌ ، وأرجو ألا يُستسهل الأمرُ فيقال : إن السجين في حكم الميت ، وإن الشاعر أدرك أن خالداً لن ينجو ، وأمثال هذا . وإذاً قالها وخالدٌ حيٌّ لم يمت ولا أدلّ على هذا ولا أوضح من قوله : «فإن تسجنوا

---

(١) الرثاء : ٧ .

(٢) تاريخ الأدب العربي ١ : ٤٥٩ .

(٣) ديوان الحماسة ، ٢٦٢-٢٦٣ .

(٤) ينظر تاريخ الطبري ٧ : ١٤٧ ؛ ووفيات الأعيان ٢ : ٢٢٩ .



القسري...» ، فإذا كان هذا واضحاً لفت نظرنا أن يروي أبو تمام هذه الأبيات في باب المراثي .

هذا هو الذي عند أبي تمام ، فأما الذي هو عند ابن الأعرابي فهو قول القائل في هذا الكتاب :

تطاول ليلي بعد لُبنى فلم أنمْ ... وأقصرُ ليل العاشقين طويلُ
ففكّرتُ حتى صرتُ بالفكرِ هائماً ... عليَّ بفكري للخُبول دليلُ

وقول الآخر :

أفي كل يومٍ لي خليلٌ مودِّعٌ لقد ... لقد خفتُ أن أبقى بغير خليلِ
ولابدَّ يوماً أن تجيء منيّتي ... ويفردَ مني صاحبي ودخيلي

وقول ابن الحنّاط :

ومن عَجبٍ لما تبيَّنتُ أنني ... لديه على طول المقامةِ لا أجدي
تحرّيتُه في نومتي فلقيتُه ... لأشكو إليه ما لقيتُ وأستعدي
ومسَّحتُ كي أغنى بكفّيَ كفّه ... ولم أدرِ أن الجود من كفه يُعدي
فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى ... أفدتُ ، وأعداني فأتلفتُ ما عندي

ويمكن للدارس أن يلاحظ أن تطاول ليل الشاعر بعد لُبنى أقرب ما يكون الى وجد العاشق هَجرتْهُ حبيبتُه منه الى رثائها إذ ليس هناك شيء يومئ الى وفاتها ، وأن المقطَعة الثانية لا تكاد تمس موضوع الموت إلا من بعيد : «لي خليل مودّع» ، حتى لتبدو أقرب الى الشكوى منها الى الرثاء ، واختلطت المقطَعة الثالثة بشعر المديح فقيل : إنها في مديح الخليفة المهدي[1] ، مما يجعل بنا حاجةً أن نفسّر معنى ذكرها هنا لعلنا نصل الى فهم مصطلح الرثاء عند ابن الأعرابي وعند سواه من معاصريه كأبي تمام ، فأقول :

(١) ينظر أمالي المرتضى ١ : ٥٢٢ ؛ وغرر الخصائص ٢٠٦١ .



إن في المقطَعتين الأوليين توجعاً من فراقٍ هو في الأولى فراقُ عاشقٍ حبيبتَه ، وهو في الثانية وداع أحبّةٍ رحلوا بسبب الوفاة ، وإن في الثالثة توقاً الى لقاء الخليفة المهدي أو سواه ، طمعاً بنواله ، ولكن ذلك لم يكن مجدياً فلقيه في النوم فلمس يدَه فأعدته بكرمها فأتلف ما عنده ، ولدى بحثنا عن قدر جامع ـ كما يقول المناطقة ـ بين هذه المقطَعات ، والمقطعة التي رواها أبو تمام ، يكون من الهيّن أن نلمح أن الفقدان هو الذي يجمع بينها ، فأبو الشغب ـ عند أبي تمام ـ يتحدث عن سجين ، والآخر عن لبنى ـ وقد بعدت عنه ـ والثالث عن أحبة ماتوا ، والرابع قد يكون يتوجع لخيبته ويبكيها ؛ إذ هو لم ينل من المهدي شيئاً وأعداه فأتلف ما عنده ، وقد يكون يتحدث عن توقه للإفادة من المهدي ، وبُعده عنه في اليقظة ، فإذا صح هذا قلنا : إن هذا الفقدان قد يكون بسبب الموت أو السجن ، أو الهجر فيكون الحديث عن التوجع لهذا الفراق رثاءً .

وإذاً فالرثاء ليس هو التوجّع من وفاة عزيز فحسب ، وإنما كان يعني ـ في عصر ابن الأعرابي ـ التوجّع من فراق عزيز سواء أتمّ هذا الفراق بالموت أم بسواه . وإذا شئنا أن نستلّ هذا التعريف من كتابنا نفسه أشرنا الى قول القائل فيه :

رُوِّعتُ بالبينِ حتى ما أراعُ بهِ ... وبالمصائب في أهلي وجيراني
لم يترك الدهر لي عِلقاً أسَرُّ به ... إلا اصطفاهُ بموتٍ أو بهجرانِ

أقول هذا أريد ـ من ورائه ـ أن أنبّه الى ضرورة أن نورخ لما نصطلحُ عليه الأغراض الشعرية توريخاً يأخذ تطور المصطلح عبر العصور أساساً .

وتورخ هذه المقطَعات ـ من دون قصد ـ لتطور الرثاء منذ كان طقساً «من طقوس الحداد يشترك فيه النادبون والنادبات ، وكان الدور الرئيسي موكولاً في البدء الى أخت البطل الميّت...»[1] ، فيكون الرثاء في هذه المرحلة أقرب ما

---

(١) تاريخ الأدب العربي ١ : ٥٨٤ ، ويلاحظ أن مقدمة الدكتور شوقي ضيف في «الرثاء» شديدة الشبه بما يرد عند بلاشير وهو يسرد آراء المستشرقين في الصفحة المذكورة وسواها ، دون أن يذكر بلاشير .



يكون «الى ارتجال نساني»[1] ، كما في مقطّعة هند بنت معبد ، وزينب بنت الطثرية وسواهما ، حتى تحوّله الى وسيلة من وسائل التكسّب كما في مقطّعة عبد الله بن همّام السلولي .

وأمر آخر يلفت النظر هو أن ابن الأعرابي لم يكن متعصباً على شعر المحدثين عامة بسبب أنهم محدثون ؛ فقد روى لجماعة منهم مثل نصيب الأصغر ، ويحيى بن معبد بن طوق ، والعتّابي ، ومحمد بن عبد الله بن المقفع ، ويحيى بن زياد الحارثي ، مما يوحي أنه كان ينطلق من زاوية نظر فنيّة «تأخذ اتّباع طريق الأوائل معياراً وحيداً في النظر الى الشعر»[2] . ولعل في هذا ما يفسّر مجيء المقطّعات على نسق يكاد يوحي ـ أول وهلة ـ بتقارب المستوى الفني .

وشيء يلفت النظر أيضاً هو أن هذه المقطّعات ـ سوى مقطّعات لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة ـ هي رثاء الأقارب من نحو أخٍ يرثي أخاه ، أو أب يرثي بنيه ، أو صديق صديقه وما إلى ذلك ، وكأن ابن الأعرابي يتحرى شيئين هما : صدق التفجّع ، وطرافة المعنى وجودته ، على أن جودة المعنى تعني عنده التغني بأخلاق الكرماء من نجدة ، وشجاعة ، وحسن ضيافة وما هو إليها مما يطرب له صاحبنا فكاد يكون هو الجانب الغالب على المقطّعات من حيث الموضوع الشعري ، ثم كيف يؤدي الشعراء هذه الموضوعات أداءً فنياً عالياً حتى ولو تكرر ، ومن هنا تكررت مثل هذه المعاني في المقطّعات .

ويعجبه أحياناً في المقطّعة أنها لا مَثَل لها كأن يرثي شاعرٌ عينه ، أو عنزاً له ، أو حماراً . مما يجعلنا نتحفظ على ما يقال من ظهور اتجاهات جديدة في رثاء العباسيين كرثاء الأعضاء والحيوانات وما إليهما .

---

(١) نفسه .

(٢) الصراع بين القديم والجديد في الشعر العربي : ٥٢ .



ولستُ أريد أن أطيل في هذه الملاحظة ؛ لأنه ليس من وكدي الآن أن أدرس ابن الأعرابي ناقداً أو أن أدرس كتابه دراسة نقدية ولكن من وكدي أن أنبّه الى هذا الجانب في شخصيته الأدبية ، والى ذوقه في الاختيار .

وترتب على سعة علم ابن الأعرابي وعلى ذوقه أن روى لنفرٍ من الشعراء لم تعرف المصادر الأخرى شيئاً عنهم ، فلم نكن نعرف قبل هذا الكتاب شاعراً اسمه جوّاب السُلمي ، أو شاعراً اسمه مرداس بن عبد منيّة ، أو ثالثاً اسمه مطر بن جبير العجلي ، أو رابعاً يكنى أبا ندبة ، وهكذا مما أرجو أن يتضح من حواشيَّ فيه .

لذلك لا أرى من بأس عليَّ إذا قلت : إن هذا الكتابَ يُضيف الى معرفتنا بالشعر العربيّ من أوّله حتى نهاية القرن الثاني للهجرة شيئاً جديداً لا تعرفُه المصادر الأخرى ، هذا الى أنه يرسم جانباً آخرَ من جوانب ابن الأعرابي هو جانبُه الأدبيّ .



الخليل بن أحمد المخزومي

والإبداع في النحو

(في ذكرى رحيل العلاّمة الدكتور مهدي المخزوميّ)

والعنوان غريبٌ من وجهين : أولهما لماذا يكون الخليل بن أحمد الفراهيدي هو المخزومي ولا يكون سيبويه ؟ وثانيهما ، كيف يكون هذا الدرسُ الكريه الذي اسمُه النحو ، والذي استقرَّت قواعدُه منذ مئات السنين حتى قيل ، إنَّه « علمٌ نضجَ فاحترق » مما يحتملُ الإبداع ؟ وهو درسٌ بلغ من التقليدية بحيثُ اتخذ من شواهدِه البغادِدةُ المولَدون من أبناء القرن الرابع مثلاً يسخرون به من الذليل فيقولون لكلِّ من هو ذليلٌ : « كأنه زيدُ المضروب » يَعْنُونَ قول النحاة : « ضرب عمروٌ زيداً » حتى قال شاعرُهم حين تصوَّر أنه عزيزٌ قبل أن يعشق ، ذليلٌ بعد العشقِ ،

أنا المضروبُ لا زيدُ

والغَرابتان في موقعهما لدى من لم يُواتِهِ الحظَّ أن يكون تلميذاً للمخزوميِّ ، أمّا من أسعده حظٌ مثل حظّي فكان تلميذاً له خمسَ سنواتٍ إلاّ قليلاً ، فإنه لا يملكُ إلاّ أن يشكر وفاء « الثقافة الجديدة » لأعلام الثقافة العراقية ـ وفي الطليعة منهم الدكتور المخزومي ـ في التنادي لتخليد ذكراهم ، والإشادة بما قدّموه للثقافة العراقية ، وفي مناشدة من تظنُّ أنه قادر على الكتابة عنهم أن



يكتب ، أقول : لابدَّ من شكر «الثقافة الجديدة» الشكرَ العميق على هذا الوفاء ، وذلك الاهتمام لولا أنها تُجشّم هؤلاء الذين تناديهم أن يكتبوا عناءَ ما يُظنُّ أنَّهم يتحدثون عن أنفسهم ، لا عمَّن تريد أن تُخلِّد ذكراهم وتشيدَ بمآثرِهم . والحديثُ عن النفس كريهٌ .

أقول هذا لأنني لا أستطيع الحديث عن رجلٍ مثل المخزوميِّ لولا أنَّ الحظَّ حالفني فدرَّسني خمس سنواتٍ .

فإذا برَّأتَني من مظنَّة الحديث عن النفس ، ونزَّهتَني عن تهمة الإعجاب بها وفَّرتَ عليَّ وعلى نفسِك أن ألفَّ وأدور فأُتعبَك وأُتعبَ نفسي بهذا اللفِّ وذلك الدَّورانِ ، وهيَّأتَ لي أن أتذكَّر من علمِه ما أتذكَّر .

وأقول باديء ذي بدءٍ : إنَّ المخزومي يوم بدأ أول ما بدأ يطلب العلمَ بدأه وهو في النجف الأشرف يطلبُ العلوم الفقهية ، ولكن الذي لفتَ نظري ذات يومٍ ـ وهذا بعد أن قطعتُ شوطاً في التلمذة على المخزومي ـ أنني وقعتُ على مخطوطةٍ في النحو في إحدى مكتبات النجف العامّة ، ولا أتذكَّر الآن اسمَ المخطوطة ، ولا اسمَ مؤلِّفها ، ولعلَّها لم تُطبع حتى اليوم ، وفي آخر صفحةٍ منها بعد ذكرِ اسم الناسخ ، وتاريخ الفراغ من النسخ وما إلى ذلك مما درجتْ المخطوطاتُ العربية على ذكره ، أقول وجدتُ بخطٍّ جيِّدٍ مُستحصِفٍ أنَّ الشيخ مهدي بن الشيخ صالح زاير دهام قد قرأها ، ووعاها ، وكان الفراغ من ذلك في يوم كذا ، من شهركذا ، من سنةكذا . وقد أرَّخ ذلك كلَّه بالتأريخ الهجريِّ .

وكنتُ أعرف أنَّ الشيخ مهدي بن الشيخ صالح زاير دهام هو أستاذي الدكتور مهدي المخزومي ، فقرَّرتُ أن أعرف كم كان عمر أستاذي حين قرأها ، ووعاها ؟

وكان عليَّ أن أحترسَ في السؤال ؛ لأنني لو فاوضتُه بما رأيتُ ، كما رأيتُ ، لأنكرَ واشتدَّ في الإنكار ؛ لا لشيء إلاّ لتواضعه الجمِّ الأصيل . وهكذا



فعلتُ ؛ فقد سألتُه كم كان عمرُهُ في تلك السنة ، دون أن أذكر المخطوط الذي رأيتُ لا من قريبٍ ولا من بعيد ، فابتسم الفقيد مستغرباً ، فقلتُ :

ـ خاطرٌ خطر بذهني ، وأكون سعيداً لو أجبتني عنه . فأطرقَ لحظاتٍ ، ثمَّ رفعَ رأسه وهو يقول :

ـ كان عمري عشر سنين ، وكنتُ ألبسُ الكوفيَّة والعقال يومذاك .

وأخبرتُه بما رأيتُ فضحك ، وأظنُّ ظنّاً يُشبِه اليقينَ أنه طلب مني أن أوافيه بما كانَ كتب حرفاً بحرفٍ ، فنسختُه له ، وإذ رأى ما كان قد كتبَ ضحك أكثر مما ضحك أوّل مرّةٍ لا مماكتب ، ولكن مما اصطنع من وقار العلماء ، وطالبي العِلم ، وهو صبيٌّ يكتب .

أقول هذا أريد أن أُعلِّل به كيف كان النحو العربي جزءاً من تكوين دمِ المخزومي .

وأنتقل الآن إلى تجربتي النحوية الدراسية معه فأقول ؛ إنني لم أكن قاربت أن أفهم النحو إلاّ على يد أستاذي الحاج (هكذا كنا نسميه) يحيى الجواهري في إعدادية النجف ، ولكنَّ فهمي كان يشبِه أن ترى الشمس في يوم ضباب ، ولم يكد يزول عني هذا الضبابُ إلاّ في العام الدراسيِّ ؛ ١٩٦٧ ـ ١٩٦٨ ، بعد إذ تخرَّجتُ في الثانوية ، وقُبِلتُ في شهر أيلول من عام ١٩٦٧ في قسم اللغة العربية من كلية الآداب في جامعة بغداد ، وإلاَّ يوم انتصب بقامته الفارعة المحببة أستاذنا الشاعرُ الوطنيُ إبراهيم حرج الوائليَ ، وفي أنفه غُنَّةٌ جميلةٌ ، وفي ذهنه بديهةٌ حاضرةٌ ، وعلى شفتيه دُعابٌ حلوٌ . ولكنَّ الفقيد الوائليَ لم يُدرِّسنا النحوَ إلاّ سنةً واحدة هي السنة الأولى من دراستنا في الكلية .

فقد كان أن أسِفنا أن لم نرَ اسمَ الأستاذ الوائليِّ في درس النحو للسنة الثانية ، ولم نكن ندري أنَّ أسَفَنا عليه بعد أن لم نرَ اسمه في جدول الدروس كان معناه أن ننتقل من عالمٍ جميلٍ إلى عالمٍ أجمل منه .



وأرجو ألاّ يفهم أحدٌ أنني أنتقصُ من فضلِ أستاذي الوائليّ ولا من عميق علمه ؛ فحسبُك من هذا العلم ، وذلك الفضلِ أن كان درسُ الوائليُّ في النحو درساً في النحو ، وفي الفلسفة الإسلامية ، وفي علم الكلام ، وفي المنطق ، بل وفي التاريخ ، والجغرافية ، حتى لو قلتُ لك : إنَّ الوائلي كان من الموسوعيين الأفذاذِ في علمِه لما أبعدتُ ، ولما جاوزتُ الحدَّ ، وحسبك منه أن كان الوائليُّ - وهو حامل الماجستير لم يتجاوزها - رفيق المخزومي في مناقشة كل الأطروحات اللغوية والنحوية ، سواء أكانت هذه الأطروحاتُ ممن أشرف عليها هو أم الدكتور إبراهيم السامرّائي ، أو الدكتور المخزومي . حتى كنّا نسمّي هؤلاء الثلاثة - تأثراً بالبرامج التلفزيَّة المصريَّة - بالثلاثيِّ المرح .

ولكن كان الفرق بين الوائليِّ - وحتى بين السامرائي اللغويّ - والمخزوميّ أنَّ ذينك الاثنين يريان النحو مسائل قد يُجتَهدُ في هذه المسألة منه أو تلك ، على حين أنه كان عند المخزومي كوناً كاملاً ، ورؤيةً شاملةً تنتظمُ كلَّ مفرداتِه وأجزائه . ومن هذه الرؤية أنَّه كان يُلغي نظرية تنازع العوامل ؛ فيتجاوز تدريسها ؛ لأنها ترتبط بنظرية العلّة والمعلول ، ومنها أنَّه كان يرفضُ أيضاً أن يقال عن جملة : « خالدٌ رأى زيداً » أنها جملةٌ اسميَّةٌ كما يقول النحاة ؛ فقد كان يراها جملةً فعليةً وإن بدأت باسمٍ لأن الفرق عنده بين الاسم والفعل أن الاسم يفيد الثبوت ، على حين أن الفعل يفيد التجدّد ، فأنت إذ تقول : زيدٌ أخوك ؛ فذلك يعني أنه أخوك اليوم وبعد غدٍ وبعد ألفِ عام ، ولكنّك حين تقول : زيدٌ جاع ، فإن جوعَه لا يلبث إلاّ ريثما يأكلُ فلا يجوز لك بعدها أن تقول في : « زيدٌ جاعَ » زيدٌ مبتدأٌ لا لشيءٍ إلاّ لأن الجملة ابتدأتْ باسمٍ فتكون بذلك شكلياً ، فإنَّ « زيدٌ » عند المخزوميّ فاعلٌ مُقدَّم ؛ لأن الجملة الفعلية تفيد التجدّد مهما كان موقع الفعل ، والفاعل . وهذا حديثٌ لا أريد أن أفيضَ به لأنه مُملٌ لغير أهل الاختصاص ؛ ولكنَّه نافعٌ لمن يريد أن يعرف خسارتنا بالمخزوميّ .



وأراني استطردتُ ، وإن لم أخرج عن عالم المخزومي ، ولكنني قيَّدتُ نفسي بعنوان ينبغي أن أرجع إليه ، فأقول :

ها هو المخزومي الذي جاء من السعودية هو وعلي جواد الطاهر بعد أن اختاراها منفًى أقاما فيه من : ١٩٦٣ ـ ١٩٦٨ أمامنا بلحمِه ودمِه ، أقربَ إلى القِصر منه إلى الطول ، نحيفاً ، خفيف شعر الرأس ، لايعرفُ من جمال هندامِه إلاّ أن تكون بدلتُه غير قديمةٍ ، وكان الآخرون يتأنَّقون . ولم نكن نعرف يومها أنَ الأناقة أناقةُ العقل لا البدلة ، ولا القميص .

وإذاً ، ها هو المخزوميُ فماذا سيقول ؟ ومِن أين سيبدأ معنا في « شرح ابن عقيلٍ على ألفية ابن مالك » ؟ ولكن لم يطل بنا التفكيرُ ، ولم يحتجْ هو أن يسألنا أو يستوضحنا ، فقد بدأ بقوله :

ـ وصلتم إلى « كان وأخواتها » .

وقلتُ في نفسي : « يا للطامّة إلى متى سنظلُّ في التي ترفع المبتدأ وتنصبُ الخبر » ؟

وبدأ محاضرتَه ، فقال : يقول النحاة إنَّ « كان وأخواتُها » تدخلُ على المبتدأ والخبر ، فترفعُ المبتدأ وتنصبُ الخبر ، أليس كذلك ؟

وقلنا جميعاً : نعم . ولكن كان لا بدَّ أن لاحظَ شيئاً عليَّ حين استدعاني إلى اللوحة قائلاً لي اكتُب :

« صار الطينُ إبريقاً » فكتبتُ .

ثم قال لي : احذف « صار » واجعل الجملةَ من مبتدأ وخبر فماذا تقول ؟

كانت القاعدةُ النحوية تقولُ لي أن أكتب : « الطينُ إبريقٌ » ولكنني تردَّدتُ ؛ لأنني لم أرها منسجِمةً عقليّاً ، ولأنني رأيتُها ـ كما يقول أهل النجف بالعامية ـ « مِش ولابدَ » ، فقال لي : اكتب كما يقول النحاةُ ولستَ مسؤولاً عن قولِهم ؛ لأننا نريد أن نمتحنَ هذا القول ؛ فكتبتُ : « الطينُ إبريقٌ » .



فتوجَّه إلى الطلبة يسألهم : هل كلُّ طينٍ إبريقٌ ؟

وأشهدُ أننا تحيَّرنا فإذا قلنا له : لا . فسيكون معنى ذلك أننا سنهدمُ كلَّ ما تعلمناه وعانينا منه الأمرَّين في الامتحانات إن لم يكن في المتوسطة ففي الثانوية ، وإذا قلنا له : نعم فإنّنا لا نعلمُ أين سيودّينا ؛ لأنَّ السلام يجرُّ كلاماً والكلامُ يجرُّ بطيخاً . وأدرك هو هذه الحيرة وربما كان يدركها من قبل ؛ لأنه لم يأمرني بالجلوس بعد أن كتبتُ فقال :

اكتبْ : « صار الماءُ ثلجاً » وكتبتُ . (وأرجو الاّ يتصوَّر أحدٌ أنني أتجوَّزُ فأعطي أمثلةً من عندي وإنما أنا أنقلُ أمثلتَه كما وعتها الذاكرة حرفاً بحرف) فكتبتُ ؛ فقال :

ـ احذف « صار » واكتب الجملة كما ينبغي أن تكون نحوياً ، فكتبتُ :

« الماءُ ثلجٌ » .

فَسَألَنا جميعاً : من منكم يستطيع أن يقول : الطينُ إبريقٌ ، والماءُ ثلجٌ ؟

فأجبناه جميعاً حائرين ـ ولا ابتلى اللهُ أحداً بتلك الحيرة ـ أنَّ ذلك صحيحٌ نحوياً . وتبسَّم ابتسامتَه الهمسَ قائلاً :

دعوا عنكم النحو ، واسألوا عقولكم إن كان يستقيم فيها أنَّ الطين إبريقٌ والماء ثلجٌ ؛ فدُخنا واستغربنا من السؤال . ويا لله كم ضلَّلَ عقولنا أساتذةُ النحو من حيث حسبوا أنهم يعلّموننا ؟

وإذا كانت دوختنا في محلِّها أو في مكانٍ قريبٍ من محلِّها ؛ فإنَّ استغرابنا كان استغراباً ساذجاً من وجهينِ أولهما أننا لم نكن نعرف بعدُ ماذا يريد منا أستاذنا المخزومي ، وثانيهما أنه كان أستاذنا المخزومي واحداً في علمِه لا ثانيَ له ، ولكنّنا ـ ونحن أغرارٌ ـ لم نكن نعرفُ هذا .

وانتظرنا كما ينتظر البدويُّ نزول الغيث أن يجيبنا عن اللغز ، فبدأ يفرك



الطاولة التي أمامه براحة يده ـ وكان من عادتِه أن يفرك الطاولة التي أمامه بيده اليمنى كلَّما أراد أن يدُلي برأيٍ من آرائه ، كأنه يكرِّر براحتها رسم دائرة ـ يُداري بذلك خجله الوديع ، الأصيل ، فيه ، حتى كنّا نقول كلَّما رأيناه يفرك الطاولة لكثرة ما ألفنا هذه العادة عنده :

ـ بدأ يفرك الطاولة ، فانتظروا القنبلة .

أقول : بدأ المخزومي يفرك الطاولة ، وهو غاضٌ من بصرِه ، وكأنَّه يتأمَّل فقال :

ينبغي أن تُعرِبوا « إبريقاً » و« ثلجاً » على أنهما حالان وليسا خبرَيْن . ولو كانا خبرين كما يقول النحاةُ لاستقام أن يكون « الطين إبريقٌ » و« الماء ثلجٌ » . فـ« كان وأخواتها » أفعالٌ تامَّةٌ لازمةٌ ، ومنصوباتها أحوالٌ ، ولو كانت أفعالاً ناقصةً ـ كما قالوا ـ لاستقام عقلاً أن يكون كلُّ طينٍ إبريقاً ، وكلُّ ماءٍ ثلجاً . وهذا باطلٌ .

ولا يهمّني كثيراً أن يكون المخزومي قد سُبق إلى هذا الرأي أو سواه ، ولا يهمّني أن يُقلِّل حاسدو فضلِه من قيمته فينسبون هذا الرأيَ أو ذاك من آرائه إلى ابن مضاء القرطبيّ حيناً ، وإلى إبراهيم مصطفى حيناً آخر ، وإلى مدرسة الكوفة حيناً ثالثاً ، وهكذا .

أقول لا يهمني ـ والأمر مهمٌ ـ لأنَّ هؤلاء جميعاً ممن يظنون أنَّ كلَّ أستاذٍ يمكن أن يكون مهدي المخزومي ، أقول : لأنَّ هؤلاء جميعاً ينسون أنه لا ينبغي له أن ينطلق من فراغ ، كأن يُعيد اختراع البنسلين مرَّةً أخرى ، وأنه إذ اطّلع على كلِّ ما اطّلع ، ووعى كلَّ ما وعى استطاع أن يخرج من بين كلِّ ذلك بعالِمٍ جليلٍ اسمُه مهدي المخزومي ، وبشخصيّة علميّة لا تنتمي إلاّ لمهدي المخزومي ؛ فهل ثمَّة أصالةٌ غير أصالتِه هذه ؟

ولكن لعلّه مما يهم القارئ أن أقول له كيف خالَفْنا النحاةَ جميعاً وأخذنا



برأيِه عقلياً ولم نأخذ به رسمياً ؛ لأن ذلك يدخل في مجال آخر ، هو مجال قرارات وزارة التربية ، وما يُشبِهها من وزاراتٍ . ومن هنا خسرنا المخزوميَّ مرّتين : مرّةً حين فقدناه كما نفقد أيَّ عزيز ، ومرّةً أخرى حين لم نستفد من آرائه في تيسير النحو العربيِّ ، في الوقت الذي لا تكاد تجد دارساً يؤلِّف في النحو العربيِّ عربيّاً كان أم مستعرباً إلاّ وجدتَ المخزومي من مراجعِه ، وفي الوقت الذي يشكو به العربُ جميعاً من تعقيد النحو العربيِّ ، وفقدُه الثاني كان غصّةً في حلقِه ، وحلوق كلِّ عارفي علمِه ، ولكن هذه الغصة كانت لا تتحشرجُ في حلقِه إلاّ حين يطفحُ به الكيلُ .

وطفح به الكيْلُ في عام : ١٩٧٤ حين أصدر المجمعُ العلميُّ العراقيُّ كتاباً للدكتور أحمد عبد الستار الجواريّ في تيسير النحو أسماه : «نحو الفعل» وكان الدكتور أحمد يومذاك وزيراً للتربية والتعليم ؛ فكتب مقالةً عنه ، وأعطاني هذه المقالة رجاء أن ننشرها في مجلة الرابطة التي كانت تصدر في النجف يرأس تحريرها الفقيد الشاعرُ مصطفى جمال الدين ، ويقوم كاتبُ هذه السطور ـ رغم أنه من هيأة تحريرها فحسب ـ مقام سكرتير التحرير ، فنشرنا المقالة في صدر المجلّة ، وكان أخطر ما فيها محاكمةُ الدكتور المخزومي فكرَ المؤلِّف فيما يزعمُ أنه تيسيرٌ ، ثمَّ غيابُ هذا التيسير المزعوم عن مناهج تدريس النحو في مدارسنا مما يدعو إلى التساؤل عما إذا الوزيرُ صادقاً فيه ؟

وقامت قيامةُ الجواري إلى درجة أن عاتَبَ الفقيدَ مصطفى أن كيف يُسلِّم لحيتَه بيد «زعطوطٍ» ؟! وكان يعني بهذا «الزعطوط» كاتبَ هذه السطور ، أقول : عاتبه أن كيف يسلِّم لحيته بيده فينشر للمخزوميِّ مثل هذا الكلام ؟ وأشهدُ الآن أمام التأريخ ـ وقد رحل الجميعُ ـ أن المصطفى شهد بأنَّ نشر المقال هو من خطَّة المجلّة ، وأنها تُرحِّبُ بأيِّ ردٍّ من الدكتور الجواري شريطة أن يعرفَ أنَّ المجلّة تضمن حريَّة الردِّ للدكتور المخزومي ، وهكذا كان .



ومن هنا فلا عجبُ أن يحصل كتابه : «في النحو العربي : نقدُ ، وتوجيه» الصادر في لبنان عام : ١٩٦٤ جائزة أفضل كتاب لذلك العام ، وأن يتولّى الشاعر الكبير أدونيس تصحيح تجارب طبع الكتاب ؛ فلا شكَّ أنَّ أدونيس المجدِّد كان يدرِك معنى تجديد المخزومي ، ويدرِك مدى أصالة هذا التجديد . وما كان من المقدَّر لي أن أعرف هذا لولا أن سألتُ الفقيد ذاتَ مرةٍ عن الدقَّة في طبع الكتاب حتى ليكاد يخلو من الأخطاء الطباعية المعتادة .

ولا عجبُ أيضاً أن يسمّي الجواهريُ وهو ما هو ـ أطال الله في عمره مُعافى ـ الدكتورَ المخزوميَ : «أنحى من عليها» .

ومن عادةِ الجواهريُ شأنُه في ذلك شأن أي شاعرٍ حقيقيٍّ أصيلٍ أنَّه يُحبُ أن يقرأ شعرَه لأصدقائه من الأدباء الذين يثقُ بتذوّقِهم قبل أن يذيعه في الناس ، فقرأ ذات يومٍ في بيته الذي كان في محلّة القادسية من كرخ بغداد «أيها الأرق» أمام جملةٍ من أصدقائه ومن بينهم صديقه المخزوميَ حتى إذا وصل إلى قوله فيها :

أنا عندي من الأسى جَبَلُ | يتمشّى معي وينتقلُ
أنا عندي وإنْ خبا أملُ | جذوةٌ في الفؤاد تشتعلُ
إنَّما الفكرُ عارمٌ بطلُ | أبدَ الآبدينَ يقتتلُ

قال له المخزوميُ وهو مبتَسِمٌ ، كعادتِه في مثل هذه المواقف :

ـ الفكر لا يكون بطلاً في كلِّ الأحوال ، فما كان من الجواهري إلاّ أن قال : «تمام ، أبو نوال ، عاشت ايدك» :

إنما الفكرُ عارماً بطلُ | أبد الآبدين يقتتلُ

كان النحو عند أبي نوالٍ حياةً يوميةً ، ومعنًى ، وفكراً ، وعِلماً ، وليس «ضرب عمروٌ زيداً» .



وإذا كان النحو العربيُ قد ابتُلي بآفةٍ من الآفات هي آفةُ نظر النحويين إلى النحو على أنه علمٌ قائمٌ بذاتِه ، مُستغنٍ بنفسه ، فإنّه لم يكن كذلك عند المخزومي ؛ لأنّه كان أديباً قبل أن يكون نحوياً - ولعل طائفةً من الناس لا يعرفون أن المخزوميَ بدأ حياته الأدبية شاعراً - وقد رافقه هذا الذوق الأدبيُ الرفيعُ وهو يدرسُ النحو ثم وهو يُدرِّسه ، وحسبك من ذلك أنّه كان وهو يستشهد بأراجيز رؤبة والعجّاج يبلغُ من تذوّقهما بحيث لم أتمالك نفسي أن سألته ذات يومٍ ، وقد صرتُ وأنا تلميذُه زميلَه ، عن سرِّ حفظه هذه الألغازَ البدوية ، وعن سرِّ تذوّقها ؟ فما كان إلاّ أن ابتسم وهو يقول :

- لو كان الدكتور طه حسين قد درَّسك هذه الأراجيز لما سألتَ . ثم أردف :

- وإذا كنتُ أحزن على شيء فليس بمقدار حزني أنني أعرتُ الدكتور عبد الهادي محبوبة الدفتر الذي فيه محاضرات الدكتور طه عن هذه الأراجيز ، ثم أضاعَه فلم يرجعه إليَّ .

ولقد استطردتُ فأنسيتُك هذه الحياة فأعود إلى ما كنّا فيه فأقول :

إننا لم نكد نصدِّق لولا الخوف من الامتحان أن ما يجيء بعد كان وأخواتها لا يكون مبتدأ وخبراً ، وكيف لنا أن نصدق المخزوميَ ونكذِّب دراسة عشر سنواتٍ قد تزيد وقد تنقص - لا أدري - من النحو العتيد الذي نردِّد فيه الجُملَ التي حفظناها كأحسن ما تكون من الصحّة ، ونكتب الجُملَ التي لم نردِّدها كأسوأ ما تكون من الخطأ ؟ وكأن النحو قواعدُ مقرَّرةٌ في شواهد النحو وأمثلته لا في الحياة ، حتى لتجد من أقوال النحاة العجيبة المأثورة : «النحو مهنتُنا واللحنُ عادتُنا» ، ولكنَّ المخزوميَ أقنعنا بشيءٍ آخر يوم أن سألنا :

- لماذا يُسمي النحاةُ المصدر مصدراً ؟



وقلنا بكلِّ السذاجة : لأنَّه مصدرٌ .

ولم يضحك ، ولم يبتسم ، ولم يتغيَّر وجهُه ، وإنما سأل أحدَنا قائلاً :

أعطني مصدراً مما تعرف ، فقال : الضَّرْبُ .

فسأل الفقيد :

ـ هل لكم أن تتصوَّروا أنَّ إنساناً ما يستطيع أن يتصوَّر «الضَّرْب» ما هو وما هي كيفيَّته دون أن يرى أمامه : «ضَرَبَ ، وضَرَبَ ، وضَرَبَ» وهكذا ألفاً حتى يستقيم بذهنِه أن يشتقَّ لهذا الفعل اسماً هو : «الضَّرْبُ» ؟

وحينئذٍ أدرك بعضٌ منَّا شيئين أولهما : لماذا اعتُقل أستاذنا بعد انقلاب شباط الأسود ١٩٦٣ حتى روّعوه بالقتل أكثر من مرَّةٍ تخويفاً ، وقد سمعتُ منه تفاصيل هذا الترويع ، فهرب إلى السعوديَّة ، وثانيهما أن النحو العربيَّ يمكن أن يدخل أيضاً في سؤال الفلاسفة : أيهما أسبق المادة أو المثال ؟

ومحاضراتُ المخزوميِّ مُتعةٌ عقليةٌ ، وكان أمتعها عندي حين كنتُ في السنة التحضيرية من مرحلة الدكتوراه ـ وكان ذلك في العام الدراسي ، ١٩٧٣ ـ ١٩٧٤ فقد كان زملائي زملاءُ ثلاثة من أهل اللغة ، وكنتُ وحدي في شعبة الأدب ، وكان من موادّ الدراسة في الشعبة الأدبية النحو ، أجلس فيه وحدي بحضرة المخزومي ، وسألني في أوّل محاضرة :

ـ ماذا تريد أن تستزيد وقد درَستك سنواتٍ أربعاً ؟ فقلت :

ـ مازالت في نفسي حاجةٌ أن أفهم كتاب سيبويه كما هو . فقال :

ـ تعني علم الخليل . موافق ، ولكن بشرطين : أولُهما أن تدرسه على طريقة بحث الخارج في النجف (كان يعني بذلك أن أقرأ من الكتاب أمامَه فأُشكِلُ على ما أقرأ كما هي طريقة الفقهاء فيما يُسمّونه بحث الخارج ، فيحلَّ هو المشكلة التي أُثيرها) وثانيهما أن ندرسه ـ هكذا قال أعني أنه لم يقل :



تدرسه ـ في طبعة بولاق وليست طبعة هارون ، لأنه لم يكن راضياً ، وهو على حاقٍّ الحقِّ ، عن تحقيق الدكتور الأستاذ عبد السلام محمد هارون له .

وهكذا كان ، ولكنَّ الحظَّ لم يكن من رفاقي هذه المرَّة فما هي إلاّ أشهرٌ حتى أُصيبَ بأزمتِه القلبية الأولى التي منعته أن أُكمل علمَ الخليل معه .

ولك أن ترى أنَّ المخزوميَّ ـ وهو العالِم المُجدِّد بحقٍّ وحقيقٍ ـ لم يتنكَّر للقديم في طريقة الدرسِ بحجةِ أنَّه قديمٌ كما يفعلُ الكتّابُ العَجَزةُ ـ من أشباه الشعراء في أيامنا هذه ونقّادِهم الذين يزعمون أنهم من أهل الحداثة ـ وذلك أنَّه رأى في مرحلةٍ من مراحل الدراسة أنَّ هذا القديمَ نافعٌ ، وأنه أكثرُ من نافعٍ .

ومن هذا الرأي في القديم أنَّه كان اقترح على الفقيد مصطفى جمال الدين يومَ رغِبَ إليه أن يكون مُشرفاً على رسالته للدكتوراه أن يكتبَ عن «الدرس النحويّ عند الأصوليّين» فكتبَ مصطفى رسالةً لا يعرفها أهلُ النحو ما عدا المخزوميَّ ، وإن كانوا قد تمطَّقوا كثيراً برأي أهل أصول الفقه في النحو بعد كتابتها ونشرها .

أما لماذا اقترح المخزوميُّ هذا العنوانَ دون سواه على مصطفى فلسببين أوَّلُهما أنَّ مصطفى من طلاّب العلوم الدينية ، وثانيهما إحساسُه بما يخسره الدرسُ النحويَّ إذا لم يلتفتْ إلى المتخصّصين في أصول الفقه ، وهم يبحثون أوّل ما يبحثون في أصولِهم اللغة العربية ، والنحو العربيَّ من الناحية الفلسفية العقلية باعتبار أنَّ فهم اللغة أصلٌ من أصول استنباط الأحكام الشرعيّة .

وبقي عليَّ العنوان لم أفسِّره ؛ فقد كان أنحى مَن عليها ـ أبو نوال المخزوميَّ ـ يضجرُ من ثلاثةٍ انسجاماً مع شخصيته في إنصاف الحقِّ : أحدهم الذي ينسبُ إلى الليث بن عاصم ، وهو تلميذ الخليل ، معجمَ الخليل الفراهيدي : «العين» وهو أوّل معجم في العربية ، وثانيهما من ينسُبُ إلى سيبويه ما في كتابه : الكتاب ؛ وثالثهما الذي يزعم أنَّ الأخفش استدرك «بحر



المتدارك » على عروض الخليل . فقد كان يرى في الكتاب ، وهو على حقٍّ ، أنه علمُ الخليل ، وأن سيبويه لم يكن إلاّ تلميذاً ألمعياً نجيباً أدرك ما هو في نعمةٍ من علمِ أستاذه ؛ فاستثار ودوَّن .

فأما الليثُ فقد ناقش هو قضيَّته في مقدِّمة تحقيقه « العين » . وأما الأخفش فلا أكثر من أن يرسم لك المخزومي دائرة المتَّفق من دوائر العروض كما رسمها الخليل ليريك أن الخليل قد أشار إليها ، وإن لم يُسمِّها ، ولتقتنع برأيه فيما يقول .

ولقد كنتُ من الإيمان بإدراك هذه الحقائق في أستاذي المخزومي أن أضحكتُه ـ ذاتَ يومٍ ـ وهو على منصّة المناقشة يوم قال لطالبٍ يناقشه في رسالته : « تقول : قال الليث... » فهمستُ في أذن زميلٍ جالسٍ إلى جنبي « صارت القضيةُ قضية عِرضٍ وناموس » وكان الفقيد كأنَّه قد سمع ما قلتُ فضحِك مُغالباً ضحكتَه مُموِّهاً أنّه لم يقطع ما كان فيه من مناقشة قائلاً بصوتٍ لا تكادُ تُميِّزُ غضبَه من صفائه : أنا لا أنتصر للخليل ولكنني أنتصر للحق .

ومن عجيب المصادفات أن حدّثني ـ قبل عامٍ حين كنتُ في ليبيا ـ أحدُ الأصدقاء الذين كانوا معه في بيتِه لحظة وفاتِه أنه مات وبين شفتيه الخليل ، فقد سئل عن الفرق بين قياس أهل الفقه وقياس الخليل ، فبدأ يجيبُ وما إن قال : أما الخليلُ فقياسُه... حتّى حشرج بصوتٍ مسموعٍ واضعاً يدَه على صدرِه ولم يُكمل الجملة . فكان آخرَ عهدِه بالدُنيا الخليلُ بن أحمد الفراهيدي ، وكان آخرَ عهد الخليل بمن يفهمه فهماً مبدِعاً عميقاً هو الخليلُ المخزوميّ .

وكم أتمنى أن لو قامت جهةٌ من الجهات التي تُعنى بالثقافة سواء أكانت دار نشرٍ رصينةٍ أم جامعةً أو مجمعاً بطبع الأعمال الكاملة للفقيد فأسدتْ بذلك يداً لا أنقى منها للثقافة العربية الرصينة الأصيلة . فقد كان المخزومي عالَماً من إبداعٍ .



ولقد كنتُ قلتُ حين حقّقتُ كتاب ابن الأعرابي «مقطّعات مراثٍ» من بين ما قلتُ في الإهداء :

«أبا نوال أستاذي العلاّمة الدكتور مهدي المخزومي

تعجزُ الكلمةُ في الرُّزء بك أن تنهضَ بالحُزنِ ؛ فعسى أن ينهضَ به هذا الكتابُ ؛ فما أفقرَ الرِّثاءَ حين يكون من الحزنِ تراثٌ!» .

كان ذلك مما قلتُ وأنا أُقدِّمُ شعراء حقيقيّين مفجوعين اختارهم ابنُ الأعرابيّ ، أما اليوم وقد قدِّر لي أن أرثي المخزوميَّ فأقول : ما أفقرَ الرِّثاء حين أكون أنا الراثي!

بوزنان ـ بولندة

في ١٤/٧/١٩٩٧



علويّان مُبدِعان

العلوي الحمَاني

مصطفى جمال الدين




مكتبة
الفكر
الجديد

العلويّ الحِمّانيّ

اسمُه ونسبُه ومولدُه:

هو عليّ بن محمّد بن جعفر بن محمد بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام[١] . يُكنى أبا الحسنِ ، وربَّما الحسين ، ولكن ليس في ولده مَن اسمه الحسن أو الحسين[٢] ، ولعل كنيتيه تؤرِّخان لما درج عليه العراقيون إلى اليوم في التكنية ؛ فيكنّون علياً أبا الحسين ، وأبا الحسن تيمّناً بكنية الإمام عليّ بن أبي طالب .

ويُلقَّبُ بالعلويِّ الكوفيِّ ، وبالأفوه ، وبالحِمّاني . والحمّانيُّ من أشهر ألقابه ؛ وهو إنَّما عُرِف به لأنَّه « كان ينزلُ بالكوفة في بني حِمّان فنُسِبَ إليهم... »[٣] .

وأغلبُ الظنِّ أنَّ الشاعرَ ولد في الكوفة في سنةٍ لم تؤرِّخها المصادرُ التي بين أيدينا ، ولم تُورد ما يُعينُ على تحديدها . ورغم هذا فمن المعاصرين من

---

(١) تُكرِّرُ بعضُ المصادر ، وتتابعها بعضُ المراجع ، اسمَ جدِّه فتقول : « علي بن محمد بن جعفر بن محمد بن محمد بن زيد... » ينظر : عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب : ٣٠٠ . والغدير ٣ : ٥٧ .

(٢) ينظر تهذيب الأنساب ونهاية الأعقاب (مخ) : ١١٠ ظ .

(٣) سمط اللآلي في شرح أمالي القالي ١ : ٤٣٩ . وينظر بشأن قبيلة « حمّان » : الأنساب ٤ : ٢٢٥-٢٢٦ .



يرى أنه «كان من المعمَّرين أدرك القرنَ الثالث من أوّلِه إلى آخرِه»[1] ، ويغلبُ على الظنِّ أنه وهمٌ مردُّهُ أنَّ المرحوم الشيخ الأمينيَّ - مؤلِّف الغدير - يرى أن وفاة أبيه كانت سنة : ٢٠٦هـ[2] ، وإلى ما شاع بين المتأخِّرين من خلطٍ بين شاعرنا وعليِّ بن محمَّد الديباجة[3] .

وإزاء هذا فالإشارة الوحيدة التي تومئُ إلى عمره هي قولُه :

أعُدُّ سبعين ، ولو [أ] جُملتْ نمماؤها عادت إلى عامِ[4]

فإذا افترضنا أنَّه مات بعد أن تجاوز السبعين من عمره قليلاً ، ثمَّ أخذنا أنه أدرك آخر القرن الثالث أخذَ ترجيحٍ قلنا : إنَّه ولد في العقد الثاني أو الثالث من القرن الثالث .

نشأتُه ومنزلتُه ووفاتُه:

نشأ الحمّانيُّ في بيتٍ مُعرِقٍ في الشعرِ ، فقد كان يقول : «أنا شاعرٌ ، وأبي شاعرٌ ، وجدّي شاعرٌ ، وأبوجدّي شاعرٌ إلى أبي طالب»[5] ، وليس في

---

(١) الغدير ٣ : ٦٨ .

(٢) الغدير ٣ : ٦٨ مستنداً إلى مروج الذهب ، ولم أجد في المروج ما يشير إلى ذلك ، بل وجدتُ في أخبار القضاة ٣ : ١٩١-١٩٢ ما يشير إلى أنه كان حياً في العقد الرابع من القرن الثالث . وورد في الوافي بالوفيات ٢ : ٢٩٥ أنه «كان في أيام المتوكّل وبقي بعده طويلاً» ومعروف أن المتوكل قتل سنة ٢٤٧هـ .

(٣) خلط بينهما نفرٌ من المعاصرين ، فأحالوا في ترجمة الحماني على حوادث سنة : ٢٠٠هـ في تأريخ الطبري . وهذه الحوادثُ تخصُّ الديباجة وليس الحماني . ونذكر من هؤلاء على سبيل المثال المرحوم العلاّمة مصطفى جواد في تلخيص مجمع الآداب ٤ : ١٠٤ (حاشية) . والمستعرب يوهان فك في كتابه العربية : ١٢٧ . إذ قال عنه : «ولقد كان حفيداً لجعفر الصادق ، وابناً لمحمد الديباجة الذي دعا لنفسه بالخلافة في مكة سنة : ٢٠٠هـ...» وليس الحماني بحفيد لجعفر الصادق . وبلغ الدكتور شوقي ضيف في العصر العباسي الثاني من تاريخ الأدب العربي : ٣٩٢ من اليقين أنه ابن محمد الديباجة بحيث نصّ على أن أسرة الديباجة انتقلت إلى الكوفة بعد وفاة ربِّها في خراسان . وأنّ أمه هي التي تولّت تثقيفه بمعاونة الأسرة . وكلُّ هذا محض خيالٍ .

(٤) خاص الخاص : ١٠١ .

(٥) نسمة السحر بذكر من تشيّع وشعر (مخ) ٢ : ١١٠ ظ ، أعيان الشيعة ١ : ٣٩٧ .



قوله مبالغةٌ أو ادّعاءً ؛ فقد وصل إلينا من شعر أبيه محمد بن جعفر مقطّعات[١] ، وعُرِف جدُّه جعفر بالشاعر[٢] . ولكن هذه البيئة لم تدفعه إلى أن يأخذ علمَ العربية في صباه عمَّن يعرفه في الكوفة ؛ إذ ظلَّ يشكو ضعفَ ملكتِه في النحو واللغة[٣] ، ويشكو رداءة خطِّه أيضاً[٤] ، فكان يضطره هذا الضعف أن يهجر معاني مليحةً تجيئه ؛ لأنه يشكُّ في لغتها وفي إعرابِها[٥] . ويمكن أن يكون من جملة أسباب ضعفه هذا فقدانُ الكوفةِ الحلقاتِ العلميَّةَ في عصرِه ؛ فنحنُ لا نعرفُ عالماً كبيراً عاش فيها خلال القرن الثالث .

حظي أبو شاعرنا محمد بن جعفر بمنزلةٍ كبيرةٍ في الكوفة[٦] ورثها عنه - على ما يبدو - ابنُه عليُّ الحمّانيّ ؛ إذ كان صاحبنا - كما يقول المسعوديُّ عن مكانته بين العلويين في الكوفة - «نقيبهم... وشاعرهم ، ومدرّسهم ، ولسانهم ، ولم يكن أحدٌ بالكوفة من آل عليِّ بن أبي طالبٍ يتقدَّمُه في ذلك الوقت»[٧] .

ومما يدلنا على هذه المكانة الرفيعة أنَّ صاحب الجيش الذي لقي يحيى بن عمر العلوي الثائر بالكوفة ، فقتله ، اهتمَّ بتخلّف شاعرنا عن السلام عليه ، وبتقاعسه عن لقائه في حين أنه «لم يتخلَّف عن سلامه أحدٌ من آل أبي طالب... فتفقَّده الحسنُ [يعني صاحب الجيش] وسأل عنه ، وبعث بجماعةٍ فأحضروه ؛ فأنكر الحسنُ تخلّفه ، فأجابه عليّ بن محمد بجواب آيسٍ من الحياة فقال :

---

(١) ينظر شعر أبيه - على سبيل المثال - في الوافي ٢ : ٢٩٥-٢٩٦ ، وديوان المعاني ٢ : ٦٦ ، ومحاضرات الأدباء ٣ : ٣٤٣ .

(٢) ينظر سمط النجوم العوالي ٤ : ٢٢٤ .

(٣) ينظر الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء : ٣٤٦ .

(٤) ينظر أدب الكتّاب ١ : ٥٢ .

(٥) ينظر الموشح : ٣٤٦ . ولا عبرة بدفاع الدكتور شوقي ضيف عن معرفته العربية في «العصر العباسي الثاني» من تاريخ الأدب العربي : ١٨٤ .

(٦) ينظر أخبار القضاة ٣ : ١٩١-١٩٢ .

(٧) مروج الذهب ٤ : ١٥١ .



أردتَ أن آتيك مهنّئاً بالفتح ، وداعياً بالظفرِ ؟ وأنشد شعراً لا يقوم على مثله من يرغب في الحياة... »[1] .

ولعلَّ الموفّق قد أدرك أن مثل هذه المنزلة مما يؤهله أن يجمع الأنصار وأن يثور بهم ؛ فحبسه مدّةً طويلةً[2] ، « لأمرٍ شُنع به عليه من أنه يريد الظهور »[3] ، ولم يطلِقه حتى كتب إليه :

قد كان جدُّك عبدُ الله خير أبٍ ... لا بنيْ عليٍّ حُسينِ الخيرِ والحسنِ
فالكفُّ يوهِنُ منها كلَّ أنمُلَةٍ ... ما كان من أختِها الأخرى من الوهَنِ[4]

فعادَ إلى الكوفة من حبسِه ، وظلَّ بها ـ على أغلب الظنِّ ـ إلى أن تُوفّيَ في سنة ٣٠١هـ على ما يُرجِّح المرحوم الشيخُ الأميني[5] ، وهو ترجيحٌ ينسجمُ ووقائع حياته .

شعرُه:

كان شعر الحماني مجموعاً في ديوانٍ بقي مُتداولاً حتى القرن التاسع ؛ فقد قال ابنُ عنبة المتوفّى سنة ٨٢٨هـ : « له ديوان مشهورٌ ، وشعرٌ مذكور »[6] ، وذكر إسماعيل باشا البغدادي هذا الديوان[7] ، ولا غرابة أن يبقى ديوانه متداولاً طيلة خمسة قرون ؛ فقد حظي شعره باهتمام معاصريه فكان له رواةٌ

---

(١) السابق ٤ : ١٥٠-١٥١ .
(٢) كتاب الفنون ٢ : ٦٩٧ .
(٣) المروج ٤ : ١٥١ .
(٤) نفسه .
(٥) الغدير ٣ : ٢٠١ ، وفي الكامل في التاريخ ٥ : ٣٧٣ ، والمروج ٤ : ١٥٢ أنه تُوفّي سنة ٢٦٠ ، وفي هدية العارفين ١ : ٦٧٢ أنه توفّي سنة ٢٤٥هـ . وتابع ابن الأثير والمسعودي أغلب من ترجم له من المعاصرين .
(٦) عمدة الطالب : ٣٠١ .
(٧) هدية العارفين ١ : ٦٧٢ .



نعرف منهم : أبا أحمد بن إسماعيل العلويّ ، وأحمد بن سليمان السريّ ، وأبا الباسانيّ ، ومحمد بن سليمان المنجّم فقد روى ابنُ أبي اليسر الرياضيّ شيئاً من شعره عن هؤلاء أثناء زيارته لبغداد التي امتدَّت إلى أيام خلافة الراضي (٣٢٢ ـ ٣٢٩هـ)[١] . ولكننا لا نعرف اليوم من أمر هذا الديوان شيئاً .

وشعرُ الحماني الذي وصل إلينا موزَّعٌ على أغراضٍ عديدةٍ منها : الشكوى ، والفخر ، والغزل ، والرثاء ، والإخوانيات ، والسياسة ، والعقيدة ، ولكن الاتّجاهين الأخيرين أغلبُ على شعرهِ ، حتى إنَّك لتجدُ العقيدة الشيعية الزيديّة غالبة حتى على بعض إخوانياته[٢] . ومن هنا رأينا العلويين يعتزّون بشعره ، ويرفعون من مكانته فيقول فيه الإمامُ عليُّ الهادي عليه السلام : إنَّه أشعرُ العرب[٣] ، ويقول فيه الناصر الأطروش : «لو جاز قراءة شعرٍ في الصلاة لكان شعر الحِمّاني»[٤] .

ولابدَّ أن يكون في أسباب اتّجاه الحماني إلى السياسة والعقيدة منزلتُه الكبيرةُ عند علويّي الكوفة مما يجعلُه مسؤولاً أن ينافح عن عقيدتهم ، ونسبُه العلويّ الكريم ، وتشيّعُه . زِدْ على ذلك ما اضطلعت به الكوفةُ من دور سياسيّ معارضٍ بارزٍ في هذا القرن ـ أعني الثالث ـ وقبلَه ؛ فقد شهدت خلال القرن الثالث وحده ما يقربُ من خمس ثوراتٍ كان آخرها ثورة القرامطة .

وشعر الحماني صدًى أمينٌ لعصرِه من الناحية الفنية فضلاً عن الناحية التاريخية ؛ فهو حافلٌ على غير إسرافٍ بمذهب «البديع» ابتداءً بالتشخيص

---

(١) ينظر كتابه تلقيح العقول (نسخة ليدن) ٤٢ ظ ، ٤٣ ظ ، ٤٥ ظ ، ٤٦ و .

(٢) تنظر على سبيل المثال المقطّعة رقم ١٢٠ في ديوانه .

(٣) تنظر قصة سؤال الخليفة المتوكّل إياه عن أشعر الشعراء وجوابه في تأريخ طبرستان ١ : ٢٥٥ ، والغدير ٣ : ٥٨ .

(٤) معالم العلماء : ١٥٠ . والناصر الأطروش هو الإمام الثالث عشر من أئمة الشيعة الزيدية . توفّي سنة ٣٠٤هـ .



وانتهاءً بحسنِ التعليل[١] . كما أنَّ ما شاع في عصرِه من تحلّلٍ من بعض قيود العربية موجود في شعره ابتداءً برفع الحال ، وانتهاء بتصريف الأفعال تصريفاً لا يرضى عنه أهل اللغة[٢] .

والثقافة الشعرية والأثرية التي حفل بها شعرُ القرن الثالث كان لها صدًى في شعره أيضاً ، ففي بعضه نجد تضميناً لأبيات مشهورة ، وفي بعضٍ آخر منه نرى اقتباساتٍ من الحديث النبويِّ الشريف . أما شيوع استعمال البحور النادرة الاستعمال ، والبحور القصيرة في شعر هذا القرن فقد وجد له مكاناً في شعره أيضاً ، فرأيناه ينظمُ في مجزوءات البحور ، وفي البحور القصيرة أصلاً[٣] .

والمهمَ هو أنني عُنيتُ ذاتَ يومٍ بهذا الشاعر الذي لا يكادُ يُشبِهه الآخرون من زملائه وصنعتُ له ديواناً إعجاباً بموقفِه السياسيِّ الواضح المُتميِّز في عصرِه . ورحمة الله على أبي فراسٍ الحَمْدانيِّ يوم قال :

وللناس فيما يعشقون مذاهبُ

---

(١) تنظر المقطّعة رقم : ٢٢ ، و٢٦ من ديوانه على سبيل التمثيل لا الحُصر .

(٢) ينظر البيت السادس من المقطعة رقم : ٢٧ ، والمقطعة : ٥٢ ، والبيت الثاني من المقطعة : ٩٧ .

(٣) ينظر على سبيل المثال المقطّعتان : ٦ ، ٢٢ .



كان جمالَ الدّنيا أيضاً

(في رحيل المبدع مصطفى جمال الدين)

لم يَرثِ شاعرٌ من شعراء العرب ـ في الأغلب الأعمِّ ـ عزيزاً عليه إلا تمنى لو أنّ الموت قَبِل أن يُفتدى الفقيد ففداه ، ويبدو لي أن ذلك لا يعبِّر عن مكانة الفقيد المرثيِّ فحسب ، وإنما يعبِّر أيضاً عن ميلٍ لانتقاء النوع الإنسانيِّ ، وعن حسٍّ فطريٍّ بضرورة هذا الانتقاء ؛ وإذا خفتَ من نيتشة ومن نظريته اللاإنسانية فقل ، إنه تعبيرٌ عن التشبث بكلِّ ما هو خيِّرٌ جميل في هذه الحياة ، وإلاّ فما معنى أن يُعَمَّر القتلة الجلاّدون وأن تقصر أعمارُ المبدعين ؟ وهل عليَّ أن أسرد قائمة أسماء القتلة المعمَّرين أم يكفي أن أترحَّم على الجنرال فرانكو وأن أسلِّم على الحبيب بو رقيبة ؟ ثم هل يكفي أن أذكر من المبدعين القصار الأعمار طرفة بن العبد والمتنبي وبدر شاكر السياب ؟

لم يكن مصطفى جمال الدين من هؤلاء القصيري الأعمار ، ولكن كان أقصرَهم عمراً ؛ لأنه أنفق جُلَّ عمره ـ وهو المبدع المبدع ـ في ملاحقة هموم الآخرين وفي تبديدها ، فإن لم يستطع ففي التخفيف منها ؛ ولقد بلغ من حبِّ الآخرين ومن الولع بالتخفيف عنهم مبلغاً جعلني أهرب من مساكنته في فندق مصطفى بشارع الجمهورية من بغداد سنة : ١٩٧٤ ـ وكنّا يومذاك زميلين في دراسة الدكتوراه بجامعة بغداد ـ طلباً للنوم لا للراحة ؛ إذ كان طلبُ الراحة برفقة الفقيد المصطفى ضرباً من الطموح بتداول السلطة السلميِّ في البلاد



العربية . أقول هذا لأنَّ غرفة الفندق كانت مضيفاً لذوي الحوائج يؤمُّونه من كلِّ اتجاهات العراق ، ولم تكن طلبات بعضهم على قدر مكانة الفقيد ، ولكنَّ ضميره لم يكن يجرؤ أن يردَّ أحداً حتى وهو يبتسم من فهاهة تلك الطلبات ، بل حتى وهو يتندر بها أمامي فنضحك . ولطالما سألته عن سرِّ استجابته لها وترحابه بها إذاً ؟ فلم أسمع منه سوى جملته الخالدة :

ـ لا ، يخوية ذولة مساكين ، منو إلهم ؟ (بمعنى : أن مَن لهؤلاء المساكين ؟) .

ولقد كان من هؤلاء المساكين من لم يطلب منه فيتبرَّع هو ببذل جاهه من أجلهم ، ولقد كنتُ أنا واحداً منهم في أكثر من مرَّة ، بل كان منهم من لا يعلم حتى اليوم بما بذل المصطفى أبو إبراهيم من أجله .

لم أكن أريد ـ ولا أريد ـ أن أتحدث عن هذا الجانب الإنسانيِّ فيه ؛ ولكنني أردتُ الإشادة به ؛ لأنني لم أقرأ في مراثي الذين رأيتُ مراثيهم مَن مَرَّ به أو توقَّف عنده . وأردتُ أيضاً توكيد ما أشرتُ إليه من قصر عمره الفنيِّ ؛ إذ لم تكن موهبة الراحل مصطفى جمال الدين من الطراز الذي يرضى بما صدر له ، فجمعه فيما أسماه : «الديوان» وحده لولا أنه شاء لها ذلك بما أراق من وقته فيما تحدَّثتُ عنه ، وبما أهمل من طبع بعض شعرهِ انسجاماً مع خُلُقه الرفيع في ألاّ ينشر ما كان يظنُّ أنه يسيء إلى الآخرين أو يَنتقص من أقدارهم . فللفقيد من الشعر الإخوانيِّ ما لا يبلغه شعرُ الشعراء الجادِّين من أمثاله ، حتى لكأنه كان ينفِّس عن تمرُّدِه بمثل هذا الشعر .

وقلتُ : ينفِّسُ ؛ لأنه ربَّما ـ لا أدري ولا أجزم ـ لم يكن يستطيعُ بما له من مكانة دينية رفيعة جداً ـ ومصطفى هو المرجعُ الأعلى للشيعة الأخباريِّين ـ أن يجاهر جاداً بما يرى ، وإن كنتُ أعتقدُ جازماً أن جرأة مصطفى ، وشجاعته في إبداء رأيه مَثَلان يكادان يكونان نادرين .



ومن يقرأ مقدِّمة ديوان الفقيد التي أرَّخ بها لمدينتيه : سوق الشيوخ والنجف ، ولنفسِهِ يجدْ حديثَه عن اعتزازه بما أسماه شعرَه الإخوانيَّ ، واعتذارَه عن إهمالِه حديثاً كان يودُّ معه لو أثبته لولا ما كان يراه من محاذير . أمّا وقد أصبح أبو إبراهيم في ذمَّة التاريخ فأخرِ بمحاذيره تلك أن تكون في ذمة التاريخ أيضاً . ومن هنا أريد أن أبيح لنفسي أن أسرد ما اطَّلعتُ عليه من إخوانياته وما كنتُ طرفاً فيه فأقول :

يوم بلغَ سمعي - وأنا في النجف الأشرف - اسمُ مصطفى جمال الدين بَلَغَهُ لأنه صاحبُ :

بغدادُ ما اشتبكتْ عليك الأعصرُ إلاّ ذوتْ ووريقُ عمرِكِ أخضرُ

لم أكن أعرف الفقيد يومذاك إلاّ اسماً ؛ إذ لم تكن سنّي تؤهِّلني أن ألقى مثلَه ، وإذ عرفتُهُ عرفت أنّه كان قد نظم قصيدتَه تلك عامَ احتفالِ الزعيم عبد الكريم قاسم بعيد ميلاد بغداد الألفي ؛ وحدَّثني أنه كان ينوي المشاركة بها في الاحتفال ، وأنه قدَّمها للجنة الاحتفال الأدبية برئاسة الدكتور ناجي الأصيل ، وكان قد تقدَّم معه بقصيدة أيضاً صديقُهُ الأستاذ الشاعر محمد الهجري - والأستاذ محمد الهجري ممن أقول بفخرٍ واعتزازٍ أنني تلمذتُ له في دراستي الابتدائيَّة - وفوجئ الاثنان معاً برأي الدكتور الأصيل في أن قصيدتيهما لا تصلحان ؛ فما كان من أبي إبراهيم إلاّ أن قال بيتاً مفرداً هو بمفردِهِ قصيدةٌ في سخريته المرّة :

الخزيُ والعارُ يا ناجي الأصيلُ لكمْ والخزيُ والعارُ يا ناجي الأصيلُ لنا

وكان شعار : «الخزي والعار لـ...» يومذاك من أكثر الشعارات شيوعاً في الشارع السياسي العراقي .

وتحيَّن مصطفى الفرصة السانحة فألقى قصيدة «بغداد» في مؤتمر الأدباء الذي انعقد في بغداد - إذا صدقتِ الذاكرة - عام ١٩٦٥ فعُرف بها ؛ بل قُل :



إنَّ المؤتمر برمَّته عُرِف بمصطفى وقصيدتِه ؛ فقد كان جمال الدين ـ والجواهري الكبير في منفاه ببراغ ـ فارسَ الحلبة التي لا تطمحُ الخيولُ أن تبلغ غبارَهُ .

وجمال الدين ـ كما قدَّم نفسَه ـ في مقدِّمة الديوان عربيٌ إسلاميٌ يؤمن أبعد ما يكون الإيمان بالديمقراطية ؛ وكان من إيمانه هذا أن كان مشاركاً بشعره في المنبر الذي نصبه زعماءُ الشيعة لأنفسهم من خلال الاحتفالِ بميلاد سيد الشهداء الإمام الحسين بن عليّ في مدينة النجفِ ، وبميلاد الإمام علي بن أبي طالب في مدينة كربلاء لعرض مطالبهم السياسية ، ووجهاتِ نظرهم في حكم الشهيد الخالد الزعيم عبد الكريم قاسم ولكن لم يكن جميعُ الشعراء المشاركين من طراز الراحل جمال الدين ، وإنما كان يشارك في هذا الاحتفال شعراء ضِعافُ المواهب منهم على سبيل المثال المرحوم الشيخ عبد الغني الخضري .

وألقى المرحومُ الخضريُّ في إحدى المرات قصيدةً باردةً كأغلب قصائده ، وكانت من بحر الوافر رويُّها الدالُ المضمومةُ ، وقافيتها على زِنَةِ « فعيل ، وفعول » من قبيل : عميدُ ، وعتيدُ ، وعقيدُ ، وقعودُ ، وسجودُ ، وهلمَّ جراً مما يأتي في هذه القافية عند النُظّامين ، فكانت هذه القصيدة فرصة مصطفى في السخرية لا من مستوى الشعر وحدَه ، وإنما من الحال برمَّتها ، فكان أن تسلَّم أدباءُ النجف رسالة على الآلة الكاتبة لم يكن فيها إلاّ بيتانِ غُفلانِ من التوقيعِ هما :

أيا عبد الغنيِّ نَظَمتَ شعراً ... قوافيهِ خنافيسٌ وَدُودُ
ولولا الخوفُ من ذكرى عليٍّ ... لَبالَ على « سماحتِكمْ » يزيدُ

وتناشد أدباءُ النجف البيتين منسوبين إلى مصطفى جمال الدين ؛ فلم يكن يغيبُ عن ذوق أحدٍ منهم نَفَسُ الراحل في الشعر وفي السخرية ، وهل يخفى القمر ؟

وسخِرَ أبو إبراهيم مرَّةً أخرى في هذه المناسبة نفسها من نَظّامٍ اسمُه الشيخ عبد الحسين الدارمي سخريةً قاسيةً مُرَّةً .



وقد كان هذا الشيخُ قد ألقى منظومةً تكون قصيدةُ الشيخ الخضري إلى جنبها معلَّقةً ، فلم يكتفِ بأن ألقى ، وإنما طبع منظومتَه الباردة في كتيِّبٍ . ولم يكتفِ بأن طبعَ ، وإنما كان يُعلِّقُ وراء بعض المقاطع ـ وكأنه النزيه الأمين مؤرِّخاً ـ يروي للقاريء ما كان من استقبال الحفل لقصيدتِه أثناء إلقائها ، كأن يقول وراء المقطع الأول من منظومتِه : « تصفيق » ويقول وراء المقطع الثاني : « تصفيق واستحسان » ووراء الثالث : « استحسان واستعادة » وهكذا ، وقرأ مصطفى الكتيِّب فابتدأ يقول ، وشاركه أصدقاؤه في القول ، فقال قصيدةً لم يَبق في ذهني حين رواها لي إلاّ ثلاثة أبيات هي :

سلامٌ على شيخِنا الدَّارمي ... على الزاهدِ الوَرِعِ العَالِمِ
سلامٌ على « حِثْلِهِ » العبقريِّ ... يَضُمُّ جميعَ « خَرا » الوَادِمِ
و« عِلباتُهُ تَخْتَةٌ » للكَبابِ ... تدقُّ عليها « نَنَا فاتِمِ »

و« ننا فاتم » فارسيةٌ تعني بالعربية : أم فاطمة . أما « الحِثلُ » فهو يعني في لهجة العراقيين : البطن المنتفخُ الواسعُ ، والوادم : الناسُ .

وإذا كنتُ متأكِّداً من نسبة البيتين الأولين إلى الفقيد الراحل فأنا في شكٍّ من نسبة الثالث إليه ، فلعلَّه ـ كما تصيحُ بي الذاكرة ـ للشاعر صالح الظالميّ .

ودُعيَ مصطفى إلى مؤتمر الأدباء العرب الذي انعقد في بغداد خلال شهر نيسان من عام ١٩٦٩ ، فألقى فيه قصيدتَه :

لَمْلِمْ جراحَكَ ، واعصِفْ أيها الثارُ ... ما بعدَ عارِ حزيرانٍ لنا عارُ

وكان على المدعوِّين أن يذهبوا إلى دهليز في القصر الجمهوريّ ضيّقٍ ينتهي إلى غرفةٍ واسعة عليها طاولةٌ وسِجِلٌ يسمونه « سجلّ التشريفات » وكانت أمام الراحل ـ وهو ينتظر دوره في الإمضاء ـ الشاعرةُ المصريَّةُ رَوْحيَّة القليني ـ وروحية ممن يضيق عنهنَّ مقاسُ (XXL) ، أما ردفاها فهما أحسنُ ما أنجبت



مصرُ الشقيقةُ من دعاية متنقِّلةٍ لأهرامها الخالدة ، وضَجِر مصطفى من انتظار شيءٍ كهذا ؛ فقال بيتاً يتيماً هو :

رَوْحِيَّـةُ إذ وقـفتْ تُمـضي ... وقــفتْ بالطُولِ وبالعـرضِ

وتبقى دُرَّةُ سخريتِه يوم استشار صديقه المرحوم الشاعر الرقيق صادق القاموسي (أبا رشاد) في زيارة لبنان وكان الفقيدُ يزمع زيارتَها لأوّل مرَّة ، فنصحه بالسكن في فندق رويال ، وإذ عمل بنصيحته اكتشف أن أبا رشاد قد نصحَه أن يصطاف في النجف نفسها ؛ لأنَّ فندق رويال كان ملتقى رجال الدين الشيعة من نجفيين ، ولبنانيّين ، وكان معنى ذلك عنده أن يصطاف في النجف مُتحمِلاً فوق ذلك تذكرةَ سفرٍ إلى لبنانَ ومصاريفَ إقامةٍ فيها ، وكان أول ما صدمه شيئان هما روعةُ طبيعة لبنان ، ونكاتُ الشيخ عبد الغني الخضري الذي سبقه إليها (ويكنى الشيخ عبد الغني بأبي طاهر) ، وهي عنده نكاتٌ باردةٌ مثل منظوماته ، فكتبَ إلى المرحوم صادق القاموسي بطاقةً بريديةً يقول فيها :

يا أبا أرشدٍ ، ولولا نُكاتُ أبي طا ... هرِ تنصبُ كـالعذابِ بأُذني

لتخـيّلتُ أنّني مُـؤمنٌ مـا ... ت ، وهذي الهضابُ جنَّاتُ عَدْنِ

ومرّ به الصيفُ ـ وهو في فندق رويال ـ وقد أدركه عيدُ الوردِ وصباياه اللاتي يحملنه يَطُفن به في الشوارع ، وهو محاصرٌ بكلِّ مشايخ النجف المصطافين في الفندق .

أما مصطفى فكان محاصراً برغبته في رؤية هذا العيد الجديد عليه وما ينبيء عنه من جمال ، فخرج يَرى الصبايا الجميلات منكمشاً في سيارة جلس فيها بحيث يَرى ولا يُرى فلم يبرحها ، فكان صديقه أبو رشاد القاموسي الذي حرمه من كلِّ هذا الجمال ، ففرضَ عليه أن يرى الجَمالَ متستِّراً نُصبَ عينيه ، فكتب إليه ما كتب مما بقي في ذاكرتي . وأقول : مما بقي في ذاكرتي لأنَّ تنقُّلاتِ من هو مثلي بين مدن الله الضيقة الواسعة قد أضاعتِ الكثير مما أعتز به

ومنه هذا الذي أريد أن أرويه على أنه دُرَّة الفقيد في إخوانياته ؛ فقد سجَّلتُ الحادثة برمَّتها على شريط تسجيلٍ بصوته يوم شرَّفني بزيارته لي في الجزائر - بعد أن خرج من مُعتقلِه في الكويت - وضاعَ مني الشريط وأنا أُغادرُ الجزائر . ونسيتُ أن أقول إنَّ مصطفى رأى حاملات الورد في لبنان وهنَّ يرتدين البنطلونات ، وكان لبس النساء البنطلونات يومذاك دُرجَةً لم يألفها العالم العربيُّ فما بالك بسوق الشيوخ والنجف ؟ وكتب مصطفى إلى صديقه القاموسي يصفُ له ما يراهُ ويعاتبه على ما أشارَ به :

فجرَ عَالَيه في جبينكِ إشر ... اقُ ، ولفحُ الصحراءِ في البنطلونِ
خَبِّريني أعن يَسارك قد خَب ... ـباتِ سرَّ اللهيبِ أم في اليمينِ
خَبِّريني ، ولا تخافي ، فأيًا ... رُكِ في مأمنٍ لدى تشرين

إلى أن يقول :

لو تراني ، وشمُّ لبنانَ طارت ... بي ، ورويالُ مَركبي وسفيني
حاملاً بينَ حاملي الوردِ رأساً ... صَدَقَ اللهُ إنَّهُ من طين
وعيوناً لو أبدلونيَ عنها ... بـ«الصلابيخِ» لم أقلْ : ظلموني
فمتى يكرهُ العمايةَ طرفٌ ... لا يرى غير كالحِ الغُضُونِ
وأنا حوليَ المشايخُ من لبـ ... ـنان ، من أردبيلَ ، من قزوينِ
عن يميني عبدُ الغنيِّ ، وعن يسـ ... ـرايَ واغربتاهُ شمسُ الدِّينِ
فأحلنا لبنانَ وهي خدودٌ ... من جَحِيمٍ جُنينَةً من ذُقونِ
وتراءتْ «بچشمِ ما» صورةُ «الشَّيلةِ» بَهْتَرْ أز بي حيا البنطرون»

ومعنى البيت الأخير - وهو مزيج من الفارسية ، والعامية العراقية - أنه تراءت بعيني صورةُ «الشيلة» وهي ما تغطي به العراقية رأسها وصدرها - أحسن من البنطلون الذي لا يستحي .

ثم ختمها بقوله يخاطبُ صديقَهُ القاموسي الذي أشار عليه بفندق رويال :



وانتظاراً أبا رشادِ لهجوي   كيفَ «قَشْمَرتني» بها يا دوني ؟

ورنَّ تلفوني في الجزائر ، فكان على الخطِّ مصطفى جمال الدين ؛ فاستغربتُ لأنني توهَّمتُ أنه يكلمني من النجف ، ولكنني اكتشفتُ أنه يكلِّمني من لندن ، وأنه هجر العراق بعد أن خشي على كرامته من أن تُمتهَن باتخاذ موقفٍ لا يرضاهُ لنفسه . كان يريد أن يُبدِّدَ وحشة الغربة ـ لاسيَّما أنه ترك زوجته الفاضلة السيِّدة أمّ حسن وصغارها في العراق ـ ولا أذكر الآن إن كان هو الذي أخبرني برغبته في زيارتي أم أنني عرضتُ عليه . وأيّاً كان الأمرُ فقد استقبلتُ أبا إبراهيم في شهر أيار بالجزائر ، وكان من الطبيعي أن نتساكن هذه المرَّة أيضاً ـ ولكن لا في فندق مصطفى بشارع الجمهورية من بغداد ـ وإنما في شقتي المرقَّمة ٤٦١ في البناية ٤ ب ٦ بحيِّ الأسفوديل من محلة ابن عكنون في أبيار الجزائر . وكان أول ما أدهشَهُ في هذه الزيارة أن رأى صديقة لي جميلةً كان اسمُها سامية .

وسكتَ مصطفى إزاء هذه الدَّهشة مبتسماً ، وكنتُ موقناً جرّاء معرفتي به أنَّ وراء هذه الابتسامة شيئاً ، وزادَ من يقيني في أنَّ وراء ابتسامة مصطفى شيئاً لا بدَّ واقعٌ هو استغراقه في الحديث معها ، وانسجامُه في محادثتها ؛ فوطَّنتُ نفسي لما يقول ، فكان أن فاجأني ذات يومٍ بأُرجوزةٍ يقول فيها :

سامـيـةُ يا حلوةَ العينين
يا باقـةَ الوردِ على رُديني
يا شعرها المائجَ في الكِتْفينِ
لو دُسَّ والحريرَ خصلتينِ
لاخشوشنَ الحريرُ في اليدينِ
وثغرها الضاحكَ باللُّجين
يرفُضُ عن لئالىءِ البحرين



وصدرَها الراقصَ بالنهدينِ

كأنه القصيدُ ذو الشطرينِ

أفديكِ يا ناعمةَ الخدَّينِ

بالحسنِ الثَّاني وبالحسين

وبالقسيَاديِّينَ في القُطرينِ

وبالسلاطين ذوي الوجهينِ

من تونس الخضرا إلى البحرين

وسمعتُ الأرجوزة ـ وهو يمليها على سامية حتى إنني أحتفظ بصورتها الأولى وهي بخطها ـ وحمدتُ الله أن ليس فيها شيءُ من سخريةٍ إلاَّ سخريته بالسلاطين ذوي الوجهين ، وضحكتُ معه وهو يضحك من هؤلاء السلاطين فرحاً بنجاتي من لسانه حتى لقد تعبنا من الضحك ـ ولكن فرحتي بالنجاة لم تَدُم طويلاً ؛ فقد وصلت إليَّ رسالةٌ منه وقد وصل إلى الكويت تقول :

«بسمه تعالى

أخي أبا عليٍ سلامُ الله عليك

وصلتُ الكويت وحاولتُ جهدي أن أتصل بك تلفونياً ولكني لم أستطع ، سأحاول مرة أخرى ، وعندما أريد السفر إلى الخارج حتى أخبركم باتجاهي .

الإخوان هنا يسلمون عليك .

أضفتُ وأنا في الطائرة بعضَ التعديلات على الأرجوزة . أرجو أن تُصلح النسخة التي عندك :

سامِيةٌ يا . . . .

يا باقةَ الورد على رديني

يا شعرها المائجَ في الكتفين

لو صُفَّ والحريرَ خِصلتين



لاخشوشن الحريرُ في اليدين
وثغرَها المُفترَّ باللُّجين
لو نطقت يوماً بكِلمتينِ
لانفلقت لئالي، البحرينِ
وصدرَها الراقصَ بالنهدينِ
كأنَّهُ قصيدةُ الشطرينِ
لحَّنها الموجيُ مرَّتينِ
أفديك يا . . . .
بالحسنِ . . . .»

وكانت سامية سعيدة بالصورة الجديدة للأرجوزة ، والغواني - كما يقول أحمد شوقي - يغرهنَّ الثناءُ ، وكنتُ أقول لها :

- لم يزدَد مصطفى في أرجوزته إعجاباً بك ، وإنما لكي يُجوِّدَ فنَّه ولكي يستكمل ما منعه منه حَرَجُ الضيف ، فدعينا نكمل القراءة لكي أرى ما طاح به حظّي .

واستأنفتُ قراءة الرسالة فوجدتُه يقول :

أقسِمُ بالله بغيرِ مَينِ
لو أنَّ (مولانا) أبا الحُسينِ (أظنُّ أنه الوالد)
رآكِ لانشقَّ إلى نِصفينِ [وكان والدي رحمه الله بديناً]
وعَبْدَ الله على حَرفينِ
مُعلَّقاً في القلبِ صُورتينِ
صورتَها وصورةَ الـ . . . .»

وترك البيت الأخير كما أثبتُّه خيفة الرقابة الكويتية ؛ فقد كان يعني - كما هو واضحٌ - صورة الخميني الذي كان قد بلغ إعجابُ الناس به يومذاك منتهاه .



وضحكتُ من رسالة مصطفى ، بل قُل : ضحكتُ وأنا مُعجَبٌ بتعديلاته ؛ لأنَّ للشعر على النفوس حقّاً وسلطاناً .

وشاعت الأرجوزة حتى أنني ما التقيتُ أحداً بعدها ممن يحب الشعر إلاّ واجهني بها وبسؤالي عن ظروفها ، وكنتُ أعجبُ من اتفاقِهم جميعاً في أنه كتبها في خادمةٍ كانت لي جزائرية . وإذ كان الفقيدُ يعرِف كثيراً من ضيق أُفقِ العَربِ كان ، وهو يرويها زاعِماً أنَّها في خادمةٍ لي ، لا يريد أن يقع في مظنَّة التشهير بصديقه . وكان هذا من حاقِّ خُلقِ الفقيدِ ومن إجلاله شأن إخوانه . ولكنَّه نسي مع هذا ـ بسببٍ من ضيق المجتمع ، ونفاقه ـ أنَّ نِسبة صديقةٍ إليَّ أشرفُ وأكرمُ ألفَ مَرَّةٍ من أن أُنسَبَ إلى استخدامِ أحدٍ ذكراً كان أو أنثى .

وكان في جزيرة السندباد يحضر مهرجان المربد أوائل السبعينيات ، وجاءته بصريَّةٌ جميلةٌ خضراء العَينين معجَبةٌ بشعره ـ وكانت ترتدي ثوباً أسودَ ـ تطلبُ منه أن يكتب لها شيئاً على نسختها من مجموعته الشعرية « عيناك واللحنُ القديم » فكتب أربعة أبيات :

أرسلتْ لي عيناكِ إذ نحن كنا ... ضيفها في جزيرةِ السندبادِ
طائراً أخضر المواعيدِ لا أعـ ... ـرفُ كيفَ ارتدى ثياب حِداد
فتلقَّفتُه بعينيَّ أبني ... عُشَّهُ بين هُدبها والسوادِ
ثمَّ فرَّ العصفورُ لم يُبقِ إلاَّ ... ريشةً من جناحِهِ في سهادي

كان مصطفى يحفظُ غيبَ أخيه ، فهل تراني حفظتُ غيبه فيما كتبتُ ؟ كنتُ سأكون ممن ضيَّع غيب أخيه لو كان أبو إبراهيم أخاً فحسب ، ولكنَّه ملكٌ للتاريخ ولأجيال العراقيين الذين سيحتفون بذكراه جيلاً بعد جيلٍ باعتباره واحداً من ألمع شعراء العرب الذين لم يبيعوا ضمائرهم في عصرٍ لم يكن فيه شيءٌ أرخصَ من ضمير الأديب العربي .

ولكم كان الشريف الرضيّ صائباً يوم قال :



سيبكي الزمانُ طويلاً عليكَ   فقد كنتَ خِفَّةَ روح الزمانِ

وكان مصطفى خِفَّةَ روح الزمان فيما جَمَّل به الحياة من شعرِه ، وفيما داعبَ به أصدقاءه وإخوانه وفيما عاناه في حياة المنفى من أجل أن تكون حياة العراقيين أجمل ، ومن أجل أن يكون غدهم مشرقاً سعيداً جميلاً .

كانت حياة مصطفى جمال الدين جمالَ الدنيا ، وليس الدين وحده .

بوزنان : ١٩٩٧/٢/١٢



أستاذان كبيران

أبو بكر الخوارزمي

علي جواد الطاهر




مكتبة
الفكر
الجديد

أبو بكر الخوارزمي

و«الأمثال المولَّدة»

كثيرون هم الذين أرّخوا لحياة الخوارزمي من المعاصرين ، فقد أرّخ له ـ على سبيل المثال ـ كارل بروكلمان في «تاريخ الأدب العربي» وجرجي زيدان في «تاريخ آداب اللغة العربية» ؛ والدكتور محمد مهدي البصير ـ رحمه الله ـ في «في الأدب العباسي» والدكتور شوقي ضيف في «الفن ومذاهبه في النثر العربي» ، والدكتور مصطفى الشكعة في «بديع الزمان الهمذاني» وأرخ له سوى أولئك آخرون . ولكن أحداً ممن ذكرت لم يتجاوز في ترجمته الصورةَ التي رسمتها له المصادرُ العربية ، وهي صورةٌ إن لم تكن غامضةً فهي أقربُ ما تكون إلى الغموض .

ولقد أعلمُ أن السيد محمود صالح الضَّمَور قد كتب عنه رسالة ماجستير تقدّم بها إلى كلية الآداب من جامعة بغداد في السبعينيّات ، ولكنني لم أقرأ الرسالة في حينها ، ولم يتهيأ لي الاطلاعُ عليها بعد ذلك الحين . والمظنونُ في رسالةٍ جامعية أن تكون جَلَتْ صورتَه ، وأنارت الجوانب الغامضة من حياته ، ولكنني لم أطلع ـ كما قلت ـ عليها ، ولو كنت فعلت ، لربما كانت أغنتني عن البحث في حياته . مما يضطرني أن أباشر هذه الحياة بنفسي فأقول :

هو أبو بكر محمد بن العباس الخُوارزمي ، لم يَرقَ أحد المصادر أن يذكر



اسم جده الأدنى . ولد لأسرة فارسية في سنة ٣٢٣هـ* . أما مكان ولادته ففيه حديثان ، أولهما ما قاله بعض من أرخوا لحياته من القدماء ، وثانيهما ما قاله هو نفسه في رسائله . فأما الذي قاله بعض مؤرخيه ، فهو أنه ولد في طبرستان ، وخصص بعضهم هذا الميلاد فقال : إنه كان في مدينة آمُل من طبرستان ، ثم استشهد بما نسبه إلى الخوارزميّ نفسه من قوله :

بآمُلَ مولدي وبنو جريرٍ فأخوالي ويحكي المرءُ خالَهُ[1]

وأما حديثهُ هو فشيءٌ آخر ، إذ وجدناه يقول في رسائله عن خوارزم : إنها عشُّه الذي فيه درَج ، وبيته الذي منه خرج ، وإنها مقطع سُرّتِهِ[2] .

والآن ، أيَّ الحديثين نقبل ؟ أنقبل حديثَ بعض مؤرخيه مشفوعاً بشعره أم حديث رسائله ؟ ويغلب على ظني أن ما قاله عن خُوارزم في رسائله من أنها مكان مولده أصدقُ ، وأقربُ إلى الحقيقة التاريخية ؛ فليس قليل الدلالة أن يفتتح الثعالبيّ باب فضلاء خوارزم من «يتيمة الدهر» به ، ثم لا يكتفي بذلك ، فيشفعه بقوله : «أصله من طبرستان ، ومولده ومنشؤه خوارزم»[3] . وقول الثعالبي أصدق من سواه ، إذ ليس هو من معاصريه فحسب ، وإنما هو من مُلازميه الذين يعرفونه ، وتلاميذه الذين يُشافهونه ، سمع منه ، وأخذ عنه ، وقرأ عليه .

وتقول : ما الشأن في قوله الذي سبق : «بآمل مولدي...» ؟ فأقول : إن الذي يغلب على ظني أن البيت موضوع على أبي بكر منسوبٌ إليه ، لا لضعف تركيبه النحوي في قوله : «... وبنو جريرٍ فأخوالي» إذ أنه ليس من موجب لهذه

---

* مما نص عليه المرحوم زكي المبارك في النثر الفني ٢ : ٢٦٠ أنه لا يعرف سنة ولادته .

(١) معجم البلدان ١ : ٧٥ ؛ وينظر الوافي بالوفيات ٢ : ١٩٥ . ولم يتطرق المعاصرون السالفو الذكر إلى هذا النص .

(٢) ينظر رسائل الخوارزمي : ٢٢٩ .

(٣) اليتيمة ٤ : ٢٠٤ .



الفاء ، إلا أن تكون زينةً وإنما لشيء آخر ؛ هو أن واضع البيت لم يكن يريد أن يقرر مكان مولده ، وإنما كان يريد تقرير مذهبه ليصل من ورائه إلى تقرير مذهب محمد بن جرير الطبري ، فقد ورد بعده :

فها أنا رافضيٌّ عن تُراثٍ   وغيري رافضيٌّ عن كَلالَهْ

ولستُ أستبعد أن يكون أحد الحنابلة هو الذي نحل أبا بكرٍ هذين البيتين ، ونسبهما إليه ، غرضُه من ذلك أن يُثبتَ دعوى الحنابلة على الطبري أنه شيعيّ . أما صلة أبي بكر به ؛ فقد درجت المصادر أن تقول عنه : إنه ابن أخت الطبري صاحب التاريخ والتفسير[1] . وإذاً ، فليس أبلغَ في إثبات الدعوى من أن يشهد ابنُ أختِه على صحتها ، فليس أحدٌ أعلمَ من أبي بكرٍ بمذهب خاله ؛ وذلك أنه كان للطبري « ..مذهبٌ في الفقه اختاره لنفسه »[2] ، ولم يكن الحنابلة ـ بوجه خاص ـ ليرضَوا عن هذا المذهب ، حتى إنه يوم تُوفي ـ وهو ما هو عِلماً وتديُّناً ـ « دُفن ليلاً خوفاً من العامة »[3] . ومن هنا كان من مصلحة ذلك الحنبلي أن يضع ذَينِكَ البيتين ـ كما قلتُ ـ على لسان أبي بكر ، ولما لم يكن يعرف مكان ولادة أبي بكر ، فقد قاسَه على مكانِ ميلاد خاله ، إذ أن الطبريَّ من مواليد آمُل[4] .

وتسألني عما جعلني أظن هذا الظن فأقول : إنه لو كان أبو بكر قالهما لَمَا نعتَ نفسه بالرافضيّ ؛ وذلك أن أبا بكر شيعيٌّ إمامي[5] ، وأن الزيدية هم أولُ

---

(١) ينظر الأنساب ٥ ، ١٩٤ ، ووفيات الأعيان ٤ ، ١٩٢ ، وبغية الوعاة ١ ، ١٢٥ ، وشذرات الذهب ٣ ، ١٠٥ . وتابع هذا القول من المعاصرين مصطفى الشكعة في بديع الزمان ، ٨٢ ، وشوقي ضيف في الفن ومذاهبه في النثر العربي ، ٢٣٠ ، وبروكلمان في تاريخ الأدب العربي ٢ : ١١٠ ، وزيدان في تاريخ آداب اللغة العربية ١ ، ٥٨٢ .

(٢) الفهرست ، ٢٩١ .

(٣) معجم الأدباء ١٨ ، ٤٠ . وينظر العيون والحدائق ق ١ ، ٤ ، ٢١٩-٢٢٠ .

(٤) ينظر معجم البلدان ١ ، ٥٧ ، والوفيات ٤ ، ١٩٢ .

(٥) ينظر كتابه إلى جماعة الشيعة في نيسابور في رسائله : ١٦٠-١٧٢ .



من استحدثَ مصطلح الرفض يُطلقونه على خصومهم من الشيعة الإمامية ، ثم لما تقادم الزمن بالمصطلح ونُسي أصلُه ، صار الآخرون من أتباع الفرق الإسلامية الأخرى ينبِزون به الشيعة بصورة عامة . أفيظنُّ أحدٌ ـ بعد ذلك ـ أن ينبِز أبو بكر نفسه بأنه رافضيٌّ دون أن يستفزّه أحدٌ أو يُناظره مُناظر ؟

هذه واحدةٌ ، وأما الثانية فهي أنه لم يرد ذكرٌ في رسائل الخوارزمي ، أو في أحد كتب تلميذه الثعالبيّ عن شيء من خؤولة محمد بن جرير الطبري لأبي بكر ، على الرُّغم من أن مثل هذه الخؤولة من شأنها أن تكون مدعاةَ فخر عند أبي بكر وعند سواه ، مما يجعلني أقرر أن في نفسي شيئاً من أمر هذه الخؤولة أريد أن أجلوه فأقول :

معروفٌ أن الطبري ولد سنة ٢٢٤هـ ، فإذا افترضنا أن أختَه المزعومة ـ التي هي أمُّ أبي بكر ـ تصغرُه بأربعين سنة ، ـ وهو احتمال ضعيف جداً ـ فمعنى هذا أنها وُلدت سنة ٢٦٤هـ ، وأنها بلغت سنّ اليأس ـ وهي في الخمسين من عمرها وليس في الخامسة والأربعين ـ سنة ٣١٤هـ ، أي ؛ قبل أن يولد أبو بكر بتسع سنوات ، فإذا جارينا المؤرخين في إصرارهم على أن أمَّ صاحبنا هي أختُ الطبري قلنا ؛ إنها ولدته وعمرها تسعٌ وخمسون سنة على افتراض أنه ولدها البكر إن لم يكن عمرها ستين ، فأي عاقل يقبل هذا ؟! فإذا افترضنا أنها أختُ الطبري من أمٍّ أخرى ، وأن جرير بن يزيد ـ أبا الطبري ـ قد تزوج زواجه الأول وهو في العشرين من عمره ، ثم تزوج زواجه الآخر الذي أنجب منه أمّ الخوارزمي ، فمعنى ذلك أنه يكون قد أنجبها وله من العمر أربعٌ وتسعون سنة ـ هذا إذا تزوجت وهي ابنة تسعٍ وعشرين ـ ، أو أنجبها وقد جاوز المائة إذا كانت قد تزوجت وهي ابنة عشرين أو تزيد قليلاً ، فأيُّ عاقل يقبل هذا ؟!

وإذاً ، فليس من المعقول أن يستغفل الناسَ أبو بكر ببيتين يزعم فيهما أن الطبريَّ خالُه ، وأنه ورث التشيُّعَ عنه ، ثم يُعرض عن لفظ التشيع الى



الرفض ، ثم لا يكون عنده أو عند تلميذه الثعالبي شيء من هذا أو مما هو قريبٌ منه .

وإذا صح هذا الذي قررته ، فمعناه أنني أنفي عنه هذه الخؤولة ، فلم يكن أبو بكر ابناً لأختٍ من أخواتِ محمد بن جرير الطبري .

وإذاً فقد ولد في خوارزم لعائلة أصلها من طبرستان ، فكان يُلقِّب نفسه بالطبري مرة[1] ، وبالطبري الخوارزمي مرة أخرى[2] ، وجمع له بعضُهم في عصره - على ما يظهر - نِسبتَيْن في لقبٍ واحد على سبيل النحت فلُقِّب بالطبرْخزي[3] . ولكن بقي الخوارزمي لقبه الأشهرَ الذي به يُعرف[4] .

وينبغي لي أن أقف الآن عند نطق العرب لقبَه : الخوارزميّ ؛ فقد اعتاد كثيرٌ منهم أن يلفظوه بنطق الواو منه ، على حين أن خُوارزم - كما يقول ياقوت في معجم البلدان ٢ : ٣٩٥ - « أوله بين الضمّة والفتحة ، والألف مُستَرَقَةٌ مختلَسَة ، ليست بألفٍ صحيحة... » ويؤيد قولَ ياقوت أن قواعد اللغة الفارسية تُهمل نطق الواو الواقعة بين الخاء والألف ، فيقال في الخُوانساري : الخُانساري ، وفي الخُوارزمي : الخُارزمي وعلى الخاء حركةٌ بين الضمة والفتحة ، وهكذا . ومن مصاديق هذا النطق قول الخليل ابن أحمد السّجزي يردّ على هجاء أبي بكرٍ إياه :

---

(١) ينظر رسائله : ٤٧ ، ٥٦ ؛ وقد وصف عقله بأنه طبري . وعلل السمعاني في الأنساب : ٢١٠و نسبته هذه بخؤولة الطبري له . وهو وهمٌ كما رأينا . وانفرد السراج بقوله في مصارع العشاق ١ : ٩٠ إنه من طبرية الشام . وهو وهمٌ لأن النسبة إلى طبرية : طبراني .

(٢) رسائله : ٦٥ .

(٣) ينظر اليتيمة ٤ : ٢٠٤ ؛ والوفيات ٤ : ٤٠٠ ؛ والوافي ٣ : ١٩١ . وانفرد ابن العماد في شذرات الذهب ٣ : ١٠٥ فسماه : الطبرخي . وتعليل هذا اللقب فيها - ما عدا اليتيمة - أن أباه من خوارزم وأمه من طبرستان . ثم اضطرب عند ابن أيبك في الوافي فقال العكس . ويبدو لي أن اللقب جاء من كونه - كما قال الثعالبي - طبري الأصل خوارزمي المنشأ .

(٤) ينظر اليتيمة ٤ : ٢٠٤ .



وعاوٍ عَوى من أهل خُوارزم خيفةً كذا الكلبُ عند الخوفِ مجتهداً يَعوي

إذ أنه ينكسر وزنُ صدرِ البيت بنطق الواو ، ويستقيم بإهمالهما .

لا نعرف عن أسرته الفارسية التي ولد فيها شيئاً ، إذ لم يذكر مؤرخوه حالَها ، ولكن رسائله تدلنا على أنها كانت مُوسرة ؛ فقد خلّف له أبوه من الإرث «ما لو خلّفه على أهل بلد لكفاهم»[1] . والمظنون بأبٍ له مثل هذا الثراء أن يُعنى بتأديب ابنه ، رغم أننا لا نعرف مَن أدّبه في نيسابور ، ولكننا نعرف أنه كان يوم فارق وطنه ـ وهو حَدَث ـ «قويَ المعرفة ، قويم الأدب»[2] حتى إنه زعم ـ ذات مرة ـ أنه فارق وطنه الى العراق مفيداً لا مستفيداً[3] . على أن قريحته الشعرية قد تفتحت وهو في خوارزم[4] لم يُجاوز اليفاعة ؛ فقد تحكّك بشاعرِ عصره الهجّاء أبي الحسن اللحام الحرّاني فهجاه[5] وهاجى أبا القاسم أحمد بن أبي ضرغام «أحد شعراء خُوارزم المفلقين المذكورين...»[6] .

وإذاً ، فقد كفلت له هذه الأسرة الموسرة ـ قبل أن تفقد يسارها[7] ـ من التعليم ما أطمعه بالاستزادة ، فارتحل إلى العراق ، وقصد بغداد ، فتتلمذ على «أبي عليّ اسماعيل بن محمد الصفّار ، وأقرانه»[8] ، ونعرف عن أبي عليّ أنه عالمٌ بغريب اللغة ، وبالنحو ، وأنه محدِّثٌ ذكر له حاجي خليفة في كشف الظنون ١ : ٥٨٦ جزءاً من مروياته في الحديث النبوي الشريف ، ولابد أن يكون صاحبنا قد سمعه منه . ولكننا لا نعرف من أقرانه إلا القاضي أبا بكر

---

(١) رسائله : ٢٢٩ .

(٢) اليتيمة ٤ : ٢٠٤ .

(٣) ينظر رسائله : ١٥٦ .

(٤) ينظر اليتيمة ٤ : ١٠٢ .

(٥) ينظر نفسه .

(٦) ينظر السابق ٤ : ٢٥٤ .

(٧) ينظر رسائله : ٢٢٩ وفيها ما يدل على أنه في افتقر في خوارزم بعد غنى .

(٨) الأنساب ٥ : ١٩٤ .



أحمد بن كامل السجزيّ ، إذ رويت عن الخوارزمي حكاية عنه ، فلعله اتصل به في بغداد من جملة من اتصل بهم ، فإذا صحَ أنه وقع هذا الاتصال أدركنا ما كان يبحث عنه صاحبنا من علمٍ في بغداد ؛ فقد كان أبو بكر القاضي «من العلماء بالأحكام ، وعلوم القرآن ، والنحو ، والشعر ، وأيام الناس ، وتواريخ أصحاب الحديث »[١] . على أنه من المحتمل ألا يكون أبو بكر الخوارزمي قد عُني بالفقه ، وعلوم القرآن ، وتواريخ أصحاب الحديث عنايتَه بالنحو ، والشعر ، وأيام الناس . فأما النحو والشعر فقد كانا من عُدَّته طيلة أيام حياته ، وأما أيام الناس فحسبُنا ما سرده علينا منها في هذا الكتاب أعني : «الأمثال» . ولابد أن تكون معرفةُ هذه الأيام تفرض عليه أن يُلمّ بأنساب العرب ، فبلغ من معرفته بها ما كان يُحيِّر بعض أقرانه من العلماء[٢] ، وما جعله فيها إماماً[٣] .

ويهمني الآن أن أعرف متى ورد أبو بكر بغداد ؛ إذ اكتفى مؤرّخو حياته أن يقولوا : إنه ورد العراقَ ، دون أن ينصّ أحدٌ منهم على تاريخ ذلك ، بل إن أحداً منهم لم يذكر بغداد سوى الحاكم النيسابوري الذي لولاه لكنتُ ظننتُ أنه وردَ العراقَ سائحاً لا طالب علم . ولقد نستعين على معرفة تاريخ رحلته بتاريخ وفاة أحد شيوخه أعني به أبا عليَ الصفّار ؛ فقد تُوفي سنة ٣٤١هـ[٤] . فإذا كان الأمر كذلك فمعناه أن أبا بكر قد وردَ بغداد قبل هذا التاريخ ، وأنه لازم الصفّار مدةً أتاحت له أن «يذكر سماعه...»[٥] منه .

ويمكنني أن أتخيل أنه سمع ـ أثناء حياة الصفّار وبعدها ـ من القاضي أبي

---

(١) تاريخ بغداد ٤ ، ٢٥٧ . وقد قرر الدكتور البصير ـ رحمه الله ـ في كتابه ، في الأدب العباسي ، ٦٥ أنه لا يعرف «لسوء الحظ أحداً من أساتذته» . ولم يقرر الشكعة ذلك لكنه لم يذكر أحداً من أساتذته العراقيين ، ينظر بديع الزمان ، ٨١-٩١ . وكذلك فعل الآخرون فلم يذكر أيٌ منهم أستاذاً من أساتذته .

(٢) ينظر قول الحاكم النيسابوري عنه في الأنساب ٥ ، ١٩٤ .

(٣) ينظر الشذرات ٣ : ١٠٥ .

(٤) ينظر نزهة الألباء (ط حجرية) : ٣٥٥ .

(٥) الأنساب ٥ : ١٩٤ .



بكر السجزيّ مدةً لا أستطيعُ تحديدها ، ولكنني أستطيع تخمينَها بما لا يَرقى إلى سنة ٣٤٦هـ ؛ فقد غادر بغداد قبل هذه السنة متّجهاً إلى حلب . وإنما نصصتُ على هذه السنة ؛ لأنني أعرف أنه التقى بالمتنبي في حلب ، وزارهُ في بيته[١] ، وأعرف أن المتنبي غادر في تلك السنة حلبَ متجهاً إلى مصر يمدحُ بها كافورَ الإخشيديَّ .

واتجه صاحبُنا إلى بلاد الشام قبل سنة ٣٤٦هـ و« سكن بنواحي حلب »[٢] و« لقي سيف الدولة وخدَمَه... »[٣] . وكان أهمَّ من لقاء سيف الدولة ـ على ما يبدو ـ من حيث التأثيرُ في حياته لقاؤه أركانَ حضرتِه من العلماء والأدباء والشعراء مثلَ ابن خَالويه ، وأبي الحسن الشِّمشاطيّ ، وأبي الطيب المتنبي ، وأبي العباس الناميّ ، وسواهم[٤] . وقد أفاد من مجالسةِ هؤلاء ما فتقَ قلبَه ، وشحَذَ فهمَه ، وصقل ذهنَه[٥] . وإذا كان أفاد من ابن خالويه علمَه بالنحو واللغة ، فقد يكون أفاد من أبي الحسن الشمشاطيّ صاحب « أخبار أبي نواس... »[٦] ، ومختصر تاريخ الطبري[٧] علمَه بشعر المحدثين وبالتاريخ . أما المتنبي فحسبُك به جليساً وبشعره معلّماً . مما يبيح لنا أن نعدّ هؤلاء جميعاً في أساتذته وليس ابنَ خالويه وحدَه[٨] .

على أن أبا بكر لم يكتف بمجالسة هؤلاء ممن هم في حضرة سيف الدولة يُلازمونه ، وإنما مدّ بصره إلى مَن هم خارج هذه الحضرة سواء أكانوا من ملازمي حضرة سيف الدولة أم لم يكونوا ، وكانت حال شعراء الشام في ذلك

---

(١) ينظر اليتيمة ١ : ١٣٦ .
(٢) الوفيات ٤ : ٤٠١ ، والشذرات ٢ : ١٠٥ .
(٣) اليتيمة ٤ : ٢٠٤ .
(٤) السابق ١ : ٣٦ .
(٥) نفسه .
(٦) . (٧) الفهرست : ١٨٢ ، ٢٩٢ .
(٨) في معجم الأدباء ٤ : ٥ أن أبا بكر كان من تلامذة ابن خالويه .



عندَه حالَ الشعراء الطارئين عليها ، فلقي ابنَ الكاتب الشاميَ الشاعر ، وأبا الفرج العجليَ ، وأبا الحسين الناشئَ الأصغر ، والخليع الشاميَ ، وأبا طالب الرَّقي ، وأبا الحسن عليَ بن أحمد التَّلَعفري[1] ، ينشدونه أشعارهم فيحفظ ما يذوقُه منها حتى بلغ به الأمرُ أن كان يتفرّدُ من بين علماء نيسابور برواية أشعار بعضهم[2] . وكان من أثر كل ذلك في نفسه أن قال بعد أن صار إلى ما هو عليه شعراً وأدباً وعلماً : وما «بلغَ هذا المبلغَ بي إلا تلك الطرائف الشامية ، واللطائفُ الحلبية التي علقت بحفظي ، وامتزجتْ بأجزاء نفسي»[3] .

وينبغي لنا ألا نتصور أن إقامة أبي بكر ـ وهو في عنفوان شبابه ـ في العراق والشام كانت جداً كلَّها ؛ فقد غشي مجالسَ المغنين ، واختلط بالشُّطّار والعيّارين ، وداخلَ مُجتمعيهما مداخلةً أهّلته أن يؤلّف ـ فيما بعد ـ هذا الكتابَ الذي قال عنه إنه «التُقِط من أفواه الشطّار والعيّارين ، وجُمع في مجالس المغنين والمضحكين... وسُمع أكثر ما فيه من أفواه السُّؤّال والسّابلة»[4] .

وينبغي لنا أيضاً ألا نتصور أن أبا بكر قد حظي من المكانة في الشام بما يغريه أن يقيم فيها ، إذ لم تكن سِنُّه أو شعره أو أدبُه مما يؤهّلُه لهذه المكانة ، لاسيما أن أساتذته مقيمون فيها وهم ما هم علماً وأدباً وشعراً . على أن هذا لا يعني أنه تأخّر فيها ، بل كان أمرُه فيها حيث لا يؤخرُ عن رتبةٍ يبلغُها أقرانُه الذين هم في مثل منزلته[5] .

ومهما يكن من أمرٍ ، فإن إقامته في الشام ـ على ما يبدو ـ لم تطل كثيراً أيضاً ؛ فقد فارقها وقد قاربت شخصيتُه الأدبية الاكتمالَ إن لم تكن قد

---

(١) ينظر اليتيمة ١ : ١٢٠ ، ١٢٢ ، ٢٤٨ ، ٢٨٧ ، ١٩٨ : ٣٠٠ .

(٢) كان ينفرد برواية أشعار أبي طالب الرَّقي ـ ينظر السابق ١ : ٢٩٨ .

(٣) السابق ١ : ٢٦ .

(٤) مقدمة الأمثال ٢٠ .

(٥) ينظر رسائله ٤٢٠ .



اكتملت[١] ؛ إذ نحن لا نجد بعد مغادرته الشام أحداً من العلماء يمكن أن يقال عنه ؛ إنه كان أستاذاً له ، وإنه أخذ عنه .

أما السنة التي غادر فيها الشامَ فنحن لا نعرفها على وجه التحديد ، ولكننا نستطيع أن نقرر أن رحلته كانت قبل حلول سنة ٣٥٢هـ . إذ أننا نعرف أنه اتصل بوالي سجستان أبي الحسين طاهر بن محمد[٢] ، وأن طاهراً هذا كان واليها في تلك السنة بعد أن استخلفه عليها خلف بن أحمد أثناء حجِّه فاستبدَّ بها دونه[٣] .

وإذاً ، فقد غادر الشام قبل سنة ٣٥٢هـ ـ كما قلت ـ مُيمِّماً وجهه شطر بُخارى وهو لم يبلغ الثلاثين من عمره وإن يكن قد قاربها . وكان عليها يومَ قصدَها الأميرُ منصورُ بن نوح ، وكان وزيرَه ـ على ما يظهر ـ أبو عليٍّ البلعميّ ، فاتصل بهذا الوزير وصحبه «فلم يَحمدْ صحبتَه»[٤] . ولا يبعد أن يكون الخوارزميُ قد تأفّفَ من هذه الصُحبة أمام مَن سعى بقوله إلى البلعميّ ، فخرج توقيعُه بتقريع أبي بكرٍ ولومِهِ ، فكتب إليه أبو بكر يُعاتبه : «ذكر الشيخُ أني تنقّلتُ بعرضِهِ المصون ، وتَمَنْدَلْتُ بقدره المكنون المخزون ، وقد كنت أحسبُ الشيخ أمنعَ على السعاةِ جانباً...»[٥] . فما أجدى العتابُ ، بل كثرت ـ على ما يظهر ـ رقاعُ البلعميّ إليه بما هو أكثر من التقريع الأول حتى بدا صاحبُنا حائراً لا يعرف كيف يداري ما هو فيه[٦] .

---

(١) ينظر اليتيمة ٤ : ٢٠٤ .
(٢) ينظر السابق ٤ : ٢٠٥ .
(٣) ينظر الكامل ٧ : ١٤-١٥ وفيه أن والي سجستان هو أبو الحسين طاهر بن الحسين ، على حين أنه في اليتيمة : أبو الحسين طاهر بن محمد . وقد مات طاهر هذا سنة ٣٥٤هـ .
(٤) اليتيمة ٤ : ٢٠٤ . وينظر نصّ بروكلمان في تاريخه ٢ : ١١٠ على أن البلعميّ «وزير آل سامان» .
(٥) رسائله : ١١٩ . و«تنقلتُ... وتمندلتُ...» كناية عن الغيبة .
(٦) السابق : ١٢٠ .



وعلى أنه حاول أن يُلاين البلعميَّ ، وأن يستعيدَ ودَّه ، إلا أنه لم ينجح في ذلك ، فقرر أن يفارق حضرتَه إلى نيسابور ، وفعل ، فلما أن وردَها كتب منها إليه كتاباً يقرِّعه فيه ، ويشرحُ أسباب الخلاف بينهما ، فقد كان يرغب البلعمي أن يُعامله صاحبُه على أنه وزير ، وشاء الخوارزميُّ أن يعامله ـ وقد طالت العِشرةُ ـ على أنه نظير[1] . وينبغي لنا أن نحمل حديث أبي بكر عن طول العشرة ، وعن أنه خرج عن حدّ الشبيبة في هذا الكتاب على محمل المبالغة التي من شأنها أن تثبت له حقاً على الوزير .

ولم يكتفِ أبو بكر بإثبات رأيه في الوزير البلعمي نثراً ، وإنما هجاهُ بشعرٍ له[2] ، على أنه لم يكن وحيداً في هجانه ، فقد هجاه من هو أسنُّ منه أعني اللحّام الحرّاني متّهماً إياه في وزارته ، بأنه :

لم يَرعَ للأولياء حُرمتَهم فيها ، ولا للوجوه والكَتَبَه[3]

مما يوحي أن أبا بكر لم يكن بَطِراً يوم فارقَه ، وأنه صادقٌ في خوفه من أن يُذَلَّ في حضرته .

واتصل ـ وهو في نيسابور ـ « بالأمير أبي نصر أحمد بن علي الميكاليّ ، واستكثر من مدحه... ونادم كثير بن أحمد »[4] الذي هو ابن الأمير أبي نصر . وعلى أن مدته لم تَطُل في نيسابور ـ إذ فارقها سنة ٣٥٢ إلى سجستان ـ إلا أنها تركت ثلاثة أشياء في حياته ، أولها أنه أحبَّ هذه المدينة ، وأحلّها في نفسه محلةً خاصة جعلته يتخذها ـ فيما بعد ـ داراً يأمنُ بها على أهله وولده[5] ، وثانيها أنه بقيت له علاقةٌ طيبةٌ بالأمير أبي نصر ـ بعد مفارقته ـ يدلنا عليها أنه

---

(١) السابق ٤٢-٤٤ .
(٢) ينظر هجاؤه في اليتيمة ٤ : ٢٠٤-٢٠٥ .
(٣) اليتيمة ٤ : ١٠٨ .
(٤) السابق ٤ : ٢٠٥ .
(٥) ينظر رسائله ١٥٦ .



شفعه في اصطناع أحد الفقهاء من تلاميذه[١] ، وأنه بعث إليه بقصيدة من حبسه في سجستان[٢] ، وثالثها أنه اتخذ من كثير بن الأمير أبي نصر الميكالي نديماً وصديقاً[٣] .

وفارق نيسابور ـ كما قلت ـ سنة ٣٥٣هـ إلى سجستان «وتمكّن من واليها أبي الحسين طاهر بن محمد وأخذ صلته»[٤] ، ولكنه انقلب على طاهر ، وهجاه لسبب لا نعلمه مما جعل طاهراً يسجنه[٥] . وعلى أننا وجدنا الثعالبيَّ يقول : إن طاهراً «أطال سجنه»[٦] ، إلا أنه لابد أن يكون قد خرج من السجن قبل وفاة أبي الحسين طاهر سنة ٣٥٤هـ فاتصل بعد خروجه من الحبس ـ بصاحب طبرستان نوح بن منصور ، وعلى أننا لا نعلم كم لزمه إلا أننا نعلم أن حاله معه لم تكن في طبرستان بأفضل منها في سجستان[٧] . ولابد أنه فارق طبرستان قبل سنة ٣٥٦هـ ، إذ أن نوح بن نصر قد توفي في هذه السنة[٨] .

وعاد صاحبنا مرة أخرى إلى نيسابور قبل سنة ٣٥٦هـ ، كما قلت ، فكانت له علاقة ـ على ما يبدو ـ بمدينة كرمان وأبي علي بن إلياس ، فقد رأيناه يكتب إلى وزيره يعزّيه بوفاة ابنٍ له[٩] . ولابد أن يكون ذلك قد حدث ـ كما قلت ـ قبل السنة المذكورة ؛ لأن أبا علي بن إلياس قد فرّ من كرمان إلى

---

(١) ينظر السابق ، ١٤٧-١٤٩ .

(٢) تنظر قصيدته في اليتيمة ٤ ، ٢٠٥-٢٠٦ .

(٣) ينظر رسائله ، ١٦-١٧ ، ١٥٦-١٥٧ وفي الرسالة الثانية عتابٌ شديد ؛ ٢٥٧-٢٥٨ .

(٤) اليتيمة ٤ ، ٢٠٥ .

(٥) ينظر نفسه .

(٦) نفسه .

(٧) ينظر السابق ٤ : ٢٠٦ .

(٨) ينظر الكامل ٧ ، ٢٣ . ولم يذكر أحدٌ من القدماء أو المحدثين الذين ذكرتُ نوح بن منصور هذا . وإنما اكتفوا بأنه صاحبُ طبرستان .

(٩) ينظر رسائله : ٢٠٥-٢٠٦ .



بخارى ـ حاضرة ملك السامانيين ـ ولأن عضد الدولة استولى على كرمان سنة ٣٥٧هـ وأقطعها ولده أبا الفوارس الملقّب ـ بعد ذلك ـ بشرف الدولة[١] .

وفي هذه المرحلة من حياته ـ وقد امتحن صحبة رجال الدولة السامانية ـ بدأ يمدّ بصرَه إلى صحبة البويهيين ؛ فقد اتصل ـ على ما يبدو ـ بركن الدولة البويهي ، فرأيناه يكتب رسالة إلى حاجبه بالريّ مرة[٢] ، وإلى كاتبه أبي قاسم بعد عزله مرة أخرى[٣] . ثم رأيناه يرثي ركن الدولة نفسه بعد وفاته سنة ٣٦٦هـ[٤] . ولعل علي بن كامة ـ وهو ابن أخت ركن الدولة[٥] ـ هو الذي أوصله إلى خاله ؛ فقد وصفه أبو بكر ـ بأنه صديقُ شبيبته[٦] .

ولعلّ من آثار علاقته بركن الدولة البويهيّ أن كانت له علاقة بوزيره أبي الفتح بن العميد فوجدناه يرثيه[٧] بعد قتله سنة ٣٦٦هـ . ولعل من آثارها أيضاً ما كتبه إلى مسكويه وقد تزوجت أمه[٨] ؛ فمسكويه هذا كان يخدم أبا الفضل ابن العميد وزيرَ ركن الدولة قبل ابنه أبي الفتح[٩] .

ثم اتصل بعد وفاة ركن الدولة البويهي ، واستيلاء ابنه عضد الدولة على المُلك بعده ، بالصاحب بن عبّاد في أصبهان ، وكان من المعقول أن يتشوّف الصاحبُ إلى هذه الزيارة وأن يكون وراء هذا التشوّف أكثرُ من وجهٍ ، فمن هذه الوجوه أنه لابد أن يكون قد سمع بأبي بكرٍ وهو في حضرة ركن الدولة ، ولابد

---

(١) ينظر الكامل ٧ : ٢٧-٢٨ .

(٢) ينظر رسائله : ٩٧ .

(٣) ينظر السابق : ١١٦-١١٧ .

(٤) تنظر قصيدته في اليتيمة ٤ : ٢٢٦-٢٢٧ .

(٥) ينظر تجارب الأمم ٦ : ١٧٦ .

(٦) ينظر رسائله : ٢٠٣ وفيها أنه نادمه وهو مقتبل الشباب ، حدث الأتراب .

(٧) تنظر قصيدته في اليتيمة ٤ : ٢٢٦-٢٢٧ .

(٨) ينظر رسائله : ٢١٣-٢١٤ .

(٩) ينظر عن هذه الخدمة ـ على سبيل المثال ـ تجارب الأمم ٦ : ٢٢٩ .



أن يكون أيضاً قد شعر بشيء من عدم الرضا وهو يراه على صلة بمُنافسه أبي الفتح بن العميد[1] ، وأن يكون مما يسرُّه أن يرى شاعرَ منافسه في حضرته ، هذا إلى أن أبا بكر قد بلغ من الشهرة ـ قبل أن يقصد الصاحبَ ـ ما يجعل حضرةً مثل حضرة الصاحب تفرح بمقدمِه ؛ فقد رُويت عن أبي بكر أكثر من رواية تدل على هذه الشهرة منها ما يدل على سَعةِ حفظه . ويمكن أن نمثّل على سَعة الحفظ بما رواه ابن خلّكان ، فقد قال : إنه لما ورد حضرة الصاحب قال لأحد حجّابه : «قل للصاحب : على الباب أحدُ الأدباء وهو يستأذن في الدخول ، فدخل الحاجبُ وأعلمه ، فقال الصاحبُ ، قل له : لقد ألزمتُ نفسي ألا يدخل عليَّ من الأدباء إلا من يحفظ عشرين ألف بيتٍ من شعر العرب ، فخرج إليه الحاجبُ وأعلمه بذلك ، فقال له أبو بكر : ارجع إليه وقل له : هذا القدْر من شعر الرِّجال أم من شعر النساء ؟ فدخل الحاجبُ فأعاد عليه ما قال : فقال الصاحبُ : هذا يُريد أن يكون أبا بكر الخوارزميَّ ، فأذن له في الدخول ، فدخل عليه فعرفه وانبسط له»[2] . وعلى أن هذه الرواية «ظاهرةُ التكلّف والافتعال»[3] إلا أن دِلالتَها على سَعة حفظ أبي بكرٍ تبقى قائمةً ؛ فقد كان أبو بكر يحفظ في هجاء المغنين وحدَهم «ما يُقاربُ ألفَ بيتٍ»[4] .

ومن روايات شهرته ما يدل على سَعةِ علمه باللغة ؛ فقد قيل إنه دخل «على الصاحب في أول لقائه إياه فارتفع على الحاضرين في مجلسه من العلماء والأدباء ـ والجماعةُ لا تعرفه ـ فتساءلوا عنه وغاظهم ما رأوا منه ، وقال أحدُهم : من ذا الكلب ؟ ـ قولاً سمعه أبو بكر ـ فالتفت إليه ، وقال : الكلبُ مَن لا يعرف للكلب مائةَ اسم ، ويحفظ في مدحه مائةَ مقطوعة وفي ذمّه مِثلَها .

---

(١) ينظر في أمر هذه المنافسة الوفيات ٥ : ١١١ .

(٢) الوفيات ٤ : ٤٠١ . وينظر الشذرات ٢ : ١٠٥ .

(٣) في الأدب العباسي : ٥٩٠ . وقد سبق الدكتور زكي مبارك إلى شيء من هذا الرأي في النثر الفني ٢ : ١٦٠ .

(٤) خاص الخاص : ٦٤ .



فقال الصاحب : فأنت أبو بكر الخوارزمي ، قال : نعم عبدُك ، قال له : حُقَّ لك ، وقدّمه وقرّبه »[1] .

وعلى أن الرواية كأختها ظاهرة التكلّف بحيث لا أرى بي حاجةً إلى تفصيل هذا التكلّف ، وتفصيل وجوهه إلا أن ذلك لا ينفي سَعة علمه باللغة ، وحسبه من ذلك أنه كان أحدَ مصادر الثعالبيّ في « فقه اللغة »[2] ، وأحدَ رواةِ علم ابن خالويه اللغوي[3] .

وأريد الآن أن أحدِّد الزمنَ الذي اتّصل فيه أبو بكر بالصاحب ، فأقول : إنه لا كتبُ التاريخ ولا كتبُ التراجم التي ترجمت حياة أبي بكر قد ذكرت شيئاً ـ شأنها في ذلك شأنها مع أحداث حياته الأخرى السابقة منها واللاحقة ـ ولكننا نستطيع أن نستعين على هذا التحديد بأبي حيّان التوحيدي ؛ إذ أن أبا حيان كان قد تعرّف في حضرة الصاحب على أبي بكر فروى عنه أشياء في « مثالب الوزيرين » فإذا عرفنا أن أبا حيّان قد غادر الحضرة ـ كما يقول هو ـ في عام ٣٧٠هـ بعد أن أقام فيها ثلاث سنوات[4] ، أمكننا أن نقول بيسر : إنه اتصل به في هذه المدّة الواقعة بين ٣٦٧-٣٧٠هـ .

وحظي أبو بكر عند الصاحب بمكانة كبيرة ، فأعطاه وأولاه ، وقدّمه وآثَرَه[5] ، وبلغ من المكانة عنده بحيث يكتب إليه أرجوزةً يدعوه فيها أن ينادمه في عيد الفِصح[6] . ولابد أن يكون من أسباب هذه الحظوة ـ فضلاً عن

---

(١) الوفيات ١ : ٤١١٦ ، وينظر الأنساب ٥ : ١٩٤ . وفيه أنه قال : « ... الكلب الذي لا يعرف عشرين لغةً في الكلب... » وواضحٌ كيف تضخمت رواية الأنساب في الوفيات حتى عادت بعيدةً عن أصلها مصنوعةً .

(٢) ينظر فقه اللغة : ١٠ .

(٣) ينظر معجم الأدباء ٤ : ٥ على سبيل التمثيل .

(٤) ينظر المثالب : ٢٠٧ .

(٥) ينظر السابق : ٧٧ .

(٦) ينظر اليتيمة ٢ : ٢٦٣ .

•



الأدب ـ أنه ـ أعني أبا بكر ـ كان «يتعصَّبُ لآل بويه تعصّباً شديداً»[1] ، ولا يبعد أن يكون الصاحبُ قد أفاد منه في معرفة أخبار السامانيين ، ومعرفة أخبار صاحب جيشهم أبي الحسن محمد بن إبراهيم بن سيمجور[2] . على أن هذا لا يعني أن نصدّق أبا حيان في أن الصاحب قد اتخذه جاسوساً على ابن سيمجور مأجوراً ؛ فقد كانت هنالك أكثر من مصلحة مشتركة بين الصاحب وأبي بكر في إضعاف شأن السامانيين ، منها ولاءُ أبي بكر للبويهيين وتعصبُه لهم ، ومنها أن الصاحبَ وأبا بكر شيعيّان يهمّهما القضاء على خصمهما السُّنّي ابن سيمجور[3] . كل هذه المصالح تجعل أبا بكر يمدّ الصاحبَ بما لديه من معلومات عن طيب خاطر دون أن يكون مكلَّفاً أو أجيراً ، إذ هو يمدّه بهذه المعلومات عن هَوى وعقيدة ، لاسيما أن العصر عصرُ صراعٍ مذهبيّ حادّ .

وبلغ الصاحبُ ذروةَ الأريحيّة مع أبي بكر حين زوّده بكتاب «إلى حضرة عَضُد الدولة بشيراز»[4] . ولعل الصاحبَ قد خفّف في هذا الكتاب من أثر رثاء أبي بكر أبا الفتح بن العميد ، فليس من المعقول ألا يترك هذا الرثاءُ أثراً في نفس عضد الدولة البويهيّ وهو الذي «كتب إلى أخيه فخر الدولة بالريّ يأمُره بالقبض»[5] على ابن العميد وعلى أهله . فسافر صاحبنا ومعه كتابُ ابن عبّاد إلى شيراز ـ وأبو حيّان مايزال في حضرة الصاحب ـ فاتصل بعضد الدولة فوجد منه «قبولاً حسَناً ، واستفاد منه مالاً كثيراً»[6] . ولكن إقامتَه ـ على ما يبدو ـ لم تطل في حضرته ، فعاد إلى نيسابور ، واستوطنها ، واشترى بهبات عضد

---

(١) السابق ٤ : ٢٠٨ .

(٢) ينظر المثالب : ٧٧ .

(٣) مما يدل على مذهب ابن سيمجور وتعصبه على الشيعة رسالة أبي بكر في رسائله : ١٦٠-١٧٢ .

(٤) اليتيمة ٤ : ٢٠٧ .

(٥) الكامل ٧ : ٨٢ .

(٦) اليتيمة ٤ : ٢٠٧ . وفيه : «واستفاد منها...» .



الدولة «ضياعاً وعقاراً»[١] . ثم عاد مرة أخرى إلى حضرة عضد الدولة ، ويبدو أن ذلك كان قبل سنة ٣٧١هـ ـ «فأجرى له عند انصرافه رَسماً يصل إليه في كل سنة بنيسابور مع المال الذي كان يُحمل من فارس إلى خراسان...»[٢] .

وقد قلت : إنه ورد حضرة عضد الدولة قبل سنة ٣٧١هـ ؛ لأنني رأيت عضد الدولة كان قد قصد في هذه السنة بلاد جُرجان وطبرستان يطرد عنهما صاحبَهما قابوسَ بن وشمكير ـ ممدوحَ أبي بكر أيام منفى قابوس ـ ورأيتُ أبا بكرٍ في خُراسان يكتب إلى الصاحب بن عباد ـ وكان على ما يبدو في حملة عضد الدولة ـ كتاباً يعرِض فيه نفسَه مُجاملةً للقتال مع الصاحب[٣] ؛ ولأن عضد الدولة مات بعد هذه الحملة في سنة ٣٧٢هـ . أما لماذا لم يكتب إلى عضد الدولة نفسِه ؟ فلعلَّ الخلطة لم تبلغ بينهما ـ وذلك أمر طبيعي ـ ما بلغته بينه وبين الصاحب .

وفي هذه المرحلة من حياته ـ بعد إذ أغناه عضدُ الدولة ـ تفرّغ للتدريس تفرُّغاً لم يكن من الغريب معه أن يستخلفَ أحد العلماء الذين يثق بهم على درسِهِ إذا غاب ؛ فقد استخلف ذات مرة أستاذ الواحديّ ، أبا الفضل العروضيّ[٤] . على أن هذا التفرّغ لم يكن ليمنعه من الإنصراف إلى شؤون حياته الخاصة ، وإلى لهوه ، فكان يقضي «أيامه بين مجالس الدرس ومجالس الأُنس»[٥] .

وإذ تُوفي عضد الدولة بقيت علاقته بآل بويه وثيقةً فقد رأيناه في سنة ٣٧٣هـ يرثي مؤيِّد الدولة ويهنيء فخر الدولة الذي ولي الملك بمشورة الصاحب بن عباد[٦] بعد مؤيّد الدولة .

---

(١) نفسه .

(٢) نفسه .

(٣) ينظر رسائله ، ٧٥-٧٧ .

(٤) ينظر معجم الأدباء ٥ ، ٩٩ . وأبو الفضل من العلماء باللغة . توفي سنة ٤١١هـ أو بعدها ومن كتبه : المستدرك على ابن جني فيما شرحه من شعر المتنبي . ينظر رائد الدراسة عن المتنبي : ٦٥-٦٦ .

(٥) اليتيمة ٤ ، ٢٠٨ .

(٦) ينظر الكامل ٧ : ١١٧ .



وكما بقيت علاقته بآل بويه وثيقةً بقيت بالصاحب أيضاً ، فقد بلغت هذه العلاقة بينهما من القوة بحيث رأينا نائبَ الصاحب نفسَه يكتب إلى أبي بكر يستشفعه عند الصاحب[١] ، وبحيث رأيناه يشفع لرجل أميَ عند الصاحب أن يكون على سوق الطعام[٢] ـ وهو منصبٌ له علاقة على ما يبدو بالحسبة ـ فيُشَفِّعُه ، ولعلّ هذه العلاقة هي التي جعلت أبا بكر يتحامل على المتنبي ـ فيما بعد ـ إرضاءً للصاحب .

على أن هذه العلاقة المتينة بآل بويه ووزيرهم الصاحب لم تكن لتُرضي ولاةَ الأمر من السّامانيين في نيسابور ، فكانوا يصبّون على أبي بكر ألواناً من المضايقات من شأنها أن تؤثر في نفسٍ مرهفةٍ مثل نفسِه ، كأن يُعامَل مُعاملةَ العامة في مطالبته بأداء الخراج عن ضياعه[٣] مرة ، وأن يُشعَر بكساد أدبه مرة أخرى[٤] ، إلى ما هنالك من ألوان المضايقات التي لم نستطع معرفتها ، وإن كنا نستطيع أن نتصورها .

وكان يزيد من موقف أبي بكر سوءاً أنه كان من اعتداده بنفسه ، وبمنزلته ، وأدبه بحيث « كان يُطلق لسانَه بما لا يقدر عليه »[٥] ، وأنه لم يكن لبِقَ الخطاب فيما يُحب أن يكون له من أموره ، ولم يكن يترفّع عن الصغائر ترفُّعاً يجعلنا نحسّ أنه كان يعرف ما يُراد به فيُعرِض عنه ؛ وإلا فإنه لا يتوقع أحدٌ أن يكتب ـ وهو في مثل هذه المكانة الحرجة ـ إلى صاحب ديوان الخراج واصفاً مطالبته إياه بأداء الخراج عن ضياعه بأنها خزايةٌ وليست جباية ، وبما هو أكثر من ذلك[٦] .

---

(١) ينظر رسائله : ٢٢-٢٤ .

(٢) ينظر السابق : ٥٢-٥٤ .

(٣) ينظر السابق : ٢٤ ، ٢٥-٢٦ .

(٤) ينظر السابق : ٨٤ ، ١٠٩ ، ١١٢ ، ١١٣ .

(٥) اليتيمة ٤ : ٢٠٨ .

(٦) ينظر رسائله : ٢٥ .



وزاد من تمرد أبي بكر أن هؤلاء السامانيين ـ وهم أميرٌ طفلٌ وليَ خراسان وعمره ثلاث عشرة سنة ووزير مستبدّ هو أبو الحسين العتبي يُصرِّف أمور الولاية على هواه ، وصاحب جيش هو ابن سيمجور يتمرّد على الأمير والوزير معاً[١] ـ زاد من تمرده وإبائه أنهم كانوا يريدون منه أن ينقطع إليهم دون سواهم من البويهيين ، ولعلهم أحسّوا بما سرَب من أخبارهم إلى الصاحب ، ولكن إرادتهم في الانقطاع إليهم كانت بالترهيب لا بالترغيب ، وبالإعنات ، لا بالتوسعة ، مما اضطره أن يكتب إلى أبي الفرج نائب وزير نيسابور ـ بعد أن عرض عليه انقطاعه إلى السامانيين ـ : «فهمتُ ما ذكر الشيخُ في كتابه... ذكر الشيخ أني لو اقتصرتُ على خدمة الأمير ، وعلى منادمة الوزير لمالتِ الصروفُ عن جانبي ناكبةً ، وولّت الخطوبُ عني هاربة... مثلي أيّد الله تعالى الشيخَ لا يُحمل على الخدمة بالتقريع والتثريب ، ولا بالتهديد والترهيب... وإنما يُحبَسُ مثلي بالرغبة ، ويُقيَّد بقيد من الذهب والفضة ، ويُرضى منه بالحَياء والوفاء كفيلين... »[٢] . وفي ظل تعنُّت السامانيين ورفض أبي بكر لم يكن من المستغرَب أن يُلقي أبو الحسن محمد بن ابراهيم بن سيمجور بصاحبنا في الحبس بعد زيارته عضُدَ الدولة ، مدة لا نعرف أمدها ، ولكن أحداث التاريخ تقتضي أن يكون قد خرج من الحبس قبل شهر جمادى الأولى من سنة ٣٧١هـ فقد رأيناه في هذا الشهر هارباً إلى الريّ طليقاً يكتب إلى الصاحب ـ كما أسلفت ـ كتاباً يعرض عليه أن يقاتل معه على سبيل المجاملة ، ويكتب إلى صديقه كثير بن أحمد الميكالي ، وإلى صديقه الآخر أبي محمد العلوي ، وإلى سوى هذين الصديقين[٣] .

وشاء الوزير أبو الحسين العُتبي ـ إزاء تمرد محمد بن ابراهيم ـ أن يعزله

---

(١) ينظر الكامل ٧ : ١٠٧-١٠٨، ٩١ .

(٢) رسائله : ١٥٤-١٥٥ .

(٣) ينظر السابق ١٦ ، ١٧ ، ١٢٢ ، ١٢٢-١٢٥ .



عن قيادة الجيش ، وأن يولّي مكانه أبا العباس حُسامَ الدولة المعروفَ بتاش الحاجب ، وكان من المقدَّر لأبي بكر أن يتنفس الصعداء بعد عزل خصمه الذي حبسه ، ولكن ولاءه للبويهيين ولعضد الدولة منهم بوجه خاص حال دون ذلك .

وأريد أن أفصِّل ما أجملتُ فأقول : إن قابوس بن وشمكير ، وقد طرده عضدُ الدولة ـ كما ذكرت ـ من جرجان وطبرستان كان لجأ إلى الأمير نوح بن منصور فأمدّه بجيش يستعيد به مُلكَه ، وكان ذلك الجيش بقيادة تاش الحاجب ، ولكن الجيش انهزم فانقلب إلى نيسابور ، وبقيت جرجان وطبرستان تحت نفوذ عضد الدولة البويهي . وبهزيمة تاش اجتمعت على أبي بكرٍ فرحتان هما : انتصارُ وليِّ نعمته عضُد الدولة ، وهزيمةُ الوزير العُتبي ، فأطلق لسانه شامتاً بالوزير وصاحب جيشه الجديد .

واستغلّ حُسّادُ أبي بكر وخصومُه المناخَ النفسيَّ السائد فوضعوا على لسان أبي بكر شعراً يشمتُ فيه بالوزير ، وسعوا به إليه ، فأمر صاحبَ الجيش تاش بقطع لسان الخوارزميِّ وبمصادرته ، وكتب بذلك إلى أبي المُظفَّر الرُّعيني «فتولّى حبسَه وتقييدَه ، وأخذ خطّه بمائتي ألف درهم ، واستخرج بعض المال ، وأذِنَ له في الرجوع إلى منزله مع الموَكَّلين به ليحمل الباقي ، فاحتال عليهم يوماً وشغلهم بالطعام والشراب ، وهرب متنكِّراً إلى حضرة الصاحب بجرجان»[١] .

وورد عليه في هروبه كتابٌ من صديقه القديم ، ونديم لياليه ، كثيرِ بنِ أبي نصر أحمد الميكاليِّ يعرض عليه فيه أن يعود إلى داره بعد أن «تلطّف بالأمير حتى سلَّ منه السَّخيمة ، وحمله على أن اغتفر الجريمة»[٢] . ولكن أبا بكر رفض ـ كما هو منتظر منه ـ العرض ، ورأى فيه مكيدة قُصاراها أن تعود به إلى ما كان عليه .

---

(١) اليتيمة ٤ : ٢٠٨ . ويرد العتبي في ابن الأثير على : أبي الحسين ، وفي اليتيمة على : أبي الحسن .

(٢) رسائله ١٥٦ .



ومكث أبو بكر في حضرة الصاحب يجدد عهدَه القديم بصاحبه ، ولكن هذا المكثَ لم يكن طويلاً ، ولعله لم يبلغ السنة ، فقد قُتل خصمُه الوزيرُ أبو الحسين العُتبي ، وقام مقامه أبو الحسين المُزني وزيراً «وكان من أشد الناس حباً للخوارزمي ، فاستدعاه وأكرم موردَه ومصدرَه ، وكتب إلى نيسابور في ردّ ما أخذ منه عليه ، ففُعِل ، وزادت حاله»[1] .

وعاد صاحبنا إلى داره في نيسابور ، وإلى نسق حياته فيها قبل نكبته حتى بلغ عددُ تلاميذه في هذه المرحلة شيئاً كثيراً[2] . وكان ذلك في سنة ٣٧٢هـ[3] .

ولكن عقاربَ الخصومة السياسية لم تكن لتهدأ ـ كما يبدو ـ وما كان لها أن تهدأ ؛ لأن دواعيها مازالت قائمة ، إذ هي لم تكن قائمة على حزازة شخصية تموتُ بموت صاحبها أو بهلاك أصحابها ، ولم يكن من المقدّر أن تسلك مثلُ هذه الخصومة طريقاً مباشراً واضحاً إليه بعد إذ بسط عليه الوزير المزنيُّ ظلَّه ، فكان أن دُبِّرتْ له مكيدةُ المناظرة بينه وبين بديع الزمان الهمذاني عسى أن يخمل ذكره ، «وأعان الهمذانيَّ... عليه قومٌ من الوجوه كانوا مستوحشين منه جداً»[4] ؟ .

وينبغي لي أن أُفيض في أمر هذه المناظرة ووجوه الكيد لأبي بكر فيها ، فأقول :

إنه ورد على نيسابور بديعُ الزمان الهمذاني ، وكان قد سُلب في الطريق إليها ، فكتب رقعةً إلى أبي بكر فاستقبله في داره استقبالاً لم يرض عنه بديع الزمان ، فقد كان يريد من أبي بكر أن يقوم له عن مجلسه قياماً تاماً ، وكان أبو

---

(١) اليتيمة ٤ : ٢٠٨ .

(٢) ينظر معجم الأدباء ١ : ١٠٤٠، وكشف المعاني : ٤٠ .

(٣) ينظر الكامل ٧ : ١٠٩ .

(٤) اليتيمة ٤ : ٢٠٨-٢٠٩ ; ومعجم الأدباء ١ : ١٠٦ .



بكر يرى أنه قد أجَلَّه بما فيه الكفاية ، ولم يرفع عليه في المجلس أحداً سوى رجل من ذريّة رسول الله (ﷺ) ، مما جعل في نفس بديع الزمان ـ وهو لم يخلُ من سكر الشباب بعد ـ شيئاً أقرب ما يكون إلى الاعتقاد بأنه لم يوَفَّ حقّه .

ويلفت النظر في هذه المسألة برمّتها أن بديع الزمان وهو ابنُ أربع وعشرين سنة يوم جاء إلى نيسابور سنة ٣٨٢هـ يريد من أبي بكر أن يوفّيه فضله ثم ينسى أن لأبي بكر من الفضل والسنّ ما يجعلان استقبالَ أبي بكر إياه في داره على غير معرفة سابقة تشريفاً . وإلا فمَن هو بديع الزمان ـ يومذاك ـ إزاء مكانة أبي فكر وفضله ؟

تُرى أكان بديعُ الزمان يجهل هذا الأمر ، أم أن هنالك جماعةً من خصوم أبي بكر في نيسابور يستغلون حداثة بديع الزمان وإعجابَه الزائد بنفسه فيدفعون به إلى حيث يريدون ؟ أما بديع الزمان ـ وهو يكاد يكون المصدر الوحيد في رواية ما وقع له مع أبي بكر ـ فيعترف بأن طائفة من الناس كانت تسعى إليه بما يتفوّه به أبو بكر ، وبلغ البديعُ من تصديق ما يُنقل إليه أن كتب إلى أبي بكر رقعة يتهمه فيها بالتعالي عليه ، وبلغ أبو بكر ـ على ما يبدو ـ من الضيق بهذه المسألة الطارئة ، وربما من العلم بما يراد لها أن تصل إليه بحيث قال : «لو أن بهذا البلد رجلاً تأخذه أريحيّة الكرم... يجمع...»[1] بينه وبين البديع ، فتلقّف خصومُ قوله يوجّهونه الوُجهة التي يرضونها . ونشط من بينهم أبو الطيّب سهل الصعلوكي فجمع بين أبي بكر والبديع في داره ، وحاول البديعُ أن يجرَّ أبا بكر إلى شيء مما يمكن أن يسمّى مناظرةً فلم يستطع ، وظل البديع ينتظر أن يُنجِد هو وأبو بكر ـ كما يقول ـ في الفضل ويُغوّر ، فكان انتظاره سراباً[2] .

---

(١) كشف المعاني ٢٦٠ .

(٢) السابق ٢٧٠ .



ولعل ما جعل أبا بكر يُحجم عن مفاوضة البديع علمَه بما ينطوي عليه صدرُ أبي الطيّب إزاءه . أما لماذا حضر داره ، واستجاب إلى دعوته ، فلعلّ ذلك كان ضرباً من مجاملته ، وسعياً إلى التخلص من مشكلة البديع الطارئة على أي وجهٍ يكون ميسوراً .

وهكذا أخفقت المحاولةُ الأولى في جرّ أبي بكر إلى حلبة البديع ، فانعقد العزمُ على محاولة ثانية لا يرتاب بها كثيراً . وأيُّ ريبة في مجلس يعقده نقيبُ العلويين بنيسابور أبو عليّ للغناء ، ويكون من حُضّاره البديع ، ثم يُدعى إليه أبو بكر ؟ وكوتب أبو بكر بالحضور فاعتذر . فما كان من أهل المجلس إلا أن يحرجوا أبا بكر فيبعثوا إليه بمركوب يجيء به إليهم ، فدخل وهو يتحدث عن سباق وعن حِبالة[1] وكأنه يعلم بما يراد به ، ولكنه يريد أن ينأى بنفسه عنه .

والحق أن حديث أبا بكر عن الفخ الذي نصب له حديثٌ أقرب إلى الحكمة ، فإنه وُضع بين حالين لا تُشرِّفه أيةٌ منهما ، الأولى أن يناظر البديعَ وأن يغلبه ، ولكن أيُّ فضل لأبي بكر في هذا والبديعُ شابٌ في أول الطريق ؟ والثانية أن يغلبه البديعُ ، ولكن أيُّ حرج سيلحقُ به بعد هذا وهو إمام عصره علماً وأدباً ؟ إن مجرد رضاه أن يجلس من البديع مجلسَ المناظِر فيه غضٌّ من قيمته ، واعترافٌ بمكانة البديع ، ولكن الحِبالة كانت قد أُعدّت بإحكام .

وراح البديعُ يلحّ على أبي بكر ، وأبو بكر يتحاماه حتى أذعن آخرَ الأمر ، وما كان له إلا أن يذعن وإلا فُسِّر تحاميه بالعجز . ولا أريد أن أصدق ما نقله البديعُ مما دار في هذا المجلس من أنه أشعرُ من أبي بكر ، وأعلمُ باللغة منه وما إلى ذلك مما ساقه ، ولكنني أريد أن أقول إنه كان قد أُعِدَّ لنهاية المجلس أن يحكمَ « بعضُ القوم... بغلبة البديع ، وبعضُهم يحكم بغلبة الخوارزمي »[2] .

---

(١) ينظر السابق : ٣٩-٤٠ .

(٢) هذه رواية البيهقي في وشاح الدمية نقلها ياقوت في معجم الأدباء ١ : ١٠٣ . على أن البيهقي - كما يبدو - اعتمد فيما اعتمد رواية البديع .



ونهايةٌ مثل هذه من شأنها أن ترغم صاحبنا على حضور مجلس مناظرة آخر أو يقرَّ بالعجز ، «وكان بعض الرؤساء مستوحشاً من الخوارزمي ، وهيّأ مجمعاً في دار الشيخ أبي القاسم الوزير ، وحضر أبو الطيب سهل الصعلوكي والسيد أبو الحسين العالِم ، فاستمال البديعُ قلبَ السيد أبي الحسين بقصيدة قالها في... أهل البيت ، ثم حضر المجلس القاضي أبو عمر البسطامي ، وأبو القاسم بن حبيب والقاضي أبو الهيثم والشيخ أبو نصر بن المرزبان و... أبو نصر الماسَرْجِسي... »[١] .

وكان قد أعدّ لهذا المجلس أن يحكم أبو الطيب والبسطاميّ وصاحب الدار أبو القاسم المستوفي الوزير بغلبة البديع[٢] .

وأقول : إنه أعدّ للمجلس هذه النهاية لا للدفاع عن أبي بكر ؛ ولكن لأنني قرأت ما كتبه البديعُ نفسُه عنها ، وما أثبته من كلامه وكلام أبي بكر ، فلم أجد فيه شيئاً ينتهي إلى هذا الحكم . اللهم إلا أن يكون المنصفون من حُضّار المجلس قد اشتُريت ذمَمُهم من قبلُ كما اشتُريت ذمةُ أبي الحسين العالم بمديح أهل البيت ، فقد زلّ قلمُ البديع فقال عن حال أبي الحسين بعد سماعه القصيدةَ ، قبل حضور الخوارزمي ، إنه «انحلّت له العقدة ، وصار سِلماً ، يوسِعُنا حلماً »[٣] . وأقول اشتُريت ذِممهم ؛ لأنني لا أستطيع أن أصدق ـ وقد قرأت شيئاً من شعر أبي بكر ـ أن قائله ـ أعني الخوارزمي ـ قال في المجلس «تسعة أبيات... جمع فيها بين إقواءٍ وإكفاءٍ ، وإخطاءٍ وإيطاء »[٤] . أما ما أثبته البديعُ من نثره في الدّينار والدرهم فهو يمكن أن يدخل في عزائم السَّحَرة ، ورُقَى

---

(١) السابق ١ : ١٠٤ .

(٢) ينظر معجم الأدباء ١ : ١٠٥ ، وكشف المعاني : ٦٦ ، ٦٤ ، وينظر رأي الثعالبي بالمناظرة في اليتيمة ٤ : ٢٥٧ .

(٣) كشف المعاني : ٦١ .

(٤) السابق : ٧٢ .



العقارب ، ولكنه لا يمكن أن يكون له أدنى صلة بالفن والنثر الفني ، إذ هو من قبيل قوله ، وقد أثبته ـ كما قلتُ ـ بنفسه : «الله شاء إن المحاضر . صُدور بها وتُملاء المنابر . ظهور لها وتُفَرغُ الدفاتر . وجوه بها وتُمشَق المحابر... »[1] . فهل يُعقل أن يكون البديع قد غلب أبا بكر بمثل هذا ؟

أما إذا لم تُشترَ ذممهم ، فإنهم كانوا من انعدام الحسّ النقدي في تقويم النثر بمهوًى سحيق .

ولم يكن لمثل هذه الحال أن تسُرَّ أبا بكر حتى ولو حُكِم له بالغلَبة ، فأنِف ـ كما هي طبيعة الأمور ـ منها «وانخزل انخزالاً شديداً ، وكسفَ بالُهُ ، وانخفض طرفُه ، ولم يحُل عليه الحوْل حتى خانه عمرُه ، ونفذ قضاءُ الله تعالى فيه ، وذلك في شوال سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة... »[2] في نيسابور .

ولم يكتف البديع بوفاته ، ولا من هم وراءه ، فرثاه «بأبيات دسَّ فيها سعاية ثانية »[3] أما هذه السعاية فهي ـ كما تُستشَفُّ من الأبيات ـ تحريض أولي الأمر في نيسابور على مصادرة ما خلّفه أبو بكر لابنه من أرث :

تحمّلتُ فيك من الحزن ما … تحمّلهُ ابنُك من صامتٍ[4]

وهكذا طُويت صفحةُ حياة أبي بكر ـ عليه رحمة الله ـ بمؤامرة من خصومه وهو ابن ستين سنة أو يكاد نفذها لهم بديع الزمان الهمذاني ، وواصلها بعد وفاته ، وهو ـ بزعمه ـ يرثيه .

---

(١) نفسه ، ٧٨ وينبغي ألا يُفهم حكمي على نثر البديع مطلقاً ، ولا على قراءة القطعة بوجهين .

(٢) اليتيمة ٤ ، ٢٠٩ ، وفي الأنساب ٥ ، ١٩٥ أن وفاته كانت «للنصف من شهر رمضان» من العام ، وتابع ابن العماد في الشذرات ٣ ، ١٠٦ رواية الأنساب . واضطرب ابن الأثير فجعل وفاته في ٧ ، ١٦٢ سنة ٣٨٢ ثم عاد في ٧ ، ٢٢١ فجعلها سنة ٣٩٢هـ وهو وهمٌ منه . وكذلك وهم ابن نظيف الحموي حين جعل وفاته في التاريخ المنصوري : ٧٠ظ سنة ٤٠٢ .

(٣) اليتيمة ٤ ، ٢٠٩ .

(٤) نفسه . وفي معجم الأدباء ١ ، ١١٦ أرجوزة للبديع يهجو بها أبا بكر ويتهم فيها ابنه علياً بعلة البغاء . ويهمنا من هذا أنه يوم مات كان له ولدٌ اسمه ، علي .



والآن وقد عرفنا حياة أبي بكر ـ وهي حياة مضطربة تعاورتها السجون والأسفار ـ نقول : إنه لا اضطرابُ حياته ولا مجالسُ أنسه منعاهُ من أن يكون أستاذاً ملءَ السمع والبصر يفد عليه تلاميذُه من نيسابور ومن خارج نيسابور[1] ، فكان له منهم كثرةٌ كاثرةٌ لم يبق لنا من أسمائهم إلا ما لا يكاد يُذكر ، فمن تلاميذه :

أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي النيسابوري المتوفى سنة ٤٢٩هـ ؛ فقد رأينا في مقدمة «فقه اللغة» وفي اليتيمة وفي سواهما من كتبه ما يدلّ دلالة واضحة على هذه التلمذة ، فضلاً عن نص ابن الأنباري عليها .

وأبو المظفَّر الهرويُ ـ واسمه محمد بن آدم بن كمال ـ وقد ألّف من الكتب : شرح الحماسة ؛ وشرح إصلاح المنطق لابن السِّكِّيت ؛ وشرح أمثال أبي عبيد ، وشرح ديوان أبي الطيب المتنبي . وكانت وفاته سنة ٤١٤هـ[2] .

وأبو نصر أحمد بنُ علي بن أبي بكر الزَّوزَني ، فقد ورد نيسابور ، وتتلمذ له ، ثم صار من شعراء عضد الدولة ، ومات وهو شاب[3] .

وأبو الفتح النحوي اللغوي ، واسمه محمد بن أحمد بن أشرس ، وهو فاضلٌ أديب ، شاعرٌ من أهل نيسابور[4] .

وآخر سمّاه أبو بكر ـ في رسائله ـ أحمد بن علي[5] ، ولا نعرف عنه أكثر من اسمه .

على أن في رسائله من الكتب التي خاطب بها تلاميذه أو التي أجاب بها

---

(١) ينظر رسائله : ١١٤ ، واليتيمة ٤ : ٤٤٦ . وفيهما حديث عن تلميذين من خارج نيسابور .

(٢) ينظر معجم الأدباء ٦ : ٢٦٧ . وشرحه أمثال أبي عبيد مما فات زلهايم ، فأطروحته عن شروح أمثال أبي عبيد ولم يتنبه إليه .

(٣) ينظر اليتيمة ٤ : ٤٤٦-٤٤٧ .

(٤) ينظر المعجم ٦ : ٢٢٦ .

(٥) ينظر رسائله : ١٤٩ .

عن كتبهم الواردة إليه ما جعل الدكتور شوقي ضيف يتوهم أن هنالك منصباً لتخريج التلاميذ في نيسابور كان يتولاه أبو بكر[١] .

هذا ما كان من أمره أستاذاً ، أما ما كان من أمره مؤلفاً فقد اتفق الذين ترجموا له من القدماء والمحدثين على كتابين له هما : ديوان رسائله وديوان شعره ، رغم أن البديع الهمذاني قد اعترف له بالنحو « واللغة... والعروض... والأمثال... »[٢] .

وإذاً ، فإن المذكور في كتب التراجم من كتبه كتابان هما :

ـ ديوان رسائله[٣] ، وقد طبع باسم « رسائل المخزومي » في كوبريلي سنة ١٢٧٤هـ ؛ وفي بولاق سنة ١٢٧٩هـ ؛ وفي استانبول ١٢٩٧ ؛ وفي بومباي سنة ١٣٠١هـ = ١٨٩١م[٤] . ثم طبعت هذه الرسائل باسم « رسائل أبي بكر الخوارزمي » في دار مكتبة الحياة ببيروت سنة ١٩٧٠م وهي طبعة ملأى بالأخطاء المطبعية . على أن رسائل الخوارزمي لم تُحقَّق في أي من هذه الطبعات رغم وفرة نسخها المخطوطة .

ـ ديوان شعره ـ وقد سماه حاجي خليفة : « ديوان أبي بكر الخوارزمي »[٥] . وألمح جرجي زيدان إلى ضياع هذا الديوان[٦] ، على حين اضطرب كارل بروكلمان في أمره فقال : « ... لم يبق لنا من شعر الخوارزمي إلا نماذج رواها صاحب اليتيمة »[٧] ثم قال بعد ستة عشر سطراً : إن ديوانه قد

---

(١) ينظر الفن ومذاهبه في النثر العربي : ٢٣٢ .
(٢) كشف المعاني : ٦٧ .
(٣) ينظر كشف الظنون ١ : ٧٧٠ .
(٤) تاريخ الأدب العربي ٢ : ١١١ ، وينظر تاريخ آداب اللغة العربية ١ : ٥٨٢ .
(٥) الكشف ١ : ٧٧٠ .
(٦) ينظر تاريخ آداب اللغة ١ : ٥٨٢ .
(٧) تاريخ الأدب ٢ : ١١١ .



«... طبع في القاهرة ١٩٠٣»[1] . ولم يُقدَّر لي أن أرى هذا الديوان مما يجعلني أُحجم عن تقرير شيء في أمره . وأما الكتب الأخرى فهي :

ـ الرسائل القديمة ـ ذكرها الثعالبي فقال : «وقرأتُ فصلاً للخوارزمي من رسائله القديمة : لو كنا نعملُ على قدْر النية لحملنا إليك خراجَ فارس ، وعُشر الأهواز... »[2] ، ولعل من هذه الرسائل القديمة الفصل الذي كتبه «في ذكر إلا ولولا »[3] . ويغلب على الظن أن هذه الرسائل هي التي كتبها في صدر شبابه ، وأنها لم تصل إلينا .

ـ شرح ديوان المتنبي ، وقد ذكره الشيخ يوسف البديعي في حديثه عن شروح ديوان المتنبي[4] ، ولم يتنبَّه الأستاذ كوركيس عواد إليه في «رائد الدراسة عن المتنبي» . على أن هذا الشرح لا يُعرف مصيره ؛ لأن هنالك شروحاً كثيرة مخطوطة لديوان المتنبي لا يُعرف شارحوها فلعل شرحه أن يكون أحدها . أو لعله من الكتب الضائعة .

ـ أمالي الخوارزمي ؛ فقد قال الميداني وهو يفسر : «لا أفعل كذا ما غبا غُبيس» : «... ورأيتُ في أمالي الخوارزمي أن معنى غبا : أظلم ، والغبيس : من أسماء الليل »[5] فلعل الخوارزمي المذكور هو أبو بكر فقد رأينا أنه كان عالماً باللغة وأن مثل هذه الأمالي اللغوية مما يليق باهتماماته وبدروسه التي يتلقاها عنه تلاميذه ، هذا إلى أن صاحبنا من مصادر الميداني كما سيتضح .

ـ الأمثال ـ وقد ذكره أبو الحسن البيهقي في كتابه «غرر الأمثال» ، فقال عند ذكره أبا بكر الخوارزمي : «إنه ألّف كتاباً في الأمثال

---

(١) نفسه .

(٢) ثمار القلوب : ٨٢ .

(٣) اليتيمة ٤ : ٢٠١ .

(٤) الصبح المنبي : ٢٦٨ .

(٥) مجمع الأمثال ٢ : ٢٣٩ .



المولدة»[١] ، وذكره الشهاب الخفاجيُّ في «شفاء الغليل» مرتين ، الأولى حين تحدّث عن «الزَّرّاق» فقال : «... قاله أبو بكر الخوارزمي في أمثاله»[٢] ، والثانية وهو يتحدث عن قولهم : «يدهن من قارورة فارغة» فقال مثل قوله الأول[٣] . ثم ذكره من المعاصرين المستشرقُ الألمانيُّ رودلف زلهايم ، ولكنه كان يعتقد أنه ضائع[٤] على الرغم من أن نسخته المخطوطة محفوظة في استانبول ، وأنه كان اطّلع «على مجموعة من مخطوطات الأمثال»[٥] أثناء زيارته لاستانبول في سبتمبر (أيلول) من عام ١٩٥١م . والأمثال هو هذا الكتاب الذي أريد أن أحدّثك عنه .

هذا ما استطعت جمعه من أسماء مؤلفات أبي بكر ، ولعل له مؤلفات أخرى لم أوفَّق إلى العثور على أسمائها ، وبحسبي من ذلك أنني استدركتُ أربعة كتب على كتابيه ، لم يذكرها أحدٌ ممن اطّلعت على ترجمتهم له .

وينبغي لي أن أتحدث عن أهمية هذا الكتاب فأقول : لعل هذا الكتاب هو أول كتاب انعقد برمَّته على أمثال المولّدين لم يسبقه إليه أحدٌ ؛ إذ أن جميع الكتب التي تحدّث عنها زلهايم ، والتي تناولت أمثال المولّدين متأخرةٌ عنه[٦] . أما الكتب التي سبقته فهي في الأمثال العربية الفصيحة . ولقد بلغ الاعتداد بأبي هلال العسكري ـ معاصر الخوارزمي ـ لدى جمعه هذه الأمثال أن عاب حمزة بن الحسن الأصبهاني المتوفى في حدود ٣٥٠هـ بما تسرّب إلى كتابه «الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة» من أمثال المولّدين حتى صارت «العلماء تُلغيه ، وتُسقطه وتنفيه»[٧] .

---

(١) الأمثال العربية القديمة : ٢١٦ .

(٢) شفاء الغليل : ١٠٢ .

(٣) السابق : ٢١٦ .

(٤) ينظر قائمة كتب الأمثال في الأمثال العربية : ٢٢٤ .

(٥) السابق : ١١ .

(٦) ينظر السابق : ٢٠٥-٢٠٧ .

(٧) جمهرة الأمثال : ١١ .



وإذا كان مصدر أبي بكر في هذا الكتاب ما كانت قد وَعَتْه حافظتُه أثناء إقامته ـ وهو شابٌ ـ في العراق والشام ، وما يمكن أن يكون قد دوّنه ، فإن الذي يغلب على الظن أنه ألّفه على دُفعات يبتعد بعضها عن بعض شيئاً ما ، وآية ذلك ما نراه من تكرار طائفة من هذه الأمثال ، فقد تكرر في الكتاب ثمانون مثلاً تزيد وتنقص .

ومن آيات ذلك اضطرابُ منهج الكتاب شيئاً ما . وأوّل ما يُلاحظ ذلك على تبويب الكتاب ؛ فهو يبوّبه على أساس الموضوعات كما في بابي « ما يجري مجرى العظة... » و« ... المواعظ والأمثال » ، وكما في « ... الشتم للرجل... » و« ... مدح الرجل... » ، ولكنه يخرج عن هذا الأساس إلى أساس آخر بلاغيّ في « تفاريق المجون والتشبيه » و« ... تناول المولدين واستعاراتهم » وفي « ... الهزْل في الاستعارة » و« ... التشبيه في كأنّ وكأنما » ، ثم يُعرض عن الأساسين معاً إلى آخر هو البينة كما في « ... أمثال السّؤال » و« ... الأمثال التي تفرّد بها أهلُ بغداد » .

وترتّب على هذا شيء آخر يتعلق بتوزيع الأمثال على هذه الأبواب ، فقد ذكر المثل ١١٨ في « باب المواعظ... » وهو آيةٌ من القرآن الكريم ؛ وكذلك ٤٦٤ ؛ و٦٨٩ ؛ و٨٦٦ فكان من حق هذه الأمثال جميعاً أن تُدرج في « باب ما جاء... في القرآن فضُربت به الأمثال » . وذكر في « باب مدح الرَّجُل والشفقة عليه » جملةَ أمثال تبدأ بـ٥٠٦ وتنتهي بـ٥٢٤ ، وكلها تبدأ بـ« كأن » مما يجعل لها حقاً أن تذكر مع أخواتها في « باب آخر من التشبيه في كأنّ وكأنما » . وجاءت في « باب مدح الرجل » أمثال على صيغة « أفعل » مثل ٤٨٤ ؛ ٤٨٥–٤٩٢ ؛ ٤٩٦ ؛ ٤٩٧ ، وكان من حقها أن ترد في « باب أفعل من كذا » . وهنالك أشياء أخرى كان من حقها أن تنقل من أماكنها إلى أماكن أخرى ، ولم أذكرها ؛ لأنني أمثّل ولا أستقصي . ويمكن للقارئ أن يجد هذه الأمثال في كتابه « الأمثال » ط الجزائر ، ١٩٩٣ بتحقيقي .



ومن آيات جناية الذاكرة على هذا الكتاب أن أبا بكر نسي تدوين بعض الأمثال مما يعرفه هو ، مثل : «جُصِّصتِ الدارُ بعد ما خَرِبتْ»[1] ، ومثل «مُخلَّطُ خراسان»[2] ، و«يقعُ في البئر من حَفَر»[3] . وإذا كان يمكن أن يقال : إنه من المحتمل ألا يكون المثلان الأولان مستعملين في العراق والشام ، فإن الثالث مايزال مستعملاً في العراق إلى اليوم . ولابد أن تكون هنالك أمثال أخرى سوى ما ذكرتُ قد غابت عن ذاكرة أبي بكر فغابت عن هذا الكتاب .

ولكن كل ذلك لا يُنقص من أهمية هذا الكتاب ، ولا يقدح في قيمته كتاباً رائداً في بابه فهو وثيقة اجتماعية تؤرخ لوجدان المجتمعين العراقي والشامي ، وللوجدان العربي الإسلامي بصورة عامة من ورائهما . فإذا يمرّ ذكرُ البطّال عابراً في حوادث سنة ١٢٢هـ لدى بعض المؤرخين* نجده قد اتخذ مكاناً في الذاكرة الشعبية فضُرب المثلُ بشجاعته في ١٢٢٤ . وإذ تسكت كتب التاريخ وسواها عن الزُّنداق صاحب شرطة أنطاكية نجد الذاكرة الاجتماعية قد ضربت المثل بشدته في ١١٦٢ . وإذ تسكت كتبُ التاريخ عن علاقة واضحة بين خليفة المسلمين ورعاياه نستشف من المثل ١٠٩٩ شيئاً أقرب إلى الضجر من طول أعمار الخلفاء ـ رغم قصرها ـ ، ولعل هذا الموقف من الخلافة هو الذي صوّر سجونَ الخلفاء على الغاية من الاكتظاظ بالناس ـ ينظر ١٢٢٦ ، ودواوين خراجهم على الغاية أيضاً من الاكتظاظ بالمال[4] . ولعله هو الذي غيّب القرامطة والزنج عن ذاكرة المجتمع رغم أحاديث التاريخ المستفيضة عما صوّرته على أنه من الفظائع .

---

(١) استعمله الخوارزمي في شعره . ينظر اليتيمة ٤ : ٢٣٢ .

(٢) والمثل مناسب لقولهم : سفينة نوح ، وجامع سفيان ـ ينظر ثمار القلوب : ١٧١ وقد كان يستعمله أبو بكر . والمخلَّط : ما يُخلطُ من اللوز ، وبزر البطيخ ، والكشمش ونحوها مما يكون في النُّقل .

(٣) رسائل الخوارزمي : ٦٠ .

* أوسعُ ترجمة للبطّال هي ما أورده ابن عساكر في تاريخ دمشق .

(٤) ينظر : ١٢٢٥ ، في الأمثال : ١٤٣ .



وتنبيء هذه الأمثال أيضاً عن تحول في الذوق الأدبي ، فإذ تصور لنا مصادر الأدب الشعرَ الجاهلي والأمويَّ على أنهما الغاية التي بلغها الشعر العربي ، وأنه بُدئ الشعر بامريء القيس وخُتم بذي الرُمة ـ كما يقول الأصمعي ـ نجد الضيقَ بشعر امريء القيس في قولهم : «هو أعتقُ من شعر امريء القيس» ، وبشعر الكميت ١٢١١ . مما يدل على أن الصراع بين القدماء والمحدثين من الشعراء قد حُسِم لصالح المحدثين .

وتنبئ هذه الأمثال أيضاً ، على خلاف اهتمام العلماء باللغة في هذا العصر مثل ابن جنّي ، وأبي علي الفارسي ، وابن خالويه ، ومن إليهم ، أقول : تنبيء عن ضيق الناس بالنحو واستعماله في بعض جوانب الحياة كما في قولهم : «أبردُ من مُستعمل النّحو في الحساب» .

ولا أريد أن أطيلَ في الجوانب الاجتماعية التي ضمّها هذا الكتاب ، وإنما أردت أن أنبّه الدارسين المهتمين بدراسة المجتمع العربي في العصور الإسلامية إلى ما يمكن أن يقدّم كتابُ الأمثال من أشياء اجتماعية .

ولقد كان من الممكن أن يكون هذا الكتابُ وثيقةً أخرى تقدّم لنا لغة المولّدين وتراكيبَها النحوية ، لو أن أبا بكر قيّد نفسه أن ينقل الأمثال على هيآتها التي كانت تُتداول بها ، ولكنه لم يُشعرنا في المقدمة أنه تقيّد بهذا . وإذ نحنُ نعرف تخفُّف الناس من الإعراب في هذا العصر تخففاً جعل المتنبي يقول :

وكِلْمةٍ في طريقٍ خفتُ أُعْرِبها فيُهتَدى لي ، فلم أقدِرْ على اللّحَنِ[1]

لا نجد في هذه الأمثال شيئاً من اللحن الذي وصف أبو الطيب فشُوّه في ألسنة الناس . على أننا إذا تجاوزنا أوضاع النحو ، وهي سليمة ، في هذا

---

(١) ديوانه : ١٧١ .



الكتاب وجدنا الخيال فيها ـ أعني في الأمثال ـ خيالاً مولّداً حتى لتلتبسَ هذه الأمثال بكثير من الشعر العباسي مما يفرض علينا أن نولي اهتماماً أكبر لهذه العلاقة الوثيقة المتبادلة بين الشعر العباسي والأمثال ، فلقد نقرأ قول حمّاد عجرد يهجو بشاراً :

إن بشارَ بنَ بُردٍ تيسُ اعمى في سفينه

ونحسب أن المشاكلة بين بشّار والتيس هي في الهيأة الجسمانية ، ولكنّ المثل : ٦٩٦ يقول : «وتذكر المتهوِّر الأحمق فتقول : تيسُ في سفينة» مما يدلنا أن حمّاد لم يشبه وإنما كنّى عن حُمق بشار وعن تهوّره .

ومن هذا الالتباس في الخيال بين الشعر والأمثال قول اللحّام الحرّاني :

هذا زمانُك فاختمْ بالطينِ والطينُ رَطْبُ[1]

فقوله نظمٌ للمثل : ٩١ ، ثم توسّع بدلالته .

وقوله :

كن ذكوراً يا أبا يحـ يى إذا كنتَ كذوبا[2]

فهو أيضاً نظمٌ للمثل : ١٣٩٢ .

وهناك ناحيةٌ دقيقةٌ في الالتباس بين الخيال في هذه الأمثال ، والخيال الشعري عند العباسيين هي هذا الميلُ الشديدُ إلى التشخيص مما يعني أنه من طبيعة البنية الفكرية لأبناء العصر ؛ فلقد نجد شيئاً مشتركاً بين قول الحَمدَويّ في طيلسان ابن حرب :

طال تَردادُه إلى الرَّفْوِ حتى لو بعثناهُ وحدَه لَتَهدّى[3]

---

(١) اليتيمة ٤ : ١٠٦ .

(٢) نفسه ٤ : ١٠٧ .

(٣) ثمار القلوب : ٦٠٢ .



وقول المولّدين في : ٧٢٧ « ... لو ضاعتْ صفعةٌ ما وُجدت إلا على قفاه » مما يعني أن هنالك تصوراً مشتركاً بين الشاعر ومجتمعه في تناول الأشياء ، وفي النظر إليها ، وفي التعبير عنها .

وثمة العشرات من هذه النماذج التي تؤكد العلاقة الوثيقة ـ كما قلت ـ بين الشعر العباسي وأمثال المولّدين مما يمكن أن يكتشفه القارىء بنفسه في ثنايا الكتاب ، ومما يجعلني ـ وأنا أقرأ هذه الأمثال ـ أسأل نفسي عما إذا كان المجتمع قد تبنّى الشعرَ فجعله مَثَلاً ، أم أن الشاعر قد تبنّى المثل فصاغه شعراً .

وأحب الآن أن أقفَ وقفةً قصيرة عند أصول هذه الأمثال فأقول : لم يكن من المقدّر لهذه الأمثال ـ وقد نشأت طائفة كبيرة منها في العراق والشام ـ أن تكون بمنأى عن ثقافة العراق القديم ، إذ لم يكن العراق يوم دخله الإسلامُ الحنيف خالياً من سكّانه بُناة حضارة بابل ، وسومر ، وأكّد ، فكان لابد للعرب المسلمين يوم استوطنوه أن يتأثّروا بثقافته مثلما يؤثرون فيه ، هذا إذا لم يكن العراق القديم قد أثّر ـ وهذا هو الراجح ـ في الجزيرة العربية قبل ظهور الديانات السماوية مما يجعل دراساتنا في الأدب العربي ناقصة ما لم تُعنَ بتأثير الثقافات العراقية القديمة فيه .

وإذاً ، كان من الطبيعي أن تتأثر هذه الأمثال بثقافة العراق القديم ، فكان المثل : ٩٤٨ القائل : « قال الفيلُ للبقّة : لم أحسَّ بكِ إذ وقعتِ عليّ ، فأحسَّ بك إذا طرتِ » ـ كما يبدو لي ـ تلخيصاً للقصة السومرية القائلة : إنه « وقفت مرة بعوضةٌ فوق ظهر فيل وهو يمشي ، فقالت له : هل أثقلتُ عليك يا أخي ؟ فإن كنت فعلتُ ذلك فإنني سأنزل عند بلوغِنا موردَ الماء ، فأجابها الفيلُ : من أنتِ ؟ لم أحس أنك كنت فوق ظهري ولن أعرف عندما تنزلين »[١] . وكان

---

(١) مقدمة في أدب العراق القديم : ١٨٢ .



المثل ١٨٩٧ القائل : « إن الغريب ـ وإن أُعِزّ ـ ذليل » قريباً ـ كما هو ظاهر ـ من المثل السومري « ساكن البلد الغريب مثلُ العبد »(١) لا يختلف عنه إلا قليلاً . وتعمد بعض هذه الأمثال إلى قلب الأمثال السومرية مثل : ٢١٠ القائل : « جزاءُ مقبِّل الوجعاء ضرطة » ، إذ هو ـ كما يغلب على ظني ـ معكوس المثل السومري : « أن تضرط الشابة في أثناء عناق زوجها لها أمرٌ لم يحدث منذ القدم »(٢) ، وكذلك ١٠١ : « ليس الجمالُ بالثياب » إذ هو أيضاً ـ كما يبدو ـ معكوس المثل السومري : « العيون تتجه لأحسنهم ملبساً »(٣) .

ومن باب التنبيه أيضاً أن أشير إلى أن بعض هذه الأمثال ـ على ما يبدو ـ من أصول إغريقية ، كقولهم في : ٣٥٢ « ما أشبهَ السفينةَ بالملاح » ففي التراث الإغريقي أن ديوغانس « نظر... إلى طوفِ شوك يجري به الماء ـ وعليه حيةٌ ـ فقال : ما أشبه السفينة بالملاح »(٤) ، وقولهم في : ١٣٢ « نعم الصِّهر للمرأة القبر » فهو ينطلق ـ كما يغلب على الظن ـ من نظرة بقراط إلى المرأة في قوله : « للمرأة ستران : بعلها وقبرها »(٥) .

أما الكثرة الكاثرة من هذه الأمثال فهي ـ كما هي طبيعة الأمور ـ من أصول عربية ولكنها تتفاوتُ في أزمانها . ولا أريد الآن أن أؤرِّخ لهذه الأمثال ، ولكن أريد أن أشير إلى صدق ما قاله المؤلف من أنه « كان الرجلُ في صدر الإسلام ، والآخرُ في الجاهلية يُرسل الكلمة ، فتُترك ولا يُتمثَّل بها إلا في أيام الدولة

---

(١) السابق : ١٦٠ .

(٢) السابق : ١٥٩-١٦٠ .

(٣) من هنا يبدأ التاريخ : ٧١ . وللمثل نظير عند الرومان فقد ورد في كتاب الناقد الروماني ـ كما أفادني بذلك الصديق الدكتور أبو العيد دودو ـ كانتيليان : « تعليم البلاغة » . الكتاب الثامن ، الفصل الخامس ما ترجمته : « اللباس يصنع الرجل » . وتطور على يد لوغاوس ـ كما يقول دودو ـ في « شعر الحكم الألمانية » ـ ١٦٥٤ إلى : الثياب تصنع الناس .

(٤) المجتنى : ٦٨ .

(٥) نثر الدر : ٧٢ .



العباسية »[١] . فقد وجدتُ أن طائفة من هذه الأمثال يعود إلى العصر الجاهلي وبعضها إسلامي ؛ وشيئاً منها يرجع إلى أيام الأمويين ، ولكن الغالب ـ كما هو منتظر ـ المثلُ العباسي . على أن الذي يلفت النظر أن بعض الأمثال العباسية استُحدث في عصر المؤلِّف أعني القرن الرابع .

ولستُ أطيل في تأريخ ما استطعتُ تأريخه من الأمثال ؛ لأن في حواشي الكتاب ما يكشف ذلك ، ولأنني أريد أن أُنصف الخوارزمي في كتابه هذا من الثعالبي والميداني ؛ فقد ألّف الثعالبي كتابه « التمثيل والمحاضرة » بعد وفاة أستاذه أبي بكر ، وأخذ أشياء من هذا الكتاب ـ أعني الأمثال ـ فأدرجها في كتابه مثل ؛ ٣٥ ؛ ٣٨ ؛ ٤٤ ؛ ٤٥ ؛ ٥٢ ؛ ٥٨ ؛ ٦٤ ؛ ٦٦ ؛ ٧٦ ؛ ٨٩ ؛ ٩٠ ؛ ٩٤ ؛ ٩٨ ؛ ١٠١ ؛ ١٢١ ؛ ١٢٢ ؛ ١٤٣ ؛ ١٦٨ ؛ ١٨٨ ؛ ١٩١ ؛ ٢١٠ ؛ ٢٢٩ ؛ ٢٣٨ وسوى ذلك مما هو واضح من حواشي التحقيق ، ولم يذكر هذا الكتاب في طول كتابه وعرضه حتى لكأن أبا بكر أستاذَه لم يؤلِّفه . ثم عاد الثعالبي فأفاد من هذا الكتاب في « ثمار القلوب في المضاف والمنسوب » فأفاد من ٣٧٢ ؛ ٣٨٣ ؛ ٤١٧ ؛ ٤٦١ ؛ ٤٨٥ ؛ ٦٥٥ ؛ ٦٨٨ ؛ ٧١٢ ؛ ٧٢٤ ومن سواها ثم نقل منه فنسب النقل إلى أبي بكر وأغفل ذكر الكتاب[٢] .

أما الميداني فأمرُه آخر ؛ فقد تحدث عن مصادره التي رجع إليها في مقدمة كتابه « مجمع الأمثال » ، ولم يذكر أبا بكر في هذه المقدمة ، ولم يذكر كتابه رغم أنه ـ أعني الكتاب ـ كان من مصادره المهمة في سرد أمثال المولّدين ، فقد كان يأخذ منه ـ في أحيان ـ أمثالَه حرفاً بحرف كما فعل في « لا أفعل ذلك حتى يؤوب المثلَّم » فقد نقله ، ونقل قصته بتمامها وحروفها إلا في جملة واحدة هي قول الخوارزمي « ... فلما توسّطها حكَموا... »[٣] فقد شرح الميداني هذه

---

(١) مقدمة المؤلف : ١١

(٢) ينظر ثمار القلوب

(٣) مقدمة المؤلف : ٤٠



الجملة بقوله : «... فلما توسطها رفعوا أصواتهم : أن لا حَكم إلا الله»[1] وكما صنع بـ١٤١٢ فهو عند الخوارزمي : «إن السِّنَّوْر الصَّيّاح لا يصطادُ شيئاً . أي الفأر يأخذ منه حذره فيفوته» ، وهو عند الميداني : «السنّور الصيّاح لا يصطاد شيئاً . لأن الفأر يأخذ منه حذره»[2] فقد أخذه الميداني إلا شيئين هما «إنّ» لأنه يريد إدراجه في حرف السين ، و«فيفوته» ؛ لأنه رآها ـ كما يبدو ـ تحصيل حاصل . وكذلك صنع بـ١٥٤١ فقد فسّره أبو بكر بقوله : «ويقولون في الفاسق النكد في كل أحواله» وفسّره الميداني بقوله : «يُضربُ للفاسق النكد في جميع أحواله»[3] . وكما صنع في سوى هذه الأمثال مما هو واضح في حواشي التحقيق .

وكان ينقل الميداني طائفة من هذه الأمثال فيتصرّف قليلاً في مضرب المثل كما فعل ـ على سبيل المثال ـ في ٦٢٩ ؛ ٦٦٥ ؛ ٨٩٨ ؛ ٩٣٧ ؛ ٩٥٦ ؛ ٩٥٩ ؛ ١٠٠٧ ؛ ١٥٣٥ ؛ وهكذا .

وكان حين يقع في باب من أبواب كتابنا على أمثال توافق ترتيبه الهجائي ينقلها بتسلسلها كما في ١٠٩ ، ١١٠ ، وفي ٣٠١ ؛ ٣٠٥ ؛ ٣٠٦ ، وفي أمثال أخرى . وكان تتبُّع هذا التسلسل على أوضح ما يكون في نقله أيام الإسلام من هنا ، فقد كاد يُطابقها بأسمائها وبشروحها إلا ما كان منها فيه شيء ، فقد نقل ـ على سبيل المثال ـ يوم عين التمر ، ويوم جُواثى متسلسلين ، وكان من المنتظر أن يذكر بعدهما يوم النُّجيْر ، ولكنه لم يفعل ، فقفز عليه إلى الذي بعده أعني : يوم صنعاء[4] ؛ لأن النجير قد تحرَّف في الأصل على «الحير» فلم يطمئن ـ كما يبدو ـ إليه فأهمله ، وكذلك فعل في «يوم الراهب» فقد أهمله ؛

---

(١) مجمع الأمثال ١ : ٢١٥ .

(٢) السابق ١ : ٣٥٧ . وهذا من مصاديق ظن زلهايم في الأمثال العربية : ٢١٧ حاشية .

(٣) السابق ٢ : ١٧٢ .

(٤) ينظر السابق ٢ : ٤٤٥ .



لأنه ـ كما يبدو ـ يوم غير معروف ، وما يقال عن يوم الراهب يمكن أن يقال عن «يوم الهنيّ» . ولا أحبّ أن أتحدّث عما تصحّف من هذه الأيام في المجمع لأنني أحب أن أميل إلى أن المحقق هو الذي صحّف ؛ فقد ورد فيه يوم «جُبابة السُّبيع» والصواب أنه «جبّانة السَّبِيع» ، و«يوم النجراء» والصواب : يوم البخراء ، و«يوم دَشْنَبى»[1] والصواب : يوم دَسْتَبى ، و«يوم سكن» والصواب : يوم مَسْكِن ، و«يوم تل مَجرى» والصواب : تل محرى . على أنه من الأمانة أن أقول : إن يومي مسكن وتل محرى قد وردا مصَحَّفين في مخطوطتنا كما تصحّفا في المجمع . فهل كان أصل نسختنا المخطوطة بين يدي الميداني أم أن المحقق هو الذي صحّف ؟

هذا إلى أن فكرة ذكر أيام العرب في كتاب ينعقد على الأمثال هي ـ كما يبدو ـ من بَدَوات الخوارزمي ، إذ لم نجد باباً للأيام في كتب الأمثال التي سبقت هذا الكتاب .

وإذاً ، فقد نخل الميداني هذا الكتاب فأخذ منه أكثر أمثاله ، ولم يذكره إلا مرة واحدة ذكراً أقرب إلى التضليل منه إلى الاعتراف وذلك حين عرض إلى تفسير «أجْور مِن قاضي سدوم» فقد قال : «قالوا : سدوم... مدينة... قال الطبري : هو ملك من بقايا اليونانية غشوم»[2] .

ومهما يكن من أمر فحسبُ أبي بكرٍ فخراً أن عمد إلى تدوين ثقافة العامة في العراق والشام من خلال أمثالهم ، مما درَج المؤلّفون الآخرون ـ في العادة ـ على احتقاره ، فكان في ذلك رائداً بحقّ ، وحقيق .

(١) ينظر السابق ٢ : ٤٤٦-٤٤٧ .
(٢) المجمع ١ : ١٩٠ .



علي جواد الطاهر

(شهادة حقّ وليس رثاءً)

كنتُ أسمعُ بالأستاذ العلاّمة علي جواد الطاهر ، كما يسمعُ به غيري ، وكنتُ أُعجبُ به كما يُعجَبُ غيري ، ولكن بين إعجابٍ وإعجابٍ بَوْنٌ ، فقد كنتُ معجباً بطراوة أسلوبه مقالياً من الطراز الأوّل ، على حين كان الآخرون يُعجبون بالاثنين معاً ، علمِه ، وطراوة أسلوبِه . ولا شكَّ أنَّ إعجابَهم كان أرقى من إعجابي ، ولكنَّ سنّي يومذاك لم تكن تؤهّلني أن أرقى إلى فهمِهم ما يقول ، فكان حسبي من هذا الذي يقول هذه اللغةُ الساحرةُ التي تتصوَّر وأنت تقرؤها أنها خُلقت له وحدَه على وفق ما يشتهي .

واقتربتُ من فهم بعض علمه ـ أو كدتُ ـ في آخر عامٍ من أعوام دراستي الثانويّة ؛ فقد كانَ علينا أن ندرسَ كتابه المقرَّر من وزارة المعارف العراقية «النقد الأدبي» ، وأن نؤدّي امتحاناً فيه . أقول : اقتربتُ من بعض علمِه ولا أعني أنني بدأتُ أفهمُ جيّداً ما يقول ؛ ولكنَّ الذي استطعتُ أن أفهمه منه أنَّ كتابَه لم يكن يُشبِه كتاب الراحل العلاّمة الأستاذ مصطفى جواد وزملائه ؛ فقد كان يُرادُ لكتاب العلاّمة مصطفى جواد وزملائه عن «تأريخ الأدب العربيّ» أن يكون عمامةَ أبي سعيد السيرافيّ تُوضَع على رأس غلامٍ راهقَ الحلمَ أوكاد ؛ مما جعلنا نأبى لبس هذه العمامة التي لم نكن نعرف قدرها حقَّ معرفته . أمّا كتابُ الراحل الطاهر فقد كان مثل كتابِ جوادٍ وزيادة بما جمع بين الشرق والغرب ، والقديم



والمعاصر ، والتراث والحداثة ، ولكنْ كان فيه سرٌّ آخر لم يكن في كتاب العلاّمة مصطفى جواد هو ، أخذُنا هذا الأخذَ الليِّنَ المحبَّبَ إلينا أن نتعلَّم وأن نفرح بما تَعلّمنا ، وأن نعرف ما هو الأدب لا نظرياً ، وإنَّما بمَثَلٍ قريبٍ من معارفنا ، ودروسنا ، ومستويات إدراكنا . وهل أقربُ إلينا من أن تكون أمثِلةُ الأدبِ الذي هو كالزنبق في زوغان تحديده من علم الأحياء الذي درسنا ومن علم النبات ؟

كان الأدب قبل أن نعرف كتاب العلاّمة الطاهر محفوظاتٍ ثقيلةً نستظهرها أحببناها أم لم نحببها ، أما حين بدأنا بدراسة كتاب الطاهر فقد أصبح أمرنا وأمرُ الأدب شيئاً آخر ، فقد أصبح الأدبُ حياتنا التي نعيش ، والهواء الذي ينبغي أن نتنفَّس . أو هكذا خُيِّلَ إلينا .

قال لنا العلاّمة الطاهر في أول صفحةٍ من صفحات كتابِه «النقد الأدبي» ما مؤدّاه : يمرُّ عالِمُ نبات في غابةٍ فيرى ورقةً صفراء فيقف عندها ليقول لك شيئاً عن الصبغة الخضراء التي جفَّتْ ، وأشياء عن تأثير الضوء في هذه الصبغة ، وهكذا . ويمرُّ الأديب بالغابة نفسها ، والورقة الصفراء نفسها ، ويتأثَّرُ بما يرى فماذا سيقول ؟ لا أتذكَّرُ الآن قطعة الرثاء المؤثِّرة التي ساقَها ، ولكنّني أتذكَّر كيف استقر في أذهاننا ـ نحن الصبيان ـ مفهوم الأدب ، وأتذكَّر أنَّ منّا مَن زعم لنفسِه أنّه أحبَّ الأدبَ ـ وكان كاتبُ هذه السطور واحداً من هؤلاء الزاعمين ـ وأنّه يجبُ أن يربط مستقبلَه به ، وهكذا .

وصار كتابُ النقد الأدبي من الكتب التي لا تُرمى حال الوصول إلى البيت كما يرمى سواه من الأعباء المدرسيَّة .

إنّه كتابٌ يعلّمنا فضلاً عن الشعر ، والقصّة ، والمسرحيَّة ، والمقالة ، والزيّات وموبسان ، والجاحظ ، وسانت بيف ، يُعلّمنا هذه الطراوة في الأسلوب وهذه القدرة على تقديم المعلومات كما لو أنها معلوماتنا نحن .

ولكن متى سترى الطاهر ؟



لا بدَّ من صنعا وإن طال السفر .

والطريق إلى صنعاءِ الطاهرِ هو أن تكون طالباً في قسم اللغة العربية من كليّة الآداب ، وهو أن تجدَّ وتجتهد لتبلغ السنة الثانية من دراستك في القسم .

وألحَّ والدي عليه رحمةُ الله واستماتَ في إلحاحه أن أنتمي إلى كليّة الفقه في النجف الأشرف أدرسُ فيها العربية وعلوم الدين ـ بعد أن رأى إلحاح ابنه على دراسة العربية ـ فكان من توفيق الله وحدَه أن رفض أحدُ رجال الدين المتزمّتين قبولي في كلية الفقه لأسبابٍ لا تتعلق بشيءٍ اسمُه دراسةٌ أو مستوًى دراسيّ .

وكان معنى ذلك أن أكون من طلاّب الآداب ، وأن أدرس على الدكتور الطاهر ، وإذ وضعتُ قدميَّ على بابها الذي يؤدّيني إلى الطاهر والعربية ، وجدتُ أنّ الممرَّ الذي يتّصل به الباب يمكنُ أن يؤدّيني إلى قسم التأريخ ، أو الآثار ، أو الفلسفة وليس اللغة العربية وآدابها ؛ لأنَّ معدّل الدرجات التي حُزتُ عليها في البكالوريا تؤهّلني لما هو أعلى من قسم العربيّة . ولم أكنْ أظنُّ أنّ هنالك أُمّةً تحتقر لغتَها على هذه الصورة ، فتربأ بمن تظنُّ أنَّ نتيجة امتحانه توحي بشيءٍ من النباهة أن يدرس العربية وأن يتخصَّص فيها . ويسَّر الله تذليل تلك العقبة بفضل إصرار صاحب الحق الأعلى أن يرضى بما هو أدنى .

وكانَ ما أردتُ . فهذا هو قسمُ اللغة العربية .

ولم يكن من أساتذتي فيه الدكتورُ الطاهر ؛ لأنه كان عليَّ أن أجدَّ وأن أجتهد ، وكان عليَّ أن أستعجل العمر ـ كما قلتُ ـ لكي أكون في رحابِ الدكتور الطاهر .

وأتممتُ كلَّ ذلك ، وإذا بالطاهر بلحمِه ودمِه أمامَنا يدرِّسنا مادّة « منهج البحث الأدبي » ، وكان انطباعي الأوّلُ عنه طائفةً من مشاعرَ متضاربةٍ متنافرةٍ لعلّها أقربُ ما تكون إلى خيبةِ الأملِ منها إلى شيءٍ آخر ؛ فقد رأيتُ الفقيد



يتحدَث وهو من الأناة في حديثِه كأنَّه يتلجلجُ ، ويقرِّرُ ما يراهُ وكأنَّ في نفسِه شيئاً مما قرَّر ، ويُقدِم على الرأي وكأنَّه مُحجِمٌ عنه ، وهكذا .

ولكن كان علينا مع هذا وذاك أن نفخر على زملائنا من الشُعب الدراسية الأخرى في قسمنا أن أستاذنا هو الدكتور الطاهر ، وأنَّ أساتذتهم من تلاميذه .

ويتخلى الانطباعُ الأول عن مكانِه للإعجاب التّامِّ بالدقَّة في تقريرالرأيِ ، وبالأناة في اختيار الكلمة المناسبة التي تنقل الرأي كما يريد له صاحبُه لايزيد ولا ينقصُ ، وبتقصّي ما قيل وما يُقالُ لغربلة المسألة .

حدث كلُّ هذا ونحن في المحاضرة الثانية ، أو الثالثة من محاضراتِه ، وكأنَّنا أدركنا أننا أمام أستاذٍ من طينةٍ أخرى لا يُشبِه مَن عَرفنا من أساتذتنا الأجلاّء . وبعبارة أخرى قرَّر النابهون منّا أن يتعلَّموا منه شيئين : منهج البحث الأدبي ، والدّقة التي تكاد تكونُ وسواساً عنده .

أما كاتبُ هذه السطور فقد كان الفقيد - تغمَّدَه الله برحمتِه ورضوانِه - قد ادَّخر له على غير انتظارٍ منه درساً آخرَ لك أن تُسمِّيه ما شئتَ من تسمياتٍ ، أما هو فلا يعرف من هذه التسميات إلاّ ما يفرِّق به بين الأب الأستاذ ، والأستاذ . وإذا كان الأستاذُ ممن يعلِّمك ، فإنَّ الأب الأستاذ ممن يُعلِّمك فيوجِّه حياتك إذ يُعلِّمك ، وهكذا وجَّه حياتي العلاَّمةُ الطاهرُ ، كما وجَّه حيوات المئاتِ من طلاّب علمِه ، بحادثةٍ أرجو ألاّ أُثقِل على الآخرين برواية شيء منها ؛ فأقول :

انعقد في بغداد مؤتمر الأدباء العرب ، ومهرجان الشعر العربيّ في شهر نيسان (أبريل) من عام : ١٩٦٩م ، وكان الأديب العراقيُّ المرحوم بسيم الذويب قد أصدر سلسلةً من كُتَيِّباتٍ أسماها «شعراء المهرجان» ؛ ينقد فيها الشعراء المجوّدين ممن يُلقون قصائد فيه . وإذ ألقى الجواهريُّ قصيدتَه في المهرجان التي مطلعها :



يا ابن الفراتينِ قد أصغى لك البلَدُ   زعمـاً بأنك فيـه الصادحُ الفـردُ

كان لابُدَّ للذويب أن يخصِّص واحداً من كُتَيِّباتِه لقصيدة الجواهري . وصدر الكتيّبُ فعلاً ، وإذا بي أجدُ فيه من التحامل على الجواهري وعلى قصيدته أكثر مما وجدتُه فيه من النقد ، مما جعلَ دماء الشباب وتوصية الطاهر بالموضوعية في النقد تفوران برأسي ؛ فأكتبُ إلى جريدة «النور» العراقية مقالاً أنقد فيه نقد الأستاذ المرحوم الذويب للقصيدة ، فاستغرق ذلك المقال على ما أذكر الصفحة الثقافية من الجريدة بكاملها .

وكان نشرُ المقال مما يفرحني ، ولكنَّ الذي وجَّه حياتي بصورةٍ مباشرةٍ مرَّةً ، وغير مباشرةٍ مرَّةً أخرى هو ما صوَّر لي الدكتور الطاهر ـ بعد إذ قرأ المقالة ـ من أمر مستقبلي ما صوَّر ؛ فوجَّه بذلك حياتي . وأرجو ألاّ تسألني بعد ذلك إن كان أصاب في التوجيه أم أخطأ فحسبُ الدليل الخرِّيت أن يُعيِّن لك الاتّجاه وليس عليه أن تضلَّ فلا تصل .

وللدكتور الطاهر من روح العلم في إنصاف الأشياء ما لايتهيَّأ لسواه إلاّ نادراً ؛ فقد عرض وهو يدرِّسنا النقد الأدبيَّ إلى حركة الشعر الحرَّ في العالم ثمَّ عرَّج على الحركة عند العرب ، فكانَ لا بدَّ له أن يعرض لبدايتها في العراق ، وإذ بدأ بها سرَح هنيهةً ثمَّ قال :

ـ لو كانت الجامعةُ جامعةً لا تلتزمُ بالأوراق التي تسميها شهادات الأساتذة ، لكان سعدي يوسف ـ وسعدي من أبرز شعراء الحركة بعد المرحوم السيّاب ـ أولى بهذا الكرسيّ منّي لنسمع رأيَه ونناقشه .

وكان هذا درساً آخر من الدروس العميقة التي يلقيها الدكتور الطاهرُ يعلِّمنا بها أن نأتي البيوتَ من أبوابها .

ودرسٌ ثانٍ تعلَّمناهُ من ملاحظتِه هو أنَّ ما وقر في أذهاننا من أنَّ الأدب لعبةٌ ، وأنَّ الشعرَ نزوةٌ ليس صحيحاً .

كان يريد أن يقول لنا بأوضح صورةٍ ، ولكن بجملةٍ غير مباشرة : إنَّ حركة الشعر الحُرّ قامت على فلسفةٍ ، وعلى رؤيةٍ يحسنُ بنا أن نسمعهما من بعضٍ من يدعو إليها قبل أن نحكم عليها .

هذا وقد بلغ الدكتور الطاهرُ من القَرَفِ في ثمانينيّات هذا القرن بحركة الحداثة الشعريّة بحيث كتب لي ـ وهو المتذوّق المتذوّق ـ يوم كنتُ في الجزائر أنّه يُفكِّر أن يدعو إلى «الشعرِالأدبيِّ» (هكذا سمّاه) ، يعني بذلك أنَّ هذا الشعر الحديث بمقدار ما اقترب مما يريد ابتعد عن الذوق العربيِّ فلم يعُد يُحرِّك فيه شيئاً .

وإن أنسَ لا أنسَ حديثاً تجاذبنا أطرافه ـ سعدي يوسف وأنا ـ فتعجَّب الشاعرُ الكبيرُ سعدي من عدم إعجاب الطاهر بتجاربِه في القصيدة الحديثة بعد ديوانه «الأخضر بن يوسف ومشاغله» .

ولم يكن الدكتور الطاهرُ مؤهَّلاً أن يُعجبَ بالتجريب في القصيدة إذا لم يُعجبْ بالتجربة ، ومن ذا يلوم عبدَ القاهر الجرجاني على موازنته بين الجسر والجسر ؟ ومن ذا الذي يلوم القاضي عليَّ بن عبد العزيز الجرجانيَّ وهو يريك أبا تمام في حاليْ كزازتِه ، وطلاوتِه ؟

وإذاً فلم يكن الطاهرُ ملوماً أن يكون عبدَ القاهر بذوقِه ، وعليَّ بن عبد العزيز الجرجانيَّ في ثقافته وإنصافِه .

وإذ ينصفُ الدكتورُ الطاهرُ الأشياء كان عليه أن ينصف أصحابَ هذه الأشياء أعني المبدِعين ـ وكانت شغلَه الشاغلَ في الإبداع القصَّةُ ـ وقد جرَّت عليه روحُ الإنصاف هذه من عداوات ضعاف المواهب ما جرَّت ، فلم يضعُف ولم يهِن ؛ حتى لكأنه لم يسمع بهذه العداوة ، وأريدُ أن أذكرَ حادثةً واحدةً من هذه الحوادث ، وهي أن صدرت للقاص العراقيِّ يوسف الحيدري مجموعةٌ قصصيةٌ تحت عنوان : «حين يجفُّ البحر» فكتب الدكتور الطاهر مقالةً في مجلة الكلمة



التي كانت تصدر بمدينة النجف عنوانها : «وإذ يُولدُ جيل» فما رأيتُ عاصفةً شفويَّةً هبَّت على أحدٍ كما هبَّت على الفقيد الطاهر . وكانت هذه العاصفة قد هبَّت من القصّاصين العراقيين الذين يعلنون عن أنفسهم بمناسبة وبدون مناسبة ـ ومصطلح إعلان الأديب عن نفسه من مصطلحات الدكتور الطاهر التي يحتقرها ويحتقر أصحابها ـ أقول : هبَّت من القصاصين الذين كانوا يُعلنون عن أنفسهم ويظنّون أنهم مُجوّدون أكثر من يوسف الحيدري عاصفةً على الفقيد الطاهر . أمّا الذي لم يُعلنوه وهم يثيرون العاصفة على الدكتور الطاهر أنه كتب عن يوسف الحيدري ولم يكتب عنهم ، لأنهم كانوا يعتقدون في قرارة أنفسهم أنَّ كتابة الدكتور الطاهر عن أيِّ أحدٍ منهم هي جوازُ المرور إلى عالَم الأدب ، والتجويد فيه .

وسمعتُ منه ذاتَ يومٍ ونحنُ نتحدّثُ عن شرطِه الذي كرَّره في معظم كتبه من أنه لا بدَّ للناقد لكي يكون ناقداً أن يُلمَّ ـ على الأقلّ ـ بلغةٍ أجنبيَّةٍ واحدةٍ ، أقول سمعتُ منه أنّه يجبُ عليه أن يعدِّل رأيَه بهذا الشرطِ . وكان قد غيَّر رأيَه في ضرورة عدم التمسّك بهذا الشرط بعد أن صدر كتابُ تلميذه الدكتورعبد الإله أحمد عن القصة العراقية ؛ لأنَّ الدكتور عبد الإله كتب كتاباً ممتازاً في تأريخ القصة العراقية على الرغم من أنّه لا يعرف لغةً أجنبيةً يقرأ بها أصول هذا الفنّ الغربيّ . هذا ولم أسمع من الفقيد أنه قال : إنَّ عبد الإله من تلاميذه وإنما سمعتُ ذلك من الصديق العزيز عبد الإله نفسِه .

وتحدّثتُ عن روح الإنصاف هذه عندَهُ ، وسُقتُ كلَّ ما سُقتُ عامداً من شواهد في الأدب المعاصر ، أريدُ من خلال ذلك أن أوحي إلى القارئ الذي لا يعرفُ مقدار الخسارة بفقيدنا أنّنا فقدنا واحداً من أدبائنا المعاصرين فحسب ، ولكن الخسارة أفدحُ ، والمصيبةُ أعمُّ .

لقد كان علي جواد الطاهر أُمَّةً في أُمَّة .



ولأنَّ هذه الأمَّة ماتزالُ أمَّةً حيَّةً ، فقد هيّأ اللهُ لها علاّمة الجزيرة الشيخ حمد الجاسر يُعنى بمثل هذا الرجل ؛ ولا يعرفُ الفضل إلاّ ذووه ، ولو كان قد تهيّأ للطاهر غيرُ الجاسر لكان ذلك موضعَ عجبٍ . أمّا والعلاّمة الجاسر يُعنى بالعلاّمة الطاهر فلا عجبٌ ، ولا بُعدٌ ، ولا قُربٌ ؛ لأنَّ تلك هي طبيعة الأشياء . ولا يعرفُ الفضل ـ كما قلتُ ـ إلاّ ذووه .

ويبقى للطاهر سرُّه أن تحتفل به مجلّةُ « العربُ » الغرّاءُ وهي ما هي في حفظ تراث العرب ، وتعتزَّ بنتاجه بمقدار ما كانت تحتفلُ به « الآدابُ » ، وهي ما هي في الحداثة والمعاصرة . وبمقدار ما عزَّ فقدُه على : « الثقافة الجديدة » .

تلكم هي ثقافة الدكتور الطاهر ، بل إنّها الدكتور الطاهر نفسُه . تقرأ له كتابَه : « الشعرُ العربيُّ في العراق وبلاد العجم في العصر السلجوقيِّ » فتظنّه لا يحسنُ غير أدب العصر السلجوقيِّ شأنُه في ذلك شأن مئات الدكاترة العرب الذين يتخصّصون في موضوع فلا يبرحونه ، وتقرأ له : « الابن وسبع قصص أخرى » فتظنَ أنّه أديبٌ لايحسنُ إلاّ الفرنسيَّة ؛ أدّاه ذلك الإعجابُ بقصص بعض الأدباء الفرنسيّين أن يشرك في إعجابه نفراً من أدباء العربية . ويغيبُ عمَّن لا يعرفه أنّه لم يكن لا هذا ولا ذاك ، وإنَّما كانَ الطاهرُ حُلمَ أمَّة تريد أن تُتقنَ حاضرها دون أن تعتبر هذا الحاضر مما يُلغي كيانها وكينونتها . وتلك هي عظمة علي جواد الطاهر ، وأرجو أن تغفر لي روحُه الطاهرةُ ـ حين أوازنُ بينه وبين الدكتور طه حسين ـ فقد كان يرى عميدُ الأدب العربي في كتابه : « مستقبل الثقافة في مصر » ألاّ سبيل لنا لكي نتقدَّم إلاّ حين نسلك طريق أوربا لا لشيءٍ إلاّ لتشاطُئِنا في البحر الأبيض المتوسّط . على حين كان علي جواد الطاهر وهو يدعونا أن نستفيد من حضارة الغرب يشترطُ علينا ألاّ نذوب فيها .

وأعودُ الآنَ أريدُ أن أتحدّثُ عن جانبيه معاً وهما : جانبُ الإنصاف في شخصيّته ، هذا الإنصاف الذي جعله يكتبُ بإجلالٍ عن العلماء الذين التقى بهم



وتتلمذ لهم ، والذين لم يتتلمذ لهم ، وجانبُ هذا الجمع العجيب بين الثقافتين ، والهضم الرائع لهما معا ؛ حتّى لتظنّ أنّه أبو الحسن الأسواري ـ كما صوَّره الجاحظُ ـ في تمكنِّه من لغتي عصرِه : العربية والفارسية .

فأمّا معرفةُ الفقيد الراحل بما هو من لغاتِ عصره أعني بذلك : الفرنسية فلا يكادُ يجدُ مَن يبحث عنها كما هي عند الدكتور طه حسين والدكتور محمد مندور وأضرابهما من الأساتذة الكبار شيئاً ، ولايكادُ يجدُ لها أثراً في كتاباته ، وأما من يبحث عنها منهجاً واستفادةً وعمقاً ، ويكون كلُّ ذلك مصبوغاً بطابع عربيٍّ هو طابع الفقيد الطاهر فإنّه ليجدُ ذلك في كلّ ما كتَبَ ، وألّف ، لأنَّ الحضارةَ أيّة حضارةٍ هي روحٌ عندَه وليست قشوراً . وهل أبلغُ من أن يكونَ خرّيجَ السوربون ـ أيام كان سوربوناً ، وتلميذَ ريجيس بلاشير ـ ثمَّ لا يمنعه ذلك من أن يرى في أستاذٍ من أساتذةِ المرحلة الثانويَّة الذين درَّسوهُ بمدينته مدينة الحلّة ، أعني به الأستاذ المهنّا ، مثلاً من الأمثلة في حياته حتى لتجده يقول عنه : «درَّسنا التاريخ القديمَ وكأنه عاش مع السومريين ، وإذا قلنا هذه بابلُ ، وهو يعرفها فما قولك في أثينة وإسبرطة ؟ إنّه عاش فيها دون شكٍّ ورأى الحضارةَ اليونانيَّة عن كثب . ودرَّسنا اللغةَ العربية ، وهنا لا نُطيلُ فهو ابنها وأبوها ، هو نحويٌّ إن أردتَ النحوَ ، وصرفيٌّ إن طلبتَ الصرفَ ، ومؤرّخٌ للأدب إن أردتَ تأريخ الأدب...»[1] بل ويبلغ تقدير الطاهر لأستاذه القدير أن يصبح الدكتورُ عليُّ جواد الطاهر العلاّمةَ الطاهرَ ، ثُمَّ لا يُنسيه ذلك محمد أحمد المهنّا أستاذاً من أساتذته في الثانوية ، وربّما المتوسّطة .

كان الطاهرُ أمّةً في أمّة ، أجل ، كان وحدَه أمّةً في أمّة شأنه في ذلك شأنُ القليل من علمائنا أطال الله في أعمار من بقي منهم وتغمّد من اصطفاه منهم برحمته .

---

(١) أساتذتي ومقالات أخرى للدكتور الطاهر : ٦٠ .



وأريد أن أرجع الآن إلى ما كنتُ فيه من شأن معرفتِه الفرنسية (وقد كان يتقنُ الإنكليزية أيضاً) فأقول :

إنَّه لا يحقُّ لي أن أشهد على فرنسيته التي يُرادُ لها أن تُشبِه ما يتباهى به الآخرون ، وحاشاه ، حين يتباهون تباهياً أجوف باللغة التي يعرفونها ؛ فسأدع الشاعر خليل الخوري يتحدث عن الفقيد . وخليل الخوري من معرفة الفرنسية بحيث أُنيط به تحرير مجلَّة «العراق اليوم» عشرين سنةً أو أكثر أو أقلَّ ، وبحيث ترجمَ إلى العربية من الفرنسية شاعراً من أصعب شعرانها لغةً ومجازاتٍ بسبب حداثته الشعرية هو آرثور رامبو ، ولكنَّ كلَّ هذا لم يمنع الشاعر خليل الخوري أن يقول بعد أن راجع الفقيدُ الطاهر ترجمتَه كتاب هنري ترويا عن تشيخوف : « ... إنَّني مدينٌ ، كثير الدين ، للشيخ العلاّمة علي جواد الطاهر ، دكتوراً وإنساناً . فقد تتَبعَ في مراجعتِه الترجمة كلَّ كلمةٍ وكلَّ حرفٍ في النصَّينِ ، وكان لملاحظاته أثرٌ كبيرٌ في تسديد هفواتٍ كثيرة... كان في دقَّته أثرٌ كبيرٌ في إرشادي إلى الأخطاء... وإذا كان لي أن أضيف فما أجدُه على لساني الآونةَ أنَّ الدكتور الطاهر كان مفاجأتي وغبطتي معاً . فما كنتُ أعرفُه عنهُ كثيرٌ ، لكنَّ ما تمَّت [الأصل : لكن اما تمت] لي معرفتُه عنه ، عبر الاحتكاك بهذه السيرة عن تشيخوف ، يقنعني للمرة الألف أن درب الكمال في المعرفة والتخصص تحتاجُ إلى من هم مثلُ الدكتور... »[1] .

أرأيتَ بعد هذا شهادةً أرقى من هذه الشهادة تُقالُ في رجلٍ لا يعلمُ كثيرٌ من الناس أنَّه يتقن اللغتين الفرنسية والإنكليزية ، أمَّا لماذا لا يعلمون فلأنَّ اللغة الأجنبيَّة لا تكون من أدواتِه في المعرفة حتَّى تتعلَّم الألفباء العربية ، وحتَّى تكون في خدمتها .

(١) تشيخوف : ٥-٦ ترجمة خليل الخوري ، مراجعة د . علي جواد الطاهر ، وزارة الثقافة والإعلام العراقية ، بغداد ، ١٩٨٧ .



أمّا إكبارُه للعلم والعلماء فحسبُك منه كتابه : «أساتذتي ومقالاتٌ أخرى»[1] وإذا كان من حقِّك أن تعدَّ حديثَه فيه عن : مصطفى جواد وطه الراوي ، ومحمد مهدي البصير وفاءً ؛ لأنَّ هؤلاء من أساتذته الذين تتلمذ لهم فأجلَّهم فلا أظنُّ أن من حقِّك أن يطَّرد مقياسك هذا فتعدَّ حديثه عن طه أحمد إبراهيم ، ومصطفى عبد اللطيف السحرتي ، وحمد الجاسر ، وسواهم وقد أدرج هؤلاء جميعاً تحت باب أساتذته ـ ولم يكن تتلمذ لهم ـ من ذلك الباب نفسِه .

إنَّ حديثه عن هؤلاء ضربٌ من إكبار العلماء ، ولو لم يكن الأمرُ كذلك لكان أثنى عليهم بما ليس فيهم ، ولكنَّه قال ما قال ولم يجرؤ أحدٌ أن يسأل لماذا قال لأنه ما تزالُ ـ ولله الحمدُ ـ للعلم حرمتُه ، وثِقلُه ، ولأنه لم يقل عنهم شيئاً ليس فيهم ، وحاشاه أن يتزيَّد مهما بلغ إعجابُه . ولك بعد ذلك أن ترجع إلى كتابه نفسِه فيغنيك عن مطالبتي أن أُفسِّر لك ما يبدو على أنه ضربٌ من التأليف بين المتناقضات عندَه ؛ وإلاَّ فما الذي يجمع عندك بين السحرتي واهتمامه بالشعر الحديث ، وطه أحمد إبراهيم وهوَسهِ بالنقد الأدبيِ عند العرب هوساً جعل كلَّ من كتَبَ بعدَه في النقد عند العرب ـ كما قال الطاهرُ وهو على حاقِّ الحقِّ ـ عيالاً عليه ، ماالذي يجمع هذين وسواهما ممن لم أذكر بالشيخ حمد الجاسر صاحب «العرب» ولن أقول لك شيئاً عما خُلق له من علمٍ عجيبٍ في جغرافية الجزيزة والأنساب ، لأنني لا أحِبُّ أن أنقل التَّمرَ إلى هَجَر ، ولا العِنَبَ إلى الطائف .

أقول : ما الذي يجمعُ بين هذين وسواهما مع الشيخ حمد الجاسر ؟

أيُّها المُنكِحُ الثريّا سُهيلاً عمرك اللهُ كيفَ يلتقيانِ
هي نجديَّةٌ إذا ما استهلَّتْ وسهيلٌ إذا استقلَّ يماني

(١) صدر عن دار الشؤون الثقافية في وزارة الإعلام العراقية ، بغداد ، ١٩٨٧م .



إنّ الذي يجمعهم أنّهم من منزلٍ واحدٍ هو العِلمُ الحقُّ وهو الإخلاص لهذا العلم أيّاً كان منزعُه ، وإيّاك إيّاك أن تصدِّق عمر بن أبي ربيعة المخزومي وتكذِّب عليَّ بن الحاج جواد الطاهر ، فلم يُعرَف عن ابن الحاج جواد الطاهر أنّه كذِبَ في حياتِه . وسترى بعد هذا من حديث صدقه ما دمعت له عيناي .

هذا إلى أنّ الدكتور الطاهر الذي رأيتَ من ثنائه الصادق على العلماء ما رأيتَ كتبَ إليَّ ـ وأنا في الجزائر ـ قبل أن تُحيلَه جامعةُ بغداد على التقاعد وهو دون السنِّ القانونيّةِ :

خـــزِيتْ بغـــدادُ من بلدٍ كلُّ شيءٍ فـــيـــه مـــقلوبُ

أقول كتب إليَّ وهو يضحك مما بلغته جامعة بغداد من تهاونٍ في العلم فقال في رسالتِه المؤرَّخة في ١٩٨٠/٣/٢٤ :

« ... أما طلبة الماجستير فقد تعدَّوا ـ والحمدُ لله ـ الخمسين .

من الموضوعاتِ التي سجَّلها طلبةُ الماجستير : (ابن يعيش في شرحِه المفصَّل للزمخشري) ومن الموضوعات التي ستسجَّلُ : (البلاغة عند السيوطي) والحبلُ على الجرار ، وقد أتفضَّلُ باقتراحِ موضوع : (البلاغة عند الصفدي) و(عبقريّة شعر الموصل في القرن الحادي عشر)... ولا نطيلُ والخيرُ كلُّ الخير فيما حصل... » .

لم يكن الدكتور الطاهرُ يُحبُّ الكذبَ لا أبيضَ ولا أسودَ ، وسأروي له موقفين من صدقِه العجيب العجيب أحدُهما خبرتُه بنفسي يوم اقترح عليَّ عنوان رسالتي للماجستير عن : «الشعر في الكوفة منذ منتصف القرن الثاني حتى نهاية القرن الثالث للهجرة» ووُفِّقتُ في كتابتها ، وأجازني بطبعها فما راعني إلاّ أن أجِدَ يوماً من يعرفني ومن لا يعرفني من زملائي يبلِّغني بأنَّ الدكتور الطاهر قد جاء إلى الكليّة بشكلٍ خاصٍ لعله يراني ، فما أذكرُ أنني ارتعتُ يوماً كما ارتعتُ ذلك اليومَ . وكان لا بدَّ لي ارتعتُ أم لم أرتَعْ أن أتّصل به هاتفياً في بيتِه



ـ وكان يومذاك في شارع فلسطين ببغداد ـ أرى الذي حَزَبَهُ من الأمر . وإذ اتَّصلتُ به وأنا لا أكادُ أملكُ صوتي قلقاً وهيبةً واحتراماً إذا به كعادتِه من الأناة في الحديث يسألني :

ـ أين وصلتَ بطباعةِ رسالتك ؟

ـ أوشكُ على الانتهاء أستاذي الكريم ، فلم يبق لي إلاّ جزءٌ من الملحق الذي أُعرِّف فيه بالشعراء ، وأسردُ مصادر ترجمتهم .

ـ طيِّب ، ولكن هنالك مشكلة أرجو أن تأخذها بحجمها .

ـ يا ستّار استر (هكذا قلتُ في نفسي) ، وكان هو مُتمهِّلاً في الحديث كعادتِه ، فأردف دون أن يبدو عليَّ أنني طلبتُ الستر :

ـ هذه المشكلة هي أنَّه رجعتُ إلى مجلَّة «العرب» صباح هذا اليوم ووجدتُ فيها مقالاً للشيخ حمد الجاسر عن محمَّد بن عبد الملك الأسدي نُشِر قبل خمس سنواتٍ ، أليس هو صاحبك الذي أسميتَه الفقعسيَّ ؟

ـ أظنُّ أنَّه هو .

ـ هذه المسائل يا محمَّد لا تُحلّ بـ« أظن » أعتقد أنَّه هو ، فتعال الآن إليَّ في البيت لنرى .

ووجدتُ أن صاحب العلاّمة الجاسر صاحبي هو هو ، وسرَح الطاهرُ وأنا على أحرّ من الجمر أن يقول شيئاً ، وبعد أخذٍ وردٍّ عمّا إذا كنتُ أستطيع إعادة طباعة الرسالة أم لا ، قال :

ـ إنَّك من دون شكٍّ قلتَ ما قلتَ عن محمَّد بن عبد الملك الأسدي الفقعسي سمِّه ما شئتَ ـ هكذا قال ـ باجتهادك ، ولكنَّ الذي قاله الشيخُ الجاسرُ قد أُذيع قبلك ، فصار صاحبُك الفقعسيُّ من حقِّه وليس من حقِّك ، والآن لديَّ اقتراحٌ ، وسكتَ .



ـ يا أللهُ قد جاء الفرجُ فعجِّل به (هكذا كنتُ أقول في نفسي) أنتظر اقتراحه ؛ فقال :

ـ أنتَ الآن في طبع في الملحق وقد انتهيتَ من ذكر هذا الأسديِّ ـ الفقعسيِّ ، أليس كذلك ؟ عليك الآن أن تعيد طباعته ، فتقول : إنَّ من مصادر ترجمته «مجلةالعرب ، س١ ، ع١١ ، جمادى الأولى ١٣٨٧ = آب ١٩٦٧ من ٩٩٩-١١٠٦ ، س٢ ، ع١ رجب ١٣٨٧ = تشرين الأوَّل ١٩٦٧ : ٩٥-٩٦ مقال بعنوان (الشاعر محمد بن عبد الملك الأسدي) للأستاذ حمد الجاسر» . هذا أقلُّ ما تفعلُ .

وفعلتُ ما قال ، وإن لم يُتَح للناس أن يروا ما فعلتُ ؛ لأن هذه الرسالة لم تُطبع إلى الآن .

ويمكنُك أن تُسمِّيَ هذا أمانةً علميَّة هي من أبرز ما يتَّصفُ به فقيدنا الراحلُ ، ولكن أن يسرِدَ لك كلَّ ما قلتُه لك ممَا قالَه أمام لجنة المناقشة معترفاً بتقصيرِه ـ وحاشاه ـ أنَّه كان عليه من اليوم الأول أن ينبّه الطالبَ إلى هذا ، وأنَّه أشفق على الطالب أن يُكلِّفه مبلغاً من المال في إعادة طباعة الرسالة ، وهكذا ، فذلك ما لا يوصف إلاّ بصفةٍ واحدةٍ هي الصدق .

هذا ولو كان أحدٌ من أعضاء لجنة المناقشة المُوقَّرين ـ وقد انتقلوا إلى العالَم الآخر جميعاً ـ قد تنبَّه إلى شيء من هذا لكان من حقّي وحقّك أن نقول : إنَّ الدكتور الطاهر الأستاذ ـ الأب رأى أنَّه لم ينبت الريشُ على جناحيْ ابنِه بعدُ ، فلا يحتملُ الزغبُ الذي فيهما ما لاطاقة له به ، فرأى أن يتحمَل أعباء الطيران وحدَه ، ولكنَّ أحداً من لجنة المناقشة لم يُحاسبني على إغفالي الجاسرَ في طول الرسالة وعَرضها ، ثمَّ ذكرِي إياه في الملحق فحسب دون سواه من صفحات الرسالة ؟ لم يُحاسبني أحدٌ ، ولم يعاتبني ، فما معنى أن يثير الطاهرُ الأمرَ ؟



إنَّ له معنًى واحداً هو صِدقُه ، مع نفسِه ومع الآخرين .

وأحاديثُ صدق الطاهر الطاهر لا تنتهي . ولكنني وعدتُك أن أروي من صدقه ما دمعت له عيناي ، وما أراني وفيت بوعدي فدعني أروي لك أنّه اتّخذ الدموعَ في أيامه الأخيرة بعد أن ثقل عليه المرضُ حديثاً مع عوّادِه ، وكان عوّادُه يظنّون أنّه لا يعلمُ بطبيعة مرضِه الخبيث ، وأنه سيجيبهم حين يسألونه عن صحّته أنّه بخيرٍ ، وأنه يرجو دعاءهم وهكذا ، ولكنَّ الطاهر لا يعرف الكذب فقد كتب إليَّ - وكنتُ في ليبيا - في : ٢٥/٧/١٩٩٥ أي قبل وفاتِه بسنةٍ وما يزيد على الشهرين يقول : « ... وتبقى بعد ذلك مخطوطاتٌ أخرى تمتَدُّ إلى العالم الآخر » وإنما ذكر المخطوطات لأنه كان تحدَّث إليَّ عما ينتظر الطبع مما أريد أن أعرض إليه فيما بعد .

وهكذا اتّخذ الدموعَ إجابةً لعواده . يقول أحدُ تلاميذه ، كما نشر في جريدة الجمهورية العراقيّة الصادرة في ١٢/١٠/١٩٩٦ ، أنه دخل عليه « فكانت تحيته قطرات من الدمع تحدَّرت على خدَّيه... ووصلتْ إلى أُذني همهمةٌ بأنه يردِّدُ أبياتاً من الشعر ، فاقتربتُ من سريره ، فسمعتُه يقرأ بلسانٍ أثقلته الأدويةُ المخدِّرةُ شيئاً من أبيات مالك بن الرَّيب التي رثى بها نفسَه :

أقيما عليَّ اليومَ أو بعضَ ليلةٍ ... ولا تُعجلاني قد تبيَّن ما بيا
وقوما إذا ما استُلَّ روحي فهيِّئا ... لي السِّدرَ ، والأكفانَ عندَ فنائيا
خذاني فُجرّاني ببردي إليكما فقد ... كان قبل اليومِ صعباً قياديا »

ولم يكمِل الطاهر الطاهرُ أنّه كان عطّافاً إذا الخيل... لأنَّ ذلك لم يكن من شأنه ، وإنما كان من شأن ابن الريب وأمثالِه من الفرسان ، أما هو فكان فارساً من نوعٍ آخر . ولكنَّ الذي كان من شأنهما معاً عندي وعند سواي أن يقول ابن الرَّيب قصيدتَه اليتيمة التي لا نجد أختاً لها في العربية ولابدَّ أنّه كان سيكون لها - لو عاش - أختٌ وأخواتٌ ، وأن يموت الطاهر ، ولكتبه أخوةٌ لم تر النور : فقد كتب إليَّ قبل وفاته بأربعةِ أشهرٍ وأربعةِ أيّام أعني يوم : ٥/٦/١٩٩٦ يقول :



«وصدر لي في عام ١٩٩٥ أكثر من كتاب ، ورجوتُ الناشرين أن يُرسلوا إليك نسخاً منها ولكنَّهم لم يستجيبوا . وهذه هي الكتب :

١ـ منهج البحث الأدبيّ ، ط٨ ، منقَّحة ، عن الدار المتحدة للنشر ، المبنى الاستثماري للجامعة الأردنية ، ص .ب . ٥٢٢٩ عمّان ـ الجبيهة .

٢ـ المرزوقي شارح الحماسة ناقداً ، عن الدار نفسها .

٣ـ محمد بن سلاّم وكتابه طبقات الشعراء ، عمّان دار الفكر ، ص .ب (١٨٣٥٢٠)

٤ـ سليمان بن سليمان النبهاني شاعرٌ من عصر النباهنة في عُمان ، اللاذقيَّة ، دار الحوار .

ويصدر لي من الدار المتحدة «وأنت تقرأ في ٩٣ كتاباً»

وعن الموسوعة الصغيرة : مصادر صناعة الكتابة مصادر للنقد الأدبيّ

ولي نحوٌ من عشرة كتب مخطوطةٍ لا أدري ماذا سيكون مصيرها ؟

وأنت...» ؟

ولقد أزيدك على ما قال زيادةً لا تخلو من فائدةٍ ، فأقول : إنَّه كتب إليَّ قبل أن يصدر كتابُه عن محمد بن سلاّم الجمحي ، كتبَ في : ٢٥/ ٧/ ١٩٩٥ يقول : «... أما أنا فلم يحُل المرضُ دون متابعة العمل ، ولعلَّه زادَ المتابعةَ حدَّةً... ويصدر لي في عمّان... محمد بن سلاّم وكتابه طبقات الشعراء ، وقد أضفتُ إليه باباً في مناقشة الشيخ محمود شاكر ، وأثبَتُّ بالبرهان القاطع تدخُّله في نصوص المخطوطة المحقَّقة» .

فإذا لم ينفعك في شيءٍ أن الفقيد الطاهر أثبت بالبرهان القاطع أن الشيخ الجليل شاكر قد تدخَّل في كتاب ابن سلاّم ، فقد ينفعك أن أقول : إنَّه كان ناقش الشيخ شاكرمنذ مدةٍ في تحقيقه «طبقات الشعراء» وظنَّ الناسُ أنَّ



الجليلين : شاكر والطاهر قد فرغا مما كانا فيه ، ولكنَّ تشبث الطاهربالحقيقة حتّى بعد مُرور كلِّ هذه السنواتِ الطويلة عليها شيء لا يمكن أن ينتهي . ولعلّه ينفعك أن أقول : إنَّ الموسوعة الصغيرة الذي ذكر أن كتابه عن صناعة الكتابة مصدراً من مصادر النقد سيصدر في سلسلتها هو الذي أسَّسها ، فما كان العراق ولا وزارة الثقافة فيه يعرفان شيئاً اسمُه الموسوعة الصغيرة لولا أن رفع علي جواد الطاهر اقتراحاً بالأمر .

وكتب لي ولدُه لبيد ـ وهو مهندسٌ هرب من مجاعة الحصار العراقية في حياة أبيه إلى ليبيا ـ كتب لي وأنا في بولندة يقول في : ١٩٩٧/٣/١٧ : «... الوالدةُ عكفت على تجميع أوراق الوالد ، وقد تمَّ حصرُ مخطوطاتٍ لستَّة عشر كتاباً... وأنت تعرف مصاعب الطبع...» .

وأريدُ أن أقول الآن ولن أزيد : إنّنا مسؤولون أمام الله وأمام أمتنا ، وأمام التاريخ إذا ضاع ما كتب الطاهرُ . إنّه كتبَ ما كتبَ لنا ولأمتنا ولتاريخنا ، فهل سنحترم هذا التاريخ ؟

اللهُم إني قد بلَّغتُ فاشهدْ .

اللهم ولا يَكُنْ علي جواد الطاهر أهونَ على أمَّتِنا ممَّن أكرَمْنَا بحقٍّ وبدون وجهِ حقٍّ . آمين .

بولندة ـ بوزنان

في : ١٩٩٧/٥/٢٢




مكتبة
الفكر
الجديد

أديبان خالدان

أبو الفرج الأصبهانيَ

الطاهر مرةً أخرى




مكتبة
الفكر
الجديد

أبو الفرج الأصبهاني

واغانيه

حظي كتاب «الأغاني» باهتمام الأدباء قدماء ومحدثين ؛ لما فيه من مادة غنية ، وعلم جمّ حتى كاد لا يُعرف صاحبه أبو الفرج الأصبهانيُ إلا به ، فتحدث عنه القدماء حديث تقريظ وثناء حتى كان من رأي ابن خلدون فيه أنه «هو كتاب العرب ، وديوانُهم ، وفيه لغتهم وأخبارهم وأيامهم ، وملّتهم ، وسير[ة] نبيّهم ﷺ ، وآثار خلفائهم ، وملوكهم ، وأشعارهم ، وغناؤهم... فلا كتاب أوعب منه لأحوال العرب»[1] .

وأخذه المعاصرون بالبحث والدرس ، فكتب عنه ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ محمد عبد الجواد الأصمعي كتاباً سمّاه «أبو الفرج الأصبهاني وكتابه الأغاني» ، وألّف فيه الدكتور محمد أحمد خلف الله كتاباً نفيساً عنوانه «صاحب الأغاني ، أبو الفرج الأصفهاني الراوية» ، وعرض إليه الدكتور زكي مبارك عرضاً طيباً في كتابه «النثر الفني في القرن الرابع» ، وقصّر الدكتور الطاهر أحمد مكي في كتابه «دراسات في مصادر الأدب» عن شوط أولئك ، فسطا على الأصمعي ومبارك ، وألّف مما قالا مبحثاً عن «الأغاني» نشره في الجزء الأول من كتابه . وإني لأرجو أن أفرغ لأبيّن هذا السطو في قابل الأيام* .

(١) العبر وديوان المبتدأ والخبر ١ : ١٠٧٠ .

* ينظر : ملحق الكتاب : المستثنى بالأ .



هذا ما حظي به الكتاب بل هو ـ على الأصح ـ بعضه . أما صاحبه فلم يكد يلقى ، لولا كتاب خلف الله ، الحظوة نفسها ، إذ لم يكد هؤلاء المؤلفون ـ عدا الدكتور خلف الله ـ يضعون في حساباتهم أن يقرأوا كتب أبي الفرج لعله ذكر شيئاً من سيرته فيها ، وإنما ظلوا يعيدون من أخباره المتناقضة المتنافرة ما لا يكاد يرسُم له شخصية واضحة . مما يجعلني مضطراً للحديث عن ترجمته .

ولقد كنتُ قبل أن يتفضل عليّ أحد الأصدقاء بكتاب خلف الله قد نقّبت في كتابي أبي الفرج ، «الأغاني» و«مقاتل الطالبيّين» أستخرج منهما أشياء حتى وجدت أن الدكتور خلف الله قد نخل «الأغاني» نخلاً فأخرج منه صورة هي أوضح ما نعرف لأبي فرج من صورة . على أن هذا لا يمنعني أن أقول : إنني وجدتُني أختلف معه قليلاً في هذا الموضع أو ذاك ، وأتفق معه حيث سكتُّ فأفيد منه ، في ترجمة أبي الفرج خاصة . وأقف الآن عند أبي الفرج فأقول :

هو عليُّ بن الحسين بن محمد بن أحمد بن الهيثم... ينتهي نسبه الى بني أميّة من خلال جدّه مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية المعروف بمروان الحمار ، لُقِّب بذلك لكثرة ما احتمل في خلافته من الفتن والاضطرابات والثورات . وهو ـ كما سردتُ لك نسبه ـ عربيٌّ صليبة ينتهي الى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف .

أما نسبه لأمه فلم يكن كذلك ؛ فأمُه هي بنتُ يحيى بن محمد بن ثوابة فقد نقل بعض رواياته في الأغاني قائلاً : «وقد نسختُ هذا الخبر من كتاب جدي يحيى بن محمد بن ثوابة بخطه... »[1] ، وآل ثوابة هؤلاء ، وهم على ما يبدو ـ ثلاثة إخوة هم : أحمد بن محمد بن ثوابة ، وجعفر بن محمد بن ثوابة ، وجدّ أبي الفرج لأمه : يحيى ـ ثلاثتهم من الكتّاب ، وهم من أصلٍ فارسيّ نصرانيّ ،

(١) الأغاني . وفيما يخص نسبه لأبيه ، انفرد ابن النديم في الفهرست : ١٢٧ بقوله : « إنه من ولد هشام بن عبد الملك » .



ولكنهم صاروا الى الإسلام ، والى التشيّع ـ على وجه خاص ـ منه . وقد عمل نفر من آل ثوابة في دواوين الخلافة العباسية «منذ أواسط القرن الثالث للهجرة إلى منتصف القرن الرابع»(١) ومن هؤلاء النفر جدّ أبي الفرج وأخواه .

وأول من لمع اسمه من هؤلاء أبوهم «محمد بن ثوابة ، وكان يعمل في دواوين الدولة ، وهو من ممدوحي البحتري ، وكان ابنه جعفر يتولى ديوان الرسائل... بآخرةٍ من عصر المعتمد ، وقد توفي سنة ٢٨٤ للهجرة...»(٢) .

وإذا عرفنا أن حاضرة الخلافة في القرن الثالث قد انتقلت الى سامراء منذ خلافة المعتصم العباسي ، وعرفنا أن أسرة أبي الفرج هم من الكتاب ، وأنهم كانوا يستوطنون سامراء(٣) ، تيسّر لنا أن نقول : إن الأسرتين : آل ثوابة والأصبهاني كانتا تسكنان سامراء ، وإن اشتراكهما في مهنة الكتابة في دواوين الخلافة قد أهّلت محمد بن أحمد الأصبهاني أن يخطب لولده الحسين ، بنتَ يحيى بن محمد ابن ثوابة . ولكننا لا نعرف متى كان ذلك ، رغم معرفتنا أن هذا الزواج أنجب ولداً سمّاه أبوه الحسين : علياً وهو صاحبنا الذي نترجم له ، وأقول لا نعرف : لأننا وجدنا أن كنية الحسين الأصبهاني أبو العباس وليس أبا عليّ .

أما سنة ولادته فهي باتفاق المؤرخين ممّن ترجموا له ٢٨٤هـ ، وهي السنة التي تُوفي فيها أخو جدّه لأمه : جعفر بن ثوابة ، والتي توفي فيها البحتري الشاعر أيضاً ، وأما مكانها فهو محل خلاف ، فقد فهم الذين ترجموا لأبي الفرج من قول المؤرخين عنه «أصبهاني الأصل ، بغدادي المنشأ» أنه وُلد بأصبهان دون أن يكون لديهم دليلٌ على مكان ولادته ، وجعل الدكتور خلف الله يرجّح أن ولادته كانت بسامراء ، ذلك «أن أسرة أبي الفرج كانت تقيم

---

(١) تاريخ الأدب العربي ـ العصر العباسي الثاني ٤ ، ٦٣٣ . والأمر مفصّل في صاحب الأغاني ، ٤٠ وما بعدها للدكتور خلف الله .

(٢) تاريخ الأدب العربي ٤ ، ٦٣٣ .

(٣) ينظر صاحب الأغاني ٤٠-٤١ ، ٢٦١ .



بسرّ من رأى . وكانت تقيم بها قبل مولد أبي الفرج بخمسين من السنين . كان يقيم بها جده ، وجدّ أبيه ، وكان يقيم بها عمّه ، وعمّ أبيه...»[١] .

وحجة الدكتور خلف الله ـ كما يبدو ـ أول الأمر مقنعة ، مقبولة ، ولكن الذي يمنعني من قبولها هو أن مؤدِّبه ـ أعني أبا الفرج ـ هو «محمد بن الحسين الكندي الكوفي»[٢] من الكوفة ، وأن من شيوخه الكوفيين محمد بن عبد الله الحضرمي المتوفى في سنة ٢٩٧هـ ؛ ومحمد بن جعفر القتّات المتوفى سنة ٣٠٠هـ[٣] ومعنى هذا أنه سمع من الحضرمي في الكوفة قبل عام ٢٩٨هـ ؛ لأنه توفي في ربيع الآخر من هذا العام أي في الربيع الأول منه ، ومعناه أيضاً أن أبا الفرج سمع منه وله من العمر اثنا عشر عاماً . فإذا كان هذا هو مقدار عمره في السماع فكم كان عمره حين أدّبه محمد بن الحسين الكندي الكوفي ؟

والذي جعل الدكتور خلف الله يرجّح أنه وُلد في سامراء ظنُّه أن أباه بعثه الى الكوفة وحيداً من أجل التحصيل[٤] ولكنني أستبعد أن يفعل هذا أب بابنه ، لأن الثابت أن مؤدبه هو الكندي الكوفي ـ كما ذكرت ـ وأنه كان خطيب المسجد الجامع بالقادسية ، والقادسية أقرب كثيراً الى الكوفة منها الى سامراء ، أم ترى أنّ علي بن محمد الأصبهاني استدعى الكندي الكوفي الى سامراء يؤدب ولده ؟ وهذا ما لا أرجّحه ؛ لأنه ما كان أسهل أن يجد له مؤدِّباً في سامراء نفسها . وأكاد أظن أن الكندي أدّب أبا الفرج في الكوفة ، يحملني على هذا الظن أنه سمع من شيوخ كوفيين ألّف من سماعه عنهم ـ فيما بعد ـ كتابه «مقاتل الطالبيّين» وله من العمر تسع وعشرون سنة مثل «أحمد بن محمد بن

---

(١) صاحب الأغاني : ٢٢ .

(٢) الأغاني . وقد خلط الدكتور خلف الله بين محمد بن الحسين الكندي . والخثعمي الكوفي . ويبدو لي أنهما شخصيتان وليس شخصية واحدة . والخثعمي هذا قد قدم الى بغداد .

(٣) ينظر صاحب الأغاني : ١٠٢ .

(٤) السابق : ١٠٨ .



سعيد الهمذاني ، ومحمد بن الحسين الكندي ، وعلي بن العباس المقانعي ، وأحمد بن عيسى بن أبي موسى العجلي ، والحسين بن الطيب بن الشجاعي البلخي ، ومحمد بن علي بن مهدي ، وكثير غيرهم ممن نصّ أبو الفرج نفسه على أنه قد أخذ عنهم بالكوفة »[1] ، ويحملني عليه أيضاً ما نعرفه من أن الفرق بين المعلِّم والمؤدِّب ـ في أحد وجوهه ـ هو أن المؤدب يُستقدم الى بيت الصبي ، على حين يذهب الصبي الى المعلم في كُتّابه . فإذا أيقنّا ـ كما يقول الدكتور خلف الله نفسه ـ بأن الكوفة « مدينة النشأة والتربية الأولى »[2] وأن سن تعليم الطفل عند معلم أو مؤدِّب هي عادة « السنة الخامسة أو السادسة من عمره »[3] حتى يبلغ العاشرة أو الثانية عشرة ـ على أكثر تقدير ـ من عمره ، جاز لنا أن نتصور أنه إنما أدّبه الكندي الكوفي ، لأنه ولد بها ، أو لأنه جاء به أبواه ـ على أسوأ الفروض ـ الى الكوفة وهو طفل غرير ، وإلا فمن غير المعقول أن يبعث أبٌ بابنه من سامراء الى الكوفة ـ على ما بينهما من المسافة ـ وله من العمر خمس سنين أو ست .

أما لماذا هجر علي بن محمد الأصبهاني سامراء ، فيُخيَّل لي أنه فعل هذا أسوة بمن هجرها بعد أن نقل المعتمد حاضرة ملكه منها الى بغداد سنة ٢٧٦هـ ، فقد هاجر خلق كثير من سامراء حتى لقد أحزن منظرها شاعراً مثل أبي علي البصير فرثاها بقصيدة ميميّة[4] . وأما اختياره الكوفة فلعله جاء من وجهين أولهما « أن الكوفة أقرب البينات الثقافية الى قرية النيل وهي قرية آل ثوابة »[5]

---

(١) السابق ، ٢ : ١٠٢-١٠٣ .

(٢) نفسه .

(٣) حضارة العراق ـ مجموعة من المؤلفين ٨ : ٢٦١ .

(٤) تنظر القصيدة في أشعار أبي علي البصير ، مجلة المورد (العراقية) السنة الأولى ، العددان الثالث والرابع ، ١٩٧٢ .

(٥) صاحب الأغاني : ١٠٤ ، والنيل قرية ماتزال قائمة في العراق تقع قرب مدينة الحلة ، وممن تعرض إليها ابن جبير في رحلته .



الذين منهم ـ كما رأينا ـ زوجه ، وثانيهما أن نُذُرَ الفتنة الطائفية قد بدأت تلمع منذ أن امتحن المتوكلُ الفقهاء في خلق القرآن ، وأن من الخير له ـ وقد أوشكت هذه النذر أن يزداد لمعانها في العقدين الأخيرين من القرن الثالث ـ أن يسكن مدينة يعتنق هو وزوجه وابنه مذهبها أعني بهذا المذهب ؛ التشيّع لآل البيت .

ومهما يكن من أمر فقد تأدب صاحبنا في الكوفة ، واختيارُ مؤدِّبٍ لطفل لم يكن يقع إلا لأولاد الخلفاء والوزراء والمياسير من الناس ، إذ كان هؤلاء «يستقدمون المعلمين الى قصورهم لتأديب أولادهم ، وتعليمهم ، وتهيأتهم لما ينتظرهم من مهام جسيمة»[1] . وإذاً ، كان الصبي على ما يبدو من عائلة موسرة امتهن أفرادها الكتابة ، وهو مُعِمٌّ مُخوِلٌ فيها .

ويمكننا أن نتخيل ما تلقّاه علي بن الحسين عن مؤدبه من حفظ القرآن الكريم ـ على عادة ذلك العصر ـ وما يمكن أن يُعينه على فهم بعض آياته من نحو وإعراب يَسيرين ، ورواية شاهد أو مثلٍ ، وما تلقاه عنه من قدر يسير من أشعار العرب ، ومن تلك الأشعار ما رواه أبو الفرج نفسه عن مؤدِّبه ، فقد قال : «أخبرني محمد بن الحسين الكندي مؤدبي قال : حدثني علي بن محمد النوفلي ، قال حدثني عمي قال : دخل الحكم بن قنبر على عمي وكان صديقاً له فبشّ به ، ورفع مجلسه ، وأظهر له الأنس والسرور ثم قال أنشدني أبياتك التي أقسمت فيها بما في قلبك فأنشده :

وحقّ الذي في القلب منك ، فإنه عظيم ، لقد حصّنتُ سرَّك في صدري

... فقال لي : يا بنيّ اكتبها واحفظها ففعلتُ وحفظتُها يومئذ وأنا غلام»[2] .

وأما ما عدا ذلك فقد دلّنا عليه الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥هـ في فصله عن

---

(١) حضارة العراق ٨ : ٢٧ .

(٢) الأغاني .



المعلمين ، إذ بيّن لنا البرنامج الذي يقرنونه للأطفال من خلال ما أوصى به المعلّم قائلاً : «وأما النحو فلا تشغل قلبه منه إلا بقدر ما يؤديه الى السلامة من فاحش اللحن ، ومن مقدار جهل العوام في كتاب [إن] كتبه ، وشعر إن أنشده ، وشيء إن وصفَه ، وما زاد على ذلك فهو مشغلة عما هو أولى به ، ومذهلٌ عمّا هو أردُ عليه منه ، من رواية المثل [و] الشاهد ، والخبر الصادق ، والتعبير البارع... وعويصُ النحو لا يجري في المعاملات ولا يُضطر إليه شيء ، فمن الرأي أن [يعتمد] به في حساب العقد دون حساب الهند ، ودون الهندسة ، وعويص ما يدخل في المساحة... وأنا أقول إن البلوغ في معرفة الحساب الذي يدور عليه العمل [والتوقّي] فيه ، والسبب إليه ، أردُ عليه من البلوغ في صناعة المحررين ورؤساء الخطاطين... ثم خُذه بتعريف حجج الكتّاب وتخلصهم باللفظ السهل القريب المأخذ الى المعنى الغامض ، وأذقه حلاوة الاختصار... »[1] .

فإذا عرفنا أن الموسرين من الناس حين يستقدمون مؤدباً يشاركونه «عادةً في وضع المنهاج الذي يلائم»[2] أولادهم ، أدركنا أن أبا الفرج قد أعدّ ليكون أبا الفرج الأصبهاني ، وليكون واحداً من هذا البيت كتابة ، ورواية ، وأدباً .

وأتمّ أبو الفرج - وهو الآن صبيٌ - مرحلة التأدب ، فتعلم القراءة ، والكتابة ، وحفظ شيئاً من القرآن الكريم ، وشيئاً من الحساب أهّله فيما بعد أن يتعلم حساب الهند الذي نهى الجاحظ عن تعليمه للصبيان ، والذي أهّله - أعني أبا الفرج - أن يقول عن مقتل الحسين بن علي بن أبي طالب « ... أما ما تقوله العامة إنه قتل يوم الاثنين فباطل... وكان أول المحرّم الذي قتل فيه يوم الأربعاء ، أخرجنا ذلك بالحساب الهنديّ من سائر الزيجات ، وإذا كان كذلك فليس يجوز أن يكون اليوم العاشر يوم الإثنين »[3] .

---

(١) فصل من صدر كتابه في المعلمين : ١٥٢ ، مجلة المورد ، ع٤ ، س٧ ، ١٩٧٨ ، عدد خاص بالجاحظ .
(٢) حضارة العراق ٨ : ٢٧ .
(٣) مقاتل الطالبيين : ٧٨ .



أقول : تعلّم حساب الهند ، وسمع شيئاً من الحديث النبوي الشريف من شيخين كوفيّين ـ كما مرّ بنا ـ هما : الحضرميّ ، والقتّات ، ولكن محصوله من الحديث الشريف لم يكن شيئاً ذا بال[1] ، ولعل اهتمامه بأخبار شهداء البيت النبوي وهو يسمع في الكوفة أخبارهم ، وما أحاط بمصارعهم ، ثم وهو يسمعها من الطبري في بغداد كان أكثر من اهتمامه بالحديث الشريف ، ومن هنا قال عنه الذهبي موجزاً كلّ قيمته في الحديث : « أكبر شيخ عنده مطّين ، ومحمد بن جعفر القتّات » .

ولعل قلة اهتمامه بالحديث الشريف تومئ الى أن الصبي لم يكن مستعداً في نفسه وفي تربيته الموسرة أن يكون متديّناً شديد التديّن ، فهو الى رقة التديّن أقرب منه الى التزمّت والاستقامة . فإذا وافقنا أنه جاء الى بغداد « سنة ثلثمائة أو قبلها بقليل »[2] لأن في شيوخه البغداديين من مات في السنة نفسها ، فمعنى هذا أنه ناهز الحلم أو بلغه وهو في الكوفة تلك المدينة التي عرفت من ديارات النصارى وخمورها مثل معرفتها بمساجد المسلمين وصلواتها ، وعرفت من دور الغناء مثل معرفتها من حلقات العلماء ، أفترى أن الفتى امتنع عن زيارة تلك الديارات وغشيان تلك الدور ؟ إنه إن يكن امتنع عنها خيفة من رقابة أبيه فما أظنه امتنع عن سماع أخبارها ، والتلذذ بهذا السماع ، إذ ظل يحنّ الى ديارات النصارى المحيطة ببغداد ـ بعد أن أقام فيها ـ ويغشاها[3] ، حتى آلّف كتاباً في « الديارات » ، وآخر في « الخمّارين والخمّارات »[4] .

ويهجر آلّ الأصبهاني الكوفة الى بغداد لأسباب لا نعلمها ، ولعل أن يكون في هذه الأسباب أن بدأت ثورة القرامطة في سواد الكوفة ، وقد بلغ الحسين بن زكرويه القرمطي من القوة في سواد الكوفة أنه هاجم في المحرم من سنة ٢٩٤

---

(١) ينظر صاحب الأغاني : ١٠٤ .

(٢) نفسه : ١١٢ .

(٣) ينظر معجم الأدباء ١٢ : ١١٢ وما بعدها .

(٤) ينظر نفسه ١٢ : ٩٩ .



«قوافل الحجاج في أوبتها من المسجد الحرام ونهب جميع ما كان معها من الأموال مما قدِّرت قيمته بنحو مليونين من الدنانير، وقتل من الحجاج نحو عشرين ألفاً...»[1] وهذا يعني أن السبب الذي دعاهم الى اتخاذ الكوفة مسكناً أول الأمر قد انتفى، فقد اضطرب حبل الأمن فيها، ولم تعد وقفاً على الشيعة الزيديّين ـ وآل الأصبهاني زيديّون ـ وإنما صار الإسماعيليون ومنهم القرامطة أصحاب كلمة، وثورة فيها. هذا سببٌ، وأما الآخر فعله أن الفتى وأباه رأيا أن لم يعد في وسع الكوفة أن تمدّ الصبي بعلمٍ أوسع مما أمدّته به، فليس في الكوفة ـ خلال القرن الثالث ـ نحويٌّ كبير، ولا لغويٌّ كبير، حتى لقد بلغ الأمر بشاعر من شعرانها أن يقول: إنه ربما يضطر أن يهجر معاني مليحه تجينه لأنه يشك في لغتها وفي إعرابها[2]، ولم يكن هذا الشاعر ـ وهو علي بن محمد الحماني ـ ملوماً؛ لأنه عاش في النصف الثاني من القرن الثالث فيها، ولم يكن يومئذ من حلقات العلماء الكبار شيء فيها، إذ هاجر علماؤها الكبار الى بغداد. وعلّ هنالك غير هذين السببين الظاهرين من الأسباب الخفيّة ما لا نعلمه، ولا تعلمه كتبُ التراجم، ومصنّفاتُ المؤرخين.

وجاء الفتى هو وأبوه الى بغداد في مطلع القرن الرابع ـ كما قلنا ـ أو قبله بقليل، وقد تشوفت نفس الفتى الى حلقات العلماء فيها، ومجالس الغناء، فاتخذ له فيها داراً «على دجلة في المكان المتوسّط بين درب سليمان ودرب دجلة، وملاصقة لدار أبي الفتح البريديّ»[3] ولا نعلم إن كان اشتراها في حياة أبيه أو بعد موته، ولكننا نعلمُ أن موقعها مما لا يسكن فيه ـ كما هو ظاهر الحال ـ إلاّ الأثرياء الموسرون، فجارُه البريديُّ وزيرٌ، ودربُ سليمان نفسه هو درب سليمان بن جعفر بن أبي جعفر المنصور الخليفة العباسي.

---

(١) تاريخ الأدب العربي ٤: ٤٠٠. وينظر تفصيل الخبر في العيون والحدائق في أخبار الحقائق ٥: ١٢٤-١٢٥.

(٢) ينظر الموشح للمرزباني: ٢٤٦.

(٣) معجم الأدباء ١٣: ١٠١.



ويبدو أنه إنما سكن هذه الدار ، لا لأنه موسرٌ فحسب ، ولكن لأنه شيعي فقد انقسمت بغداد في هذا القرن ـ وقد صارت نُذُرُ الفتنة الطائفية التي فرّ منها أبو صاحبنا الى الكوفة واقعاً دموياً ـ الى جانب يغلب على سكانه التسنّنُ وهو الرصافة التي هي الجانب الشرقيُ من بغداد ، وجانب آخر يغلب على أهله التشيُّع وهو الكرخُ الذي هو الجانب الغربيّ من بغداد[١] .

ولكن الفتى الشيعيّ لم يكن متعصّباً ، فقد أخذ عن شيوخ مذاهبهم غير مذهبه ، وعن آخرين مذهبه مثل مذاهبهم[٢] فلم يذم هؤلاء على مذاهبهم ، ولم يحمد أولئك بما يعتقدون ، فهو يروي عن محمد بن جعفر الطبري المتوفى سنة ٣١٠هـ صاحب «تاريخ الأمم والملوك» والتفسير المشهور ، الذي «كان له مذهب في الفقه اختاره لنفسه»[٣] ، والذي «دُفن ليلاً خوفاً من العامة...»[٤] ، ويأخذ عن اسماعيل بن يونس الشيعي ، ثم لا يمنعه مذهبه الشيعيّ ، ولا أخذُه عن شيوخ من الشيعة من الأخذ عن محمد بن يحيى الصولي ـ ورواياته عنه في الأغاني عديدة ـ هذا الصوليّ الذي «توفي مُستتراً بالبصرة لأنه روى خبراً في عليّ عليه السلام فطلبته الخاصة والعامة لقتله»[٥] .

ولقد جعلتُ قبل قليلٍ في أسباب هجرة الفتى الى بغداد خلوّ حلقات الكوفة من عالم كبير في اللغة أو النحو يأخذ عنه ، وساقني الى ذلك فضلاً عن معرفتي بالكوفة ـ وهي معرفة متواضعة ـ أنني رأيت جُلّ شيوخ أبي الفرج في بغداد من الذين اتصل بهم وأخذ عنهم ، وقرأ عليهم هم من اللغويين النحاة ، فأخذ عن أبي

---

(١) أخبار هذا الانقسام مستفيضة في كتب التاريخ بحيث لا أرى بي حاجة الى النص والاستشهاد .

(٢) صاحب الأغاني : ١١٦ .

(٣) الفهرست : ٢٩١ .

(٤) تجارب الأمم لمسكويه ٥ : ٨٤ .

(٥) معجم الأدباء ١٨ : ٤٠ .



بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي المتوفى سنة ٣٢١هـ وقد كان «إمام عصره في اللغة والأدب والشعر والأنساب»[١] .

وأخذ عن أبي بكر محمد بن القاسم بن بشار الأنباري المتوفى سنة ٣٢٨هـ ، وقد «كان من أعلم الناس ، وأفضلهم في نحو الكوفيّين ، وأكثرهم حفظاً للغة ، وكان في نهاية الذكاء والفطنة ، وجودة القريحة ، وسرعة الحفظ ، وكان يُضرب به المثل في حضور البديهة وسرعة الجواب ، وأكثر ما كان يُمليه من غير دفترٍ ، ولا كتاب...»[٢] .

وأخذ عن إبراهيم بن محمد بن عرفة المعروف بـ«نفطويه» لقبوه بذلك ، لدمامته ، وقد «كان عالماً بالعربية ، واللغة ، والحديث ، صادقاً فيما يرويه حافظاً للقرآن ، فقيهاً على مذهب داود الظّاهريّ... وكان مجلسه في مسجد الأنباريين بالغدوات ، وتوفي في صفر لستٍّ خلون منه سنة ٣٢٣هـ»...[٣] .

وأخذ عن الأخفش الصغير أبي الحسين علي بن سليمان بن الفضل «وكان من أفاضل علماء العربية... وتوفي ببغداد سنة ٣١٥هـ وقيل سنة ٣١٦هـ»[٤] وقد لقيه ـ كما يبدو لي ـ بعد عودته من حلب ؛ لأن الأخفش ـ كما يقول ياقوت الحموي ـ «قدم... مصر في سنة سبع وثمانين ومائتين ، وخرج منها سنة ثلاثمائة الى حلب»[٥] ثم عاد الى بغداد فبقي فيها حتى وفاته .

وأخذ ـ كما قلت ـ عن محمد بن جرير الطبري ، ولابد أن يكون قد أخذ عنه شيئاً من التاريخ ، وشيئاً آخر من التفسير فقد «كان يختلف إليه... يقرأ عليه كتبه»[٦] في داره .

---

(١) أبو الفرج... وكتابه الأغاني للأصمعي : ٦١ .

(٢) السابق : ٦٢ .

(٣) السابق : ٦٢-٦٤ .

(٤) السابق : ٦٣ .

(٥) معجم الأدباء ١٢ : ٢٥٥-٢٥٦ .

(٦) السابق ١٨ : ٢٧ .



وحدث عن محمد بن جعفر الصيدلاني ، و« كان صهر أبي العباس المبرد على ابنته ، ويُلقب بُرمة ، وكان أديباً شاعراً... »[1] .

وأخذ عن أبي عبد الله محمد بن العباسي اليزيديّ المتوفى سنة ٣١٠هـ ، فوصفه في « الأغاني » بقوله : « ... كان فاضلاً عالماً ثقة فيما يرويه ، منقطع القرين في الصدق وشدة التوقي فيما ينقله ، وقد حملنا عنه وكثير من طلبة العلم ورواته علماً كثيراً ، فسمعنا منه سماعاً جماً »[2] . وقد قرأ عليه أبو الفرج « أخبار أبي كلدة ونسبه ، وديوان شعره » ، كما قرأ عليه وعلى الأخفش « كتاب النقائض »[3] .

وأخذ عن محمد بن خلف وكيع صاحب كتاب « أخبار القضاة » وهو مطبوع متداوَل ، كما أخذ عن محمد بن خلف بن المرزبان المتوفى سنة ٣٠٩هـ . « وكان حافظاً للأخبار ، والأشعار ، والمُلَح ، وكان فاضلاً بليغاً مؤرخاً عالماً بمجاري اللغة... وكان أحد التراجمة ، ينقل الكتب الفارسية الى العربية له أكثر من خمسين منقولاً من الفرس... »[4] .

وأجازه رضوان بن أحمد الصيدلاني أن يروي عنه ، فقد ذكره في كتاب « الأغاني » قائلاً : « وذكر رضوان بن أحمد الصيدلاني فيما أجاز لي روايته عنه... »[5] .

وأخذ عن أبي خليفة الفضل بن الحُباب الجُمحي المتوفى سنة ٣٠٥هـ ، وأبو خليفة هذا من أهل البصرة ، وقد ولي القضاء فيها[6] ، ولا أعرف إن كان

---

(١) السابق ١٨ : ٩٥ .

(٢) الأغاني .

(٣) صاحب الأغاني : ١١٧ .

(٤) أبو الفرج : ٦٦ .

(٥) الأغاني .

(٦) تنظر ترجمته في أبو الفرج : ٦٢



أبو الفرج قد أخذ عنه مشافهة . إذ رأيته في «الأغاني» يروي عنه فيقول : «أخبرني أبو خليفة»[1] مرة ، ويروي عنه مرة أخرى إجازة ، ومرة ثالثة مكاتبة . على أنني أعرف أن أبا خليفة قد أجازه أن يروي عنه ، وأن أبا الفرج كان يكتب إليه فيجيبه ، فهو يقول في موضع من «الأغاني» : «أخبرني أبو خليفة إجازة عن محمد بن سلاّم...»[2] ، ويقول في موضع آخر : «كتب إليّ أبو خليفة الفضل بن الحباب ، أخبرنا محمد بن سلاّم...»[3] ، ومهما يكن من أمر فلابد أن يكون قد أخذ عنه فضلاً عن اللغة ، والأشعار والأنساب كتاب خاله ابن سلام الجمحي : «طبقات فحول الشعراء» فقد كان أبو خليفة يرويه عن خاله ، وقد وصل إلينا الكتاب من طريقه .

ولا أريد أن أطيل في تعداد من أخذ عنهم أبو الفرج ، ومن تلمذ لهم ، ومن روى عنهم ، فلو قلت إن ذلك أمر صعب لما بالغت . ولكنني أريد أن أدع اللغة والنحو والأدب ، والشعر ، والأنساب جانباً لأقف على أساتذته في الغناء وفي معرفته طُرقه ، لاسيما ونحن نريد أن نعرض ـ فيما بعد ـ الى كتاب الأغاني ، ولقد وقف قبلي على هذا الجانب ، فجلاه جلاء حسناً الدكتور خلف الله ، ولكنه رأى أن يعدّ من أساتذته الذين تأثر بهم من لم يرهم ، ولم يسمع منهم ، وإنما تلمذ على كتبهم لاسيما إسحق الموصلي[4] وإذا كان الإعجاب تلمذة فأشهد أن أبا الفرج معجب غاية الإعجاب بإسحق ، وما أشك في أنه تأثر به وبما سمعه من الألحان التي تروى عنه ، وإن رأى أن كتابه «الأغاني الكبير» منحول عليه ؛ فقد روى ابن النديم قال : «حدثني أبو الفرج الأصبهاني قال : أخبرني أبو بكر محمد بن خلف بن وكيع قال : سمعت حماد بن إسحق يقول :

---

(١) ينظر الأغاني في أكثر من موضع .

(٢) نفسه .

(٣) نفسه .

(٤) ينظر صاحب الأغاني ، ٥٤ وما بعدها .



ما ألّف أبي هذا الكتاب قطّ ، يعني كتاب (الأغاني الكبير) ولا رآه... وقال لي أبو الفرج : هذا سمعته من أبي بكر وكيع حكاية فحفظته واللفظ يزيد وينقص»[1] .

أما أنا فأستطيع أن أتخيّل أن ليس أستاذه هو إسحق ـ كما يذهب الى ذلك الدكتور خلف الله ـ وإنما هو السماع والتذوّق لدى غشيان مجالس الغناء ، فلابد أن يكون أبو الفرج قد بلغ من الإعجاب بما يسمعه من غناء في بغداد ، وربما في الكوفة ما يُدرينا ؟ بحيث سعى الى أن يتعلم أصول هذا الفن على أصحابه ، وأصحاب الصنعة فيه الذين منهم إسحق . ولعل تلمذته لجحظة البرمكي ، وطول ملازمته إياه كانا من قبيل ذلك ، إذ لم يلزم أبو الفرج أستاذاً من أساتذته ، كما لزم جحظة ، ولم يتبسط معه شيخ من شيوخه كما تبسّط معه جحظة ، حتى يخيّل لقارئه أخبارهما أنهما كانا صديقين أكثر من كونهما أستاذاً وتلميذاً . ولعل مجالس الغناء والشرب هي التي أزالت الحُجُبَ التي تقوم في العادة بين التلميذ وأستاذه .

وأنا لا أقول هذا ؛ لأن الدكتور خلف الله لم ينبِّه إلى هذه الصحبة ، أو إلى ذلك السماع ، وإنما أردت أن أضع الحصان ـ كما يقولون ـ أمام العربة .

وإذاً ، نقول : إن من الشيوخ الذين أخذ عنهم الغناء جحظة البرمكي . وجحظة هذا هو «أبو الحسن أحمد بن جعفر بن موسى بن يحيى... بن برمك ، شاعر ، مغنٍ ، مطبوع في الشعر ، حاذق بصناعة غناء الطنبور... توفي بواسط سنة ٣٢٦هـ وقيل سنة ٣٢٤هـ»[2] ويدلنا تأريخ وفاته أن أبا الفرج لزمه زهاء ربع قرن من الزمن ، ولابد أن يكون قد قرأ ـ فيما قرأ عليه ـ كتابه الموسوم بـ« كتاب الطنبوريين» ، فقد روى عنه في كتاب الأغاني كثيراً ، ونقده بقوله : «وكان مذهبه ـ عفا الله عنا وعنه ـ في هذا الكتاب أن يثلب جميع من ذكره من أهل

---

(١) الفهرست : ١٥٨ .

(٢) أبو الفرج : ٦٤-٦٥ .



صناعته بأقبح ما قدر عليه ، وكان يجب عليه ضدّ هذا... »[١] . أما من كتب غيره ، فقد قرأ عليه كتاب أستاذه ـ أعني أستاذ جحظة ـ في الغناء ، وهو أبو حشيشة[٢] .

ومن أساتذته الذين أخذ عنهم الغناء حرميّ بن أبي العلاء ، وإبراهيم بن القاسم بن زرزور ، وقد « كان يسمعه وهو يُغني بعض الأصوات »[٣] .

ومن الذين أخذ عنهم أبو الفرج عبد الله بن المتوكل ، وعجائز المغنيات اللاتي أدركن محمد بن أحمد بن يحيى المكي المغني البارع مثل قمرية العمريّة[٤] .

ومن الدور التي كان يغشاها أبو الفرج يسمع فيها الغناء ، ويأخذ عنها الثقافة الغنائية دار نفطويه أستاذه في اللغة والنحو وأيام الناس ، فقد « كان لنفطويهِ جوار يُجدن الغناء ومنهنّ واحدة عرفت بقارنة الألحان »[٥] ، ودور آل المنجّم ، إذ هم معروفون بالثقافة الغنائية فقد تحدث الصاحب بن عباد عن علي ابن هارون المنجم فقال : « فسمعت منه أخباراً عجيبة ، وحكايات غريبة ، ومن ستارته أصواتاً نادرة ، مشنّفة ، مقرطقة ، يقول في كل منها الشعر لفلان ، والصنعة لفلان ، أخذته هذه عن فلان أو فلانة حتى يتصل النسب بإسحق أو غيره من أبناء جنسه »[٦] .

أما دار جحظة البرمكي وما كان يجري فيها من الغناء وأخباره ، فلعلّ ذكرها يكون من نافلة القول ، إذ كانت طائفة من أصدقائه تغشى داره تسمع منه غناء[٧] .

---

(١) الأغاني .
(٢) ينظر صاحب الأغاني ، ١٢٢ .
(٣) السابق : ١٢٠ .
(٤) ينظر المرجع السابق : ١٢١ .
(٥) نفسه .
(٦) معجم الأدباء ١٥ : ١١٦ بدلالة صاحب الأغاني .
(٧) ينظر معجم الأدباء ٢ : ٢٥٦ .



على أن أبا الفرج ، وقد تعلّم أصول الغناء ، وغشي دوره ، وصارت له فيه ثقافة لم يكن ليسيغ الغناء الحديث الذي كان على عصره ، وإنما بقي متمسكاً بالغناء القديم فقد رأى أنّ ممّن أفسد الغناء القديم خاصة «بنو حمدون بن إسماعيل ، فإن أصلهم فيه مخارق ، وما نفع الله أحداً قطّ بما أخذ عنه ، وزرياب الواثقيّة ، فإنها كانت بهذه الصورة تغيّر الغناء كما تريد ، وجواري شارية وريّق . فهذه الطبقة على ما ذكرتُ . ومن عداهم من الدُّور مثل دور عريب ، ودور جواريها والقاسم بن زرزور ، وولده ، ودور بذل الكبرى ومن أخذ عنها ، وجواري البرامكة وآل هاشم وآل يحيى بن معاذ ، ودور آل الربيع ومن جرى مجراهم ممن تمسك بالغناء القديم وحمله كما سمعه ، فعسى أن يكون قد بقي عمن أخذ بذلك المذهب قليل من كثير ، على أن الجميع من الصحيح والمغيّر قد انقضى في عصرنا هذا»[1] .

ولعل تمسك أبي الفرج بالغناء القديم ، والصنعة القديمة هما اللذان جعلاه يُعجب بإسحق الموصلي ، ويُعظّم طريقته ، وصنعته .

ومهما يكن من أمر ؛ فإن أبا الفرج وقد أخذ عن هؤلاء الشيوخ ما أخذ من لغة ، ونحو ، وسير ، وأخبار ، وأنساب ، وأدب ، وغناء لم يكن يكتفي بما أخذ ، وإنما كان يحفظ «من آلة المنادمة شيئاً كثيراً»[2] ويُلم ببعض العلوم «مثل علم الجوارح ، والبيطرة ، ونتف من الطب ، والنجوم ، والأشربة وغير ذلك» ، وإذا كنّا قد رأينا علمه بالنجوم في ما أخرجه من يوم مقتل الحسين بن علي بن أبي طالب عليهما السلام ـ كما مرّ بنا ـ وما حققه من أنه لا يمكن أن يكون يوم الإثنين ، فقد نرى علمه بالبيطرة في ما رواه أبو الحسين هلال بن المُحسِّن بن... الصابئ من قوله : «قصدتُ أنا وأبو علي

(١) الأغاني .
(٢) تاريخ بغداد ١١ : ٣٩٩ .



الأنباري وأبو العلاء صاعد دار أبي الفرج لقضاء حقّه ، وتعرّف خبره... وصعد بعض غلماننا لإيذانه بحضورنا ، فدقّ الباب دقّاً حتى ضجر من الدّقّ وضجرنا من الصبر ، قال : وكان له سنّورٌ أبيض يُسمّيه يقّقا ، ومن رسمه إذا قرع الباب قارعٌ أن يخرج ويصيح الى أن يتبعه غلام أبي الفرج لفتح الباب أو هو نفسه ، فلم نر السّنّور في ذلك اليوم ، فأنكرنا الأمر ، وازددنا تشوقاً الى معرفة الخبر ، فلما كان بعد أمدٍ طويل صاح صائح أن (نعم) ثم خرج أبو الفرج ويده متلوثة بما ظننّاه شيئاً كان يأكله فقلنا له : عققناك بأن قطعناك عمّا كان أهمّ من قصدنا إيّاك . فقال : لا والله يا سادتي ما كنتُ على ما تظنون ، وإنما لحق يققا ـ يعني سنّوره قولنجٌ ، فاحتجتُ الى حقنِه فأنا مشغول بذلك... »[١] .

وأياً كان مقدار ضبط أبي الفرج تلك العلوم فإن الذي يهمنا من شخصيته جانبها الأدبي ، فقد رُوي عنه أنه « كان يحفظ من الشعر ، والأغاني ، والأخبار ، والآثار ، والحديث المسند ، والنسب ، ما لم أر قطّ من يحفظ مثله »[٢] . هكذا قال معاصره التنوخي عنه . ولعلّ في هذا القول ما يفسِّر لنا بكوره في التأليف إذ لم تجئ سنة ثلاث عشرة وثلثمانة حتى وجد أبو الفرج نفسه منتصباً للتأليف ؛ فقد فرغ من تأليف كتابه « مقاتل الطالبيّين » ـ كما يقول هو ـ في شهر جمادى الأولى من تلك السنة[٣] .

وإذا كان لهذا التأليف من معنى ـ ولابد أن يكون ـ فهو أنه بعدَ إذ انتفع من علم أشياخه في التاريخ والأخبار وما إليهما أنس في نفسه القدرة على أن ينفع الآخرين بعلمه ، فيكون له تلاميذ ، لا من بغداد وحدها وإنما من الأندلس أيضاً . وعلى أننا لا نعلم متى انقطع عن شيوخه ، ومتى انتصب لتلاميذه على وجه

---

(١) معجم الأدباء ١٣ : ١٠٤-١٠٥ .

(٢) المصدر السابق ١١ : ٢٩٩ ، والنجوم الزاهرة ٤ : ١٥ ، وشذرات الذهب ٣ : ١٩ .

(٣) ينظر مقاتل الطالبيين : ٧٢١ .



اليقين إلا أنه بإمكاننا أن نقدّر أن ذلك كان ـ على أبعد تقدير ـ في العقد الثالث من القرن الرابع ، إذ ليس بين شيوخه من توفي بعد هذا العقد ؛ فقد توفي آخر شيوخه أبو بكر بن الأنباري ـ كما ذكرت ـ سنة ثمان وعشرين وثلثمائة .

فمن تلاميذه ـ كما يقول الخطيب البغدادي ـ الدارقطني[1] أبو الحسن علي بن عمر... البغدادي «كان عالماً حافظاً فقيهاً... وقد انفرد بالإمامة في علم الحديث في عصره... ويحفظ كثيراً من دواوين العرب ، منها ديوان السيّد الحميري... »[2] وكانت ولادة الدارقطني سنة ٣٠٦هـ ووفاته سنة ٣٨٥هـ ، في ذي القعدة منها وقيل ذي الحجة .

ومنهم ـ كما يقول الخطيب أيضاً ـ أبو إسحاق الطبري ، إبراهيم بن أحمد بن محمد وأبو إسحاق هذا أحد من روى كتاب أبي الفرج : «مقاتل الطالبيين »[3] وهو المعروف بـ(تيزون) «كان من أهل الفضل والأدب ، وسكن بغداد ، وصحب أبا عمر الزاهد... وأخذ عنه وعن غيره علماً كثيراً »[4] ومن تلاميذه أبو زكريا يحيى بن مالك بن عائذ ، وقد قدم من الأندلس ـ وهو شيخ ـ الى بغداد «لطلب العلم ، ولزم أبا الفرج... »[5] ثم عاد الى الأندلس فتوفي فيها سنة ٣٧٨هـ .

ومنهم أيضاً ابن دينار الكاتب علي بن محمد بن عبد الرحيم ، المولود سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة ، والمتوفّى سنة تسع وأربعمائة ، وقد لقي أبا الطيب المتنبي و«سمع منه ديوانه »[6] ، وشاركه «في أكثر ممدوحيه كيف

---

(١) ينظر تاريخ بغداد ١١ : ٣٩٨ .

(٢) وفيات الأعيان ١ : ٤١٧ .

(٣) ينظر مقاتل : ٦ .

(٤) تاريخ بغداد ٦ : ١٧ .

(٥) معجم الأدباء ١٣ : ١٢٩ .

(٦) السابق ١٤ : ٢٤٦ .



الدولة بن حمدان ، وابن العميد ، وغيرهما » ، وقرأ على أبي الفرج « جميع كتاب الأغاني »[١] .

ومن تلاميذه أبو علي المحسَّن بن أبي القاسم علي... التنوخي - وإن لم ينصَّ أحد على تلمذته له - فقد رأيته يروي عن أبي الفرج روايات أجدها في مقاتل الطالبيين حيناً[٢] ، وفي « الأغاني » حيناً آخر[٣] ، والتنوخي هذا ولد سنة سبع وعشرين وثلثمائة بالبصرة ، وتوفي ببغداد سنة أربع وثمانين وثلثمائة[٤] ، وله من الكتب : الفرج بعد الشدة ، ونشوار المحاضرة ، والمستجاد من فعلات الأجواد .

ومنهم أيضاً أبو الحسن محمد بن أحمد بن محمد المغربي « راوية المتنبي ، وأحد الأئمة ، والأدباء ، والأعيان ، والشعراء ، خدم سيف الدولة ، ولقي المتنبي... وجالس الصاحب بن عباد ، ولقي أبا الفرج الأصبهاني ، وروى عنه... »[٥] وكانت ولادته في سنة خمس وعشرين وثلاثمائة ، « وتوفي في وقت العصر من يوم الأربعاء السابع عشر من ذي الحجة سنة عشر وأربعمائة »[٦] .

ومنهم علي بن أحمد ، « أبو الحسن المعروف بابن طيب الرزّاز ، سمع أبا عمرو بن السماك... وأبا عمر الزاهد... وأبا الفرج الأصبهاني... وكفّ بصره في آخر عمره ، وكان يسكن الكرخ ، وله دكان في سوق الرزّازين . وكان الرزّاز... كثير السماع ، كثير الشيوخ ، والى الصدق ما هو ، سألته عن مولده فقال : في شهر ربيع الأول سنة تسع عشرة وثلثمائة ، ومات في ليلة الأربعاء السابع عشر من شهر ربيع الآخر سنة تسع عشرة وأربعمائة »[٧] .

---

(١) السابق ١٤ : ٢٤٦ ، ٢٤٨ .

(٢) ينظر على سبيل المثال الفرج بعد الشدة ١ : ٦٧ والمقاتل : ٢٥٠-٢٥١ .

(٣) ينظر على سبيل التمثيل أيضاً الفرج ١ : ٨٦ ، والأغاني .

(٤) تنظر ترجمته في وفيات الأعيان ١ : ٥٦٣-٥٦٥ ، وتاريخ بغداد ١٢ : ١٥٥-١٥٦ .

(٥) معجم الأدباء ١٧ : ١٢٧-١٢٨ .

(٦) تاريخ بغداد ٦ : ١٨٩-١٩٠ .

(٧) السابق ٦ : ١٩١ .



هذا ما كان من أمر حياة أبي الفرج الأدبية ، أما جوانب حياته الأخرى فنعرف منها أنه كان ـ كما سبق أن ذكرتُ ـ شيعياً . وأريد الآن أن أعيد القول في مذهبه ؛ لأنني رأيت المؤرخين يوحون بأنه كان يتشيّع وحده من بين أهله ، فهم كثيراً ما يقولون في ترجمته : إنه «كان أمويّاً ، وكان يتشيّع»[1] ، وإنه «من العجائب أنه مروانيّ يتشيّع»[2] ، وإنه «كان شيعياً وهذا من العجب»[3] وما إلى ذلك . وإذا كان المؤرخون يُوحون بذلك ، فإن خير من درس أبا الفرج من المعاصرين ـ أعني به الدكتور خلف الله ـ قد قال ذلك من دون لبس حين قرّر «أن أبا الفرج قد ورث تشيّعه عن أسرة أمّه»[4] .

وأريد أن أقول باديء ذي بدء : إنه لا يهمني كثيراً أن يكون أبو الفرج الأصبهاني نصرانياً ، أو مجوسياً ، أو مسلماً شيعياً ، وإنما الذي يهمني أن أقرّر الحقيقة التاريخية كما تبدو لي من خلال حياة أبي الفرج نفسها ، فأقول :

إن الذي يتهيّأ لي أن الأمر لم يكن كذلك ، وأن أبا الفرج لم يتشيّع وحده دون أعمامه وعشيرته الأقربين ؛ وذلك لسببين أولهما ما رواه أبو الفرج نفسه إذ قال : «حدثني حكيم بن يحيى ، قال : كان الحسين بن الحسين بن زيد شيخ بني هاشم ، وذا قُعْدَدِهِمْ ، وكانت الأموال تُحمل إليه من الآفاق . قال : فاجتمعنا يوماً عند جدّك أبي الحسن محمد بن أحمد الأصبهاني ، وجماعة من الطالبيين ، فيهم الحسين بن الحسين بن زيد بن علي ، ومحمد بن علي بن حمزة العلوي العباسي ، وأبو هاشم داود بن القاسم الجعفري ، فقال جدّك للحسين : يا أبا عبد الله ، أنت أقعد ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله

(١) السابق ١١ : ٢٢٠-٢٢١ .
(٢) السابق ١١ : ٤٠٠ .
(٣) العبر في خبر من غبر ٢ : ٢٠٥ ، وشذرات الذهب ٣ : ١٩ .
(٤) صاحب الأغاني : ١٠٢ .



كلهم ، وأبو هاشم أقعد ولد جعفر ، وأنتما شيخا آل رسول الله صلى الله عليه وآله ، وجعل يدعو لهما بالبقاء... »[١] .

إذ أنا أستبعد أن يشمّ ـ لا أن يجالس ـ شيخُ بني هاشم الحسين بن الحسين رجلاً أموياً مثل جدّ أبي الفرج لو لم يكن شيعياً . على أن الأمر لم يقف عند المجاملة وإنما بلغت المودة بين شيوخ بني هاشم ، ومحمد بن أحمد الأصبهاني بحيث يجتمع عنده أقعدُ ولد علي بن أبي طالب ، وأقعد ولد جعفر بن أبي طالب ، وبحيث يدعو لهما بالبقاء . على حين يبخل الشريف الرضيُ بشيء من ماء عينيه على الخليفة عمر بن عبد العزيز ـ وهو من هو صلاحاً وتقى ـ لا لشيء إلا لأنه أمويّ النسب :

يا ابن عبد العزيز لو بكت الـ ـعينُ فتى من أميّة لبكيتُك
أنت نزّهتنا عن السبّ والشتم ، فلو أمكن الجزاء جزيتُك

هذا عندي سبب ، أما السبب الثاني فهو أنني أستبعد أن يوافق آل ثوابة وهم من الأسر «الشيعية التي نالها الاضطهاد لتشيّعها ، ووقع على بعض أفرادها أذى من الخلفاء »[٢] ، أقول : أستبعد أن يوافق آل ثوابة أن يزوّجوا ابنتهم من رجل أموي هو الحسين بن محمد الأصبهاني لو لم يكن هو وأبوه شيعيَين ، بل لعل الذي جمع بين الأسرتين فتصاهرتا ـ من بين ما جمع ـ كونهما أسرتين شيعيتين .

وصفوة القول عندي أنه في حياته المذهبية ، كان شيعياً من أسرة شيعية على أنني لا أعرف ـ على وجه الدقة ـ جدّه الأول الذي اعتنق التشيّع ، فورثت عنه هذه الأسرة الأموية مذهبه .

على أنني أريد أن أنبه الى أن تشيّعه لم يكن ليتعدى حب آل رسول الله

---

(١) مقاتل : ٦٧٨ .

(٢) المرجع السابق .



صلى الله عليه وسلم . وما هو إلى ذلك ، ولكن هذا الحب لم يمنعه من أن يروي عن سكينة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب من الحديث ما لا يليق بامرأة من عامة الناس وليس بامرأة من آل بيت النبوة[١] ، هي سكينة بنت الحسين .

وأريد أن أنبّه الى أنه كان ـ كما قلت ـ رقيق الدين ، وأنه أقرب الى المجون منه الى الصلاح والتقوى ، فقد كان أبو الفرج من ندماء الوزير أبي محمد المهلّبي «منقطعاً إليه ، كثير المدح له ، مختصاً به»[٢] ، ويحسبي من مجالس الوزير المهلبي أن أنقل ما روي عنه من أن بعض القضاة كانوا «يجتمعون عنده في الأسبوع ليلتين على اطّراح الحشمة والتبسّط في القصف والخلاعة ، وهم ابن قريعة وابن معروف والقاضي الإيذجي وغيرهم ، وما منهم إلاّ أبيض اللحية طويلها ، وكذلك كان الوزير المهلبي ، فإذا تكامل الأنس ، وطاب المجلس ، ولذّ السماع ، وأخذ الطرب منهم مأخذه وهبوا ثوب الوقار للعقار ، وتقلّبوا في أعطاف العيش بين الخفّة والطيش ، ووضع في يد كل واحد منهم طاس ذهب من ألف مثقال مملوء شراباً قطربلياً وعكبرياً فيغمس لحيته فيه بل ينقعها حتى تتشرّب أكثره ويرش بها بعضهم على بعض ، ويرقصون بأجمعهم ، وعليهم المصبغات ومخانق البَرَمِ ، ويقولون كلما كثر شربهم هر هر...»[٣] .

ولابد أن حال أبي الفرج لم تكن لتختلف في الخلاعة عن القاضي الإيذجي أو سواه ، بل إن لدينا خبراً يرويه ياقوت نفسه يدلنا على أنه كان من التبسّط بين أبي الفرج والمهلبي ما هو أكثر من هذا في مجالس السكر[٤] . وحسبك من هذا

---

(١) ينظر على سبيل المثال ما رواه أبو الفرج من وفود الفرزدق على سكينة بنت الحسين وما دار بينهما من حديث في الأغاني .

(٢) يتيمة الدهر ٢ : ١١٤ . وينظر معجم الأدباء ١٢ : ١٠٠-١٠١ .

(٣) معجم الأدباء ١٤ : ١٦٦-١٦٧ .

(٤) ينظر نفسه ١٢ : ١٠٨-١٠٩



أن هجا الأصبهانيُّ الوزير المهلبي ـ في هذا المجلس ـ بصدر بيت فاحش أجازه المهلبيّ بما هو مثله في الفحش ، حتى لكأن الأمر من طبيعة العصر نفسه .

وإذاً ، لم يكن أبو الفرج بدعاً لا في مجونه ، ولا في سكره ، ولا في حبه الغلمان ، وإنما هو ابن عصر من أئمته في المجون الحسين بن الحجّاج ، وابن سكّرة الهاشمي .

ومن جوانب حياته الأخرى أنه كان صديقاً حميماً للوزير المهلبي قبل أن يتولى الوزارة وبعدها «الى أن فرّق بينهما الموت»[١] ، ولعل هذه الصحبة هي التي جعلت الوزير المهلبي لا يكلّف أبا الفرج بشيء من العمل يشقُّ عليه ، فاختاره «في كل شيء مريح»[٢] . ولعل هذه الصحبة هي التي قرّبته من معز الدولة البويهي فكان «نديماً له»[٣] .

ولابد لي هنا أن أعرض الى جانب من جوانب أبي الفرج بدا القدماء والمعاصرون معاً متفقين عليه كما لو أنه من المسلَّمات ، أما ذلك الجانب فهو ما روي من أن أبا الفرج «كان وسخاً قذراً لم يغسل له ثوباً منذ فصّله الى أن قطّعه...»[٤] ، وأنه بلغ من هذه الوساخة ، وقلة المبالاة فيما يفعله أنه «كان جالساً في بعض الأيام على مائدة أبي محمد المهلبي فقُدِّمت سكباجة وافقت من أبي الفرج سعلة ، فبدرت من فمه قطعة من بلغم فسقطت وسط الغضارة ، فتقدم أبو محمد برفعها وقال : هاتوا من هذا اللون في غير الصحفة ، ولم يَبِنْ في وجهه إنكار ، ولا استكراه ، ولا داخل أبا الفرج في هذه الحال استحياء ولا انقباض»[٥] .

---

(١) السابق ١٣ ، ١٠٥ .

(٢) نفسه .

(٣) أبو الفرج ، ١١٥ .

(٤) معجم الأدباء ١٣ : ١٠١ . وينظر من المعاصرين ـ على سبيل المثال الأصمعي في أبو الفرج : ١٤١-١٤٤ ، والسيد صقر في (ب) من مقدمة مقاتل الطالبيين . وخلف الله في صاحب الأغاني : ١١٩ .

(٥) معجم الأدباء ١٣ : ١٠٢ والسكباجة مرق يُصنع من اللحم والخل والزّعفران كما في حاشية المعجم .



وينبغي لي أن أقول مرة أخرى كما قلت في مذهبه : إنه لا يهمني أن يكون وسخاً أو أنيقاً ، حيياً أو غير حييٍّ ، بقدر ما يهمني أن أقرر أن في نفسي شيئاً من صحة هذه الأخبار ، مردُّه أنها وردت في كتاب أبي الحسين هلال بن المحسِّن الصابيء «الذي ألفه في أخبار الوزير المهلبي»[١] ، فما يمتنع - والحال تلك - عليه أن يصطنع المناقب للوزير ، وأن يصطنع له شدة توقيه في حفظ حرمة الصحبة التي بينه وبين أبي الفرج ، وإلا فإنه من العجب العجاب أن يصبر المهلبيُّ على أبي الفرج حتى «لم يبن في وجهه إنكار ، ولا استكراه» ، والصابئ نفسه يروي لنا عن تأنّق المهلبي في مطعمه ، ونظافته فيه أنه كان لا يدخل ملعقة يأكل بها الى فمه مرتين فكان «إذا أراد أكل شيء بملعقة كالأرز واللبن وأمثاله وقف من جانبه الأيمن غلام معه نحو ثلاثين ملعقة زجاجاً مجروداً - وكان يستعمله كثيراً - فيأخذ منه ملعقة يأكل بها من ذلك اللون لقمة واحدة ثم يدفعها الى غلام آخر قام من الجانب الأيسر ، ثم يأخذ أخرى فيفعل بها فعل الأولى حتى ينال الكفاية ، لئلاً يُعيد الملعقة الى فيه دفعة ثانية...»[٢] .

أفترى أن المهلّبي الذي يتوقى ما علق في ملعقة من فمه هو يصبر على «قطعة من بلغم» تسقط من فم أبي الفرج ثم لا يبين «في وجه إنكار ولا استنكار» ؟ ثم تبلغ القِحةُ من أبي الفرج - وهو أعرف الناس به وألزمهم له - بحيث لم يستح ولم ينقبض ؟ إن في المهلبي إذن لصبراً يعجبُ منه التُّقاة الصابرون ، وإن في أبي الفرج من الوقاحة وسوء الأدب ما لم يبلغه العتاة الوقحون . ولم يكن المهلبيُ - وهو الحديث النعمة - كذلك ، ولم يكن أبو الفرج أيضاً .

هذه واحدة . أما الثانية فإننا قد رأينا أن أبا الفرج قد نشأ في أسرة موسرة من طرفيها ، وتمتهن الكتابة وتغشى دواوين الدولة من جناحيها - إذ

---

(١) السابق ١٢ : ١٠٠ .

(٢) السابق ١٢ : ١٠٢-١٠٣ .



عائلة الأب من الكتاب ، وعائلة الأم كذلك ـ فإذا لم يكن الطفل الذي ينشأ في مثل هذه الأسرة بين الأصبهانيين وآل ثوابة قد تربّى على النظافة ، واللياقة ، وحسن الأدب فعلى ماذا تربّى ؟

وإليك الثالثة وهي أنّ أبا الفرج كان ـ كما رأيت ـ من ندماء معزّ الدولة البويهي . فَهَبْ أن المهلبي كان يصبر على وساخته ، وسوء أدبه لطول الصحبة ولكن قل لي ما الذي كان يُرغم معز الدولة على الصبر عليهما ؟

ثم ألم يقل مؤرخوه إنه « يحفظ من آلة المنادمة شيئاً كثيراً »[1] ؟ فإذا لم يكن من آلة المنادمة نظافة الثوب ، وحسن الأدب ، وظرف الحديث فكيف تكون ؟

هذه أمور تجعلني أشكّ في صحة ما رواه الصابيء ، وأمر آخر أضيفه إليها هو أنني رأيت له قصيدتين يطلب فيهما من الوزير المهلبي ثياباً[2] ، أفترى أن الذي « لم يكن ينزع درّاعة إلا بعد إبلائها وتقطيعها »[3] يكون من همّه ، ومن وكده ، ومن دأبه ، أن يطلب الثوب ؟

كل هذا يجعلني أظن أن أبا الفرج قد ذهب ضحية اصطناع المناقب للوزير المهلبي ، وربما ضحية الحسد ، والغيرة مما بلغ من منزلة أدبية ، ولكن ذلك لا يجعلني أزعم أنه كان قد أوفى على الغاية من حسن المظهر ، وعلى المنتهى من حسن الأدب . إذ لم يشر معاصروه ـ ومنهم الثعالبي ـ الى شيء في مظهره ؛ مما يستشف منه أن مظهره كان كمظهر الآخرين مألوفاً . وأما أدبه فبحسبه منه حديث الحسن بن الحسين النعّال « قال : قال أبو الفرج الأصبهاني : بلغ أبا الحسن جحظة أن مدرك بن محمد الشيبانيّ الشاعر ذكره بسوء في مجلس كنت حاضره وكتب إليّ :

---

(1) شذرات الذهب ٣ : ١٩ ، وتاريخ بغداد ١١ : ٣٩٩ .

(2) هما في يتيمة الدهر ٣ : ١١٥-١١٧ إحداهما ميمية ، والأخرى رائية .

(3) معجم الأدباء ١٣ : ١٠١-١٠٢ .



أبا فَــرَجٍ أهجى لديك ويُعــتــدى | عليَّ ، فـلا تحمى لذاك وتـغضب ؟
لعمرك مـا أنصفتني في مودَّتي | فكن مُـعـتـبـاً ، إن الأكـارم تُـعـتِبُ

قال أبو الفرج : فكتبتُ إليه :

عــجــبت لمــا بُلّغت عنّي باطلاً | وظنُّكَ بي فـيــه لعَـمـرُكَ أعـجبُ
ثكلتُ إذاً نفسي ، وعزّي ، وأسرتي | بفقدي ولا أدركتُ ما كنت أطلبُ
فكيف بمن لا حظّ لي في لقــائه | وسـيّـانِ عندي وصلُه والتـجنُّب
فثقْ بأخٍ أصـفـاك مـحض مـودةٍ | تشاكل منها ما بدا والتغيُّبُ »[1]

فالأبيات تومئ الى حسن أدب ، والى وفاء في الصحبة .

على أن حسن أدب أبي الفرج لم يكن يمنعه من أمرين أحدهما إيثاره أن يقضي حوائجه من مال غيره ، فقد رأيناه يطلب ثيابه من الوزير المهلبي ، ونراه الآن يطلب من القاضي التنوخي ـ زميله في مجلس المهلبي ـ حِبراً ، ويزعم إليه ـ في أرجوزة ـ أنه لم يجده يباع ليشتريَه ، كما لو أن في الحبر ندرة[2] ومع ذلك فإنني لا أستطيع أن أتهمه بالبخل لأن أحداً من القدماء لم ينصَّ على ذلك .

ولعل هذه الخلّة في أبي الفرج هي التي جعلت المهلبيَ يمطله في أحيان مما اضطر معه أبو الفرج أن يهجوه حيناً هجاء لم يكن يقوله إلا في السر[3] ، وأن يعاتبه حيناً عتاباً شديداً هو أقرب الى الهجو في مثل قوله :

أبعــين مــفــتــقــر إليك رأيتني | بعـد الغنى فرميت بي من حَـالق
لست الملومَ ، أنا الملومُ لأنني | أمَّلتُ للإحسان غيـر الخالق[4]

أما خلّته الثانية فهي بذاءة لسانه في الهجاء حتى إن الناس كانوا :

---

(١) السابق ١٢ : ١٢٢-١٢٣ .
(٢) ينظر يتيمة الدهر ٣ : ١١٨ .
(٣) معجم الأدباء ١٣ : ١٠٨-١٠٩ .
(٤) السابق ١٣ : ١٠٣-١٠٤ .



« يحذرون لسانه ، ويتّقون هجاءه... »[١] ، ولم أر له من الهجاء العفيف ما أستطيع نقله الى القارئ الكريم إلا قوله في أبي سعيد السيرافي النحويّ المعروف :

لستَ صدراً ، ولا قرأت على صد ... رٍ ، ولا علمُكَ البكيُّ بكاف
لعن الله كلّ شعرٍ ، ونحوٍ ... وعروضٍ يجيء من سيراف[٢]

ويبدو أن أبا الفرج أعسر بعد إيسار ، فقد رأيناه ، وقد انحدر الى البصرة يشكو ما آل إليه حاله حتى إنه ليسكن بيتاً من بيوت الكراء بعد أن كان يملك « منزلاً مبهجاً »[٣] ولكننا لا نعلم متى افتقر ، على أننا نعلم أن قصيدته التي يشكو فيها حاله تبلغ من صدق النبرة ، ما لا يدع مجالاً للشك في أنه قد افتقر حقاً ، وما يجعل الدارس إذا نظر الى معاتبته الوزير المهلبي في قوله الذي مرّ قبل قليل : « أبعين مفتقر إليك » على أنها تصاغر الكاتب أمام وزيره ، لا يستطيع أن ينظر الى هذه القصيدة بالعين نفسها .

بقي عليّ أن أشير الى سرعة بديهة أبي الفرج ، وذكائه في ردّ ما لا يصدّقه من الأمور بالفكاهة البارعة ، والدُّعابة الحلوة ، ولي في ما جرى بينه وبين أبي القاسم الجهني القاضي في مجلس الوزير المهلبي[٤] ما يدلّ دلالة واضحة على ذلك .

ولا أريد أن أفيض في جوانب حياته أكثر مما أفضتُ ، ولكنني أريد أن أتحقق من تاريخ وفاته ؛ فقد أجمع المؤرخون لحياته ـ ما عدا ابن النديم ـ أنه توفي « يوم الأربعاء ، لأربع عشر خلون من ذي الحجة سنة ستٍ وخمسين وثلثمائة... وهذا هو القول الصحيح في وفاته »[٥] . وقول الخطيب البغدادي إن

---

(١) السابق ١٢ : ١٠١ .
(٢) يتيمة الدهر ٣ : ١١٧ ، ومعجم الأدباء ٨ : ١٤٨ .
(٣) معجم الأدباء ١٢ : ١١٦ .
(٤) تنظر الحادثة في معجم الأدباء ١٢ : ١٢٢-١٢٤ .
(٥) تاريخ بغداد ١١ : ٤٠٠ .



«هذا هو القول الصحيح في وفاته» يدلنا على أن القدماء أنفسهم كانوا في أخذ وردّ من سنة وفاته ، ولعل أول من نبّهنا الى ذلك منهم ياقوت الحموي حين ذكر سنة وفاته المتفق عليها بين المؤرخين فقال : «وفاته هذه فيها نظر ، وتفتقر الى التأمل...»[١] .

أما الأسباب التي تدعو إلى هذا التأمل عنده فمن بينها قوله : «حدثني صديق قال : قرأت على قصر معزّ الدولة بالشماسيّة ، يقول فلان بن فلان الهرويّ ، حضرتُ هذا الموضع في سماط معزّ الدولة ، والدنيا عليه مقبلة ، وهيبة الملك عليه مشتملة ، ثم عدتُ في سنة اثنتين وستين وثلثمائة ، فرأيت ما يعتبر به اللبيب...»[٢] .

ومهما يكن من أمر فقد درج الناس أن يؤرخوا لوفاته بسنة ست وخمسين وثلثمائة ولم يشذّ عنهم ـ فيما نعلم ـ إلا قلة من بينهم الدكتور خلف الله ، وقد بنى شكه على أمرين أولهما أن تاريخ وفاته المشهور لم يذكره إلا تلميذه محمد بن أبي الفوارس ـ وقد كان جوّالاً في طلب العلم يوم مات أبو الفرج ـ وثانيهما أن قول ابن أبي الفوارس لم يُدوَّن إلا بعد مدة طويلة في تاريخ الخطيب البغدادي[٣] .

وأراني أوافق الحموي ، وخلف الله على أن وفاته لم تكن سنة ٣٥٦هـ مضيفاً الى أسبابهما سبباً آخر هو قول أبي الفرج نفسه : «وخرجت أنا وأبو الفتح أحمد بن إبراهيم بن علي بن عيسى رحمه الله ماضين الى دير الثعالب في يومٍ... من سنة خمس وخمسين وثلاثمائة للنزهة ، ومشاهدة اجتماع النصارى... وإذا بفتاةٍ كأنها الدينار المنقوش... فمضينا معها... وحصلت بينها وبين أبي الفتح

---

(١) معجم الأدباء ١٣ : ٧٦ .

(٢) نفسه .

(٣) ينظر صاحب الأغاني : ١٩-٢١ .



عشرة بعد ذلك ، ثم خرج الى الشام ، وتوفي بها ، ولا أعرف لها خبراً بعد ذلك... »[١] .

إذ أن هذا النص ـ عندي ـ يدل على تأخر وفاة الأصبهاني الى ما بعد سنة ٣٥٦هـ ، لأسباب منها : أن الحادثة وقعت قبل وفاة أبي الفرج المزعومة بشهور ، وهو من النشاط والمرح ، وحب الحياة ما لا ينسجم وقول المؤرخين من أنه خلّط في آخر حياته[٢] .

هذه مسألة ، أما الثانية فهي أنه يذكر أنه قامت عشرة بين تلك الفتاة وصديقه أبي الفتح ، وأن أبا الفتح هذا قد خرج الى الشام وتوفي بها . وكل هذا معناه أنه خرج الى الشام بعد هذه السنة أو في أثنائها أعني سنة ٣٥٥هـ ثم توفي قبل وفاة أبي الفرج ، وصيغة الحديث يمكن أن تومىء الى طول مدة مكثه في الشام ، وإلا فإن العشرة بين أبي الفتح والفتاة لا تكون بيوم ويومين ولا بسنة وسنتين ، إن العشرة وحدها دليل على طول المدة ، فإذا نظرنا الى أن هذه العشرة قد انتهت وأن صاحبها أبا الفتح قد مات كان لنا أن نطمئن الى ما رواه ابن النديم ـ وهو من معاصريه الذين رووا عنه ـ من أن وفاته كانت في سنة « نيّف وستين وثلثمائة »[٣] .

هذا ما كان من أمر أبي الفرج ، أما ما كان من أمر مؤلفاته فهي كثيرة تكاد تقارب الأربعين مؤلفاً ، وسأعتمد في سردها على محمد عبد الجواد الأصمعي فيما نقله عن ابن النديم وياقوت الحموي ، والقفطي[٤] ، واضعاً زياداتي عليه بين قوسين معقوفتين ، وهي :

---

(١) معجم الأدباء ١٣ : ١١٢-١١٥ .

(٢) ينظر تاريخ بغداد ١١ : ٤٠٠ . وشذرات الذهب ٣ : ٢٠ . وميزان الاعتدال ٣ : ١٢٢ .

(٣) الفهرست : ١٢٧ .

(٤) أبو الفرج : ١٥٧-١٥٩ .



١ـ كتاب الأغاني الكبير ، نحو خمسة آلاف ورقة .

٢ـ كتاب مجرد الأغاني .

٣ـ كتاب مقاتل آل أبي طالب ، وطبع بطهران سنة ١٣٠٧هـ ، وطبع للمرة الثانية بمطبعة الحلبي بمصر [١٣٦٨هـ ـ ١٩٤٩م ، بتحقيق السيد أحمد صقر ، ومنه طبعة لبنانية في دار العرفان بصيدا بإشراف المرحوم الشيخ عارف الزين ، وعنوان الكتاب في الطبعتين المصرية واللبنانية : مقاتل الطالبيّين] .

٤ـ كتاب التعديل والانتصاف في أخبار العرب وأنسابها... ذكره هو في كتاب الأغاني وهو كتاب جمهرة أنساب العرب .

٥ـ كتاب تفضيل ذي الحجة .

٦ـ كتاب أخبار القيان .

٧ـ كتاب الأخبار والنوادر .

٨ـ كتاب نسب بني كلاب .

٩ـ كتاب أدب السماع .

١٠ـ كتاب أخبار الطفيليين .

١١ـ كتاب أدب الغرباء من أهل الفضل والأدب [وقد حققه الدكتور صلاح الدين المنجِّد عن مخطوطة فريدة ، ونشره في دار الكتاب الجديد ببيروت سنة ١٩٧٢ ، بعنوان : (أدب الغرباء) ولكاتب هذه المقدمة رأي في التحقيق نشره في مجلة الأديب البيروتية في عددها الثاني من سنتها الثانية والثلاثين ـ فبراير ١٩٧٣] .

١٢ـ كتاب مجموع الآثار والأخبار .

١٣ـ كتاب أشعار الإماء والمماليك [وقد حققه الأستاذ جليل العطية سنة ١٩٨٨



ونشره بعنوان الإماء الشواعر ، ولم أره ، وإنما حدثني بذلك أخو المحقق الأستاذ الدكتور خليل إبراهيم العطية] .

١٤ـ كتاب الحانات .

١٥ـ كتاب الخمارين والخمارات [وبقي من أوله سبع ورقات محفوظة لدى السيد أحمد عبيد في دمشق][1] .

١٦ـ كتاب الديارات [وقد التقط أشياء منه الدكتور جليل العطية فنشر هذا المُلتقط في كتاب سنة : ١٩٩١] .

١٧ـ كتاب صفة هارون .

١٨ـ كتاب الفرق والمعيار بين الأوغاد والأحرار وهي رسالة في هارون بن المنجّم [ولعل هذا العنوان والذي قبله اسمان لكتاب واحد] .

١٩ـ كتاب دعوة النجار .

٢٠ـ كتاب أخبار جحظة البرمكي .

٢١ـ كتاب نسب بني عبد شمس .

٢٢ـ كتاب نسب بني شيبان .

٢٣ـ كتاب نسب المهالبة [ولعله كتبه لمخدومه الوزير أبي محمد المهلبي] .

٢٤ـ كتاب نسب بني تغلب .

٢٥ـ كتاب الغلمان والمغنين .

٢٦ـ كتاب مناجيب الخصيان ، عمله للوزير المهلبي في خصيين كانا له .

٢٧ـ كتاب أيام العرب : ألف وسبعمائة يوم .

---

(١) ينظر الأعلام للزركلي ٥ : ٨٨ حاشية .



٢٨ـ كتاب دعوة الأطباء .

٢٩ـ كتاب تحف الوسائد في أخبار الولائد .

٣٠ـ جمع ديوان أبي تمام ولم يرتبه على الحروف بل على الأنواع...

٣١ـ جمع ديوان أبي نواس .

٣٢ـ جمع ديوان البحتري ، ولم يرتبه على الحروف بل على الأنواع كما فعل بديوان أبي تمام .

٣٣ـ كتاب في النغم أشار إليه في كتابه : الأغاني .

٣٤ـ رسالة في شرح أصوات الأغاني . أشار إليها في كتابه الأغاني... وقد ردَ فيها على يحيى المكي شيخ جماعة المغنين وأستاذهم .

٣٥ـ كشف الكربة في وصف الغربة أشار إليه بروكلمان [قلت : لعله هو كتاب أدب الغرباء] .

٣٦ـ الأمالي أشار إليه بروكلمان .

٣٧ـ [كتاب ما نزل من القرآن في أمير المؤمنين وأهل بيته عليهم السلام[١]] .

٣٨ـ [كلام فاطمة عليها السلام في فدك] .

هذه هي قائمة كتب أبي الفرج . أما أهم كتب هذه القائمة مما وصل إلينا من كتبه فهو كتاب الأغاني لا ينازعه ـ في بابه ـ منازع من سائر كتبه .

وفكرة كتاب الأغاني مبنيّة على الأصوات المائة «المختارة لأمير المؤمنين الرشيد رحمه الله تعالى ، وهي التي كان أمر إبراهيم الموصلي ، وإسماعيل بن جامع ، وفُلَيح بن العوراء باختيارها له من الغناء كله ؛ ثم رفعت الى الواثق بالله

---

(١) انفرد أبو جعفر الطوسي المعروف بشيخ الطائفة في الفهرست ، ٢٧٩ بذكر هذا الكتاب والذي يليه له . نقلاً عن صاحب الأغاني ، ١٢٨ .



ـ رحمة الله عليه ـ فأمر إسحق بن إبراهيم بأن يختار له منها ما رأى أنه أفضل مما كان اختير متقدماً ، ويبدل ما لم يكن على هذه الصفة بما هو أعلى منه وأولى بالاختيار ؛ ففعل ذلك...»[١] .

وهكذا وجد أبو الفرج إزاءه مائة لحن هي في رأي إسحق أفضل الألحان العربية فرأى أن يؤرخ لهذه الألحان بعد إذ رأى أن كتاب «الأغاني» المنسوب الى إسحق ، «مدفوع أن يكون من تأليفه ، وهو مع ذلك قليل الفائدة...»[٢] ، فسلك طريقاً واحداً في كتابه كله هو أن يذكر الشعر الذي غُنّي به هذا اللحن أو ذاك من المائة تحت عنوان «صوت» ثم يذكر عروض ذلك الشعر أهو من الكامل أم من الخفيف أم من البسيط ؟ ثم ينتقل الى نسبة هذا الشعر لشاعره ، والى نسبة الغناء لصاحبه ، ليصل إلى تدوين موسيقى ذلك الغناء بالمصطلحات الموسيقية القديمة التي لا نعرف عنها اليوم شيئاً كأن يقول : «ولحنه المختار من الثقيل الأول بالبنصر ، وفيه لبابويه خفيف ثقيل بالوسطى»[٣] وما إلى ذلك . حتى إذا فرغ من ذلك كله انتقل الى ترجمة الشاعر ، فذكر نسبه ، وأخباره ، وما يمتّ الى حياته بسبب مما يكون قد وقع إليه أو اطّلع عليه ، ذاكراً كلّ ذلك بسنده ، وسلسلة رواته .

وبهذه الطريقة ترجم أبو الفرج لخمسمائة وستة وتسعين شاعراً من العصور الجاهلية ، والإسلامية ، والأموية والعباسية ، ولسبعةٍ وثمانين مغنياً من العصرين الأموي العباسي[٤] عدا ما ذكره من أخبار الخلفاء ، والوزراء ، والكتّاب ومن إليهم .

فلو قلتَ بعد هذا : إن كتاب الأغاني كنز أدبي ثمين ، وثروة أدبية طائلة

---

(١) الأغاني .

(٢) نفسه .

(٣) نفسه .

(٤) قام الدكتور داود سلوم وشريكه بالإحصاء في كتابهما «شخصيات كتاب الأغاني» ، ٤١٥-٤٣٤ .



لما أبعدت ، ولما جاوزت الحد ، وكان الذي يماريك في هذا أحد رجلين إما جاهلاً وإما مجنوناً .

ولا أكاد أشك في أن هذه الثروة الأدبية الطائلة أثارت على أبي الفرج شيئاً من الحسد والغيرة ، بمقدار ما أثارت عليه من الإعجاب ما يكاد يدخل في الأساطير . فأما أهل الحسد فقد هالَهم أن يأتي أبو الفرج بكل هذه الثروة رواية ، فقالوا عنه « كان أبو الفرج الأصبهاني أكذب الناس ، كان يدخل سوق الورّاقين وهي عامرة والدكاكين مملوءة بالكتب ، فيشتري شيئاً كثيراً من الصحف ، ويحملها إلى بيته ثم تكون رواياته كلُّها منها »[1] . وأنا لا أريد أن أناقش هذا القول لأنه إذا كان يؤلف مطعناً في أبي الفرج وفي كتبه ـ ومنها الأغاني ـ خلال العصر العباسي ، فإنه ليس كذلك في عصرنا الحاضر ، وذلك أن معنى القول أن أبا الفرج لم يكن راوية يأخذ عن شيوخ ، وإنما كان يتتلمذ للكتب التي يمكن أن يقع فيها التصحيف والتحريف ثم يزعم أنه يروي بسند وأنه راوية .

والحق أنني وجدت أبا الفرج ينص على طبيعة مروياته ، فهو يقول « أخبرني » ويقول « حدثني » ويسكت ، فتفهم منه أنه يروي من حفظه ـ وهذا هو الغالب على مروياته ـ أما حين يأخذ من كتاب فإنه ينص على ذلك ، وقد مرّ بنا قوله ـ على سبيل التمثيل لا الحصر ـ « ونسخت من كتاب جدي يحيى بن محمد ابن ثوابة بخطه » أكثر من مرة ، وينص على إجازته إذا كان مجازاً في الرواية ، وعلى المكاتبة كما فعل مع أبي خليفة الفضل بن الحباب ، وينصّ على الوجادة .

وسواء أكان أبو الفرج راوية أم ينقل مروياته عن كتب ، فإنه كان يعوّل « في تصنيفه على الكتب المنسوبة الخطوط ، وغيرها من الأصول الجياد »[2] .

---

(١) تاريخ بغداد ١١ : ٣٩٩ .

(٢) الفهرست ١٢٧ .



وفي الحالين ، إننا آمنون من أن يصحِّف الأسماء في كتبه أو أن يحرِّفها وذلك غاية ما نرجوه .

ويزيد من قيمة كتابه تثبُّته في الرواية بألمعية نادرة ، وبعلم جمّ وافر غزير ، دالاً على علم بالرجال وبالجرح والتعديل مرة كأن يقول : «أخبرني الحسن بن علي قال حدثنا محمد بن القاسم بن مهرويه عن علي بن الصباح - وأظنه مرسلاً... لأنه لم يسمع من علي بن الصباح...»[1] . ودالاً على معرفته بالتاريخ مرة كأن يقول : «أخبرني عمي قال ، حدثنا أبو هفّان قال : كان بكر ابن النطّاح قصد مالك بن طوق فمدحه ، فلم يرض ثوابه فخرج من عنده... هكذا ذكر أبو هفّان في خبره ، وأحسبه غلطاً ، لأن أكثر مدائح بكر بن النطّاح في مالك بن علي الخزاعي - وكان يتولى طريق خراسان - وصار إليه بكر بن النطّاح بعد وفاة أبي دُلَفٍ ومدحه...»[2] .

ويدلّك أبو الفرج في أكثر من مرة أنه دارس متفحّص ، وناقد متمرّس ، فمن كان في ريب من ذلك فله أن يقرأ قصيدة الفرزدق التي مدح بها الإمام زين العابدين ، علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام ، والتي مطلعها :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيتُ يعرفه والحلُّ والحرمُ

وسيرى كيف يسلّ أبو الفرج الشعرة من العجين ، وكيف يُخرج من أبيات القصيدة ما ليس فيها بذوق ثاقب .

أما دراسة أبي الفرج المتفحصة ما يرويه من أخبار فحسبي منها هذا الخبر ، يقول أبو الفرج : «ونسختُ هذا الخبر من كتاب جدي يحيى بن محمد ابن ثوابة بخطّه قال : حدثني الحسن بن سعيد قال : حدثني منصور بن جمهور

---

(١) الأغاني .

(٢) نفسه .



قال : لما هجا ابن قنبر مسلم بن الوليد بعد أن أشلى لسانه قال : فجاءه عمٌ له فقال له : يا هذا الرجل : إنك عند الناس فوق ابن قنبر في عمود الشعر ، وقد بعث عليك لسانه ثم أمسكت عنه . فإما أن قارعته أو سالمته ، فقال له مسلم : إن لنا شيخاً وله مسجد يتهجّد فيه ، وله بين ذلك دعوات يدعو بهنَ ، ونحن نسأله أن يجعله من بعض دعواته ؛ فإنا نُكفاهُ ، فأطرق الرجل ساعة ثم قال :

غلب ابنُ قنبر واللئيمُ مُغلَّبُ ... لما اتقيتَ هجاءه بدُعاءِ

مازال يقذفُ بالهجاء ، ولذعِهِ ... حتى اتَّقوه بدعوةِ الآباءِ

قال : فقال له مسلم : والله ما كان ابن قنبر يبلغ مني هذا كلَّه ، فأمسك لسانك عني ، وتعرَّف خبره بعد هذا . قال : فبُعثَ ـ والله ـ عليه من لسان مسلم ما أسكته . هكذا جاء في الأخبار»[1] .

ولعل مسؤولية أبي الفرج لو لم يكن أبا الفرج كانت ستنتهي عند هذا الحد ، وعهدة الخبر على ما «جاء في الأخبار» لكنه لم يقف عند هذا وإنما رجع الى مناقضات ابن قنبر ومسلم بن الوليد يستجلي صحة الخبر فقال : «وقد حدثني بخبر مناقضته ابن قنبر جماعة ذكروا قصائدهما جميعاً فوجدتُ في الشعر الفضل لابن قنبر ، لأن له عدة قصائد لا نقائض لها ، يذكر فيها تعريده عن الجواب...»[2] .

وإذاً ، لم تكن مرويات أبي الفرج مما يقبله على عواهنه ، فهو يخضعها الى ما نصطلح عليه اليوم بالنقد التوثيقي .

ولعلي كدتُ أنسى ما أنا فيه ، بسبب أمر حسّاد أبي الفرج فأنسي معي القارىء ما هو بسبيله ، فأقول : هذا ما كان من أمر حسّاد الأصبهاني وقد هالهم ما رأوا في كتبه من روايات لا تتهيأ لأمة من الناس وليس لفرد واحد . فقالوا :

---

(١) نفسه .

(٢) نفسه ، وعرّد عن الجواب بمعنى عجز عنه .



« إنه كان يذهب إلى سوق الوراقين وهي عامرة بالكتب . فيشتري شيئاً كثيراً من الصحف... ثم تكون رواياته منها » . ولقد كنا نتمنى على هؤلاء أن يدلّونا على ما صحف فيه أبو الفرج ، أو ما نحله لنفسه من روايته ، ولكنهم لم يفعلوا رغم أن أبا الحسن البتّي كان يقول : «لم يكن أحد أوثق من أبي الفرج »[١] .

أما ما أثارته هذه الثروة الأدبية الطائلة من الإعجاب ـ وأنا أعني بها الأغاني ـ فلي عليه شاهد من قول ياقوت الحموي : «لعمري إن هذا الكتاب لجليل القدر ، شائع الذكر ، جم الفوائد ، عظيم العلم ، جامع بين الجدّ البحت ، والهزل النحتِ ، وقد تأملتُ هذا الكتاب ، وعنيت به ، وطالعته مراراً وكتبتُ منه نسخة بخطي في عشر مجلّدات... »[٢] ولي عليه شاهد آخر فيما صنعه يحيى الخذوج المرسي من « كتاب الأغاني الأندلسية على منزع الأغاني لأبي الفرج... »[٣] .

ولقد قلت : إن من هذا الإعجاب ما كاد يدخل في الأساطير ، فمنها ما قيل بما يشبه الإجماع من المؤرخين القُدماء والمعاصرين ـ عدا الدكتور خلف الله ـ من أنه أهداه الى سيف الدولة الحمداني . حتى لكأنهم يقولون ـ حين يروون هذا ـ إن مثل كتاب الأغاني لا يليق إلا بأمير مثل سيف الدولة ممدوح أبي الطيب المتنبي ، وهو فخر ما بعده فخر .

ولقد جاءت أسطورة الإهداء إلى سيف الدولة أول ما جاءت في كتاب معجم الأدباء ، فقد جاء فيه : «وقال الوزير أبو القاسم الحسن بن الحسن المغربي في مقدمة ما انتخبه من كتاب الأغاني الى سيف الدولة بن حمدان فأعطاه ألف دينار... »[٤] .

---

(١) ميزان الاعتدال ٣ : ١٢٣ .

(٢) معجم الأدباء ١٢ : ٩٨ .

(٣) نفح الطيب ٣ : ١٨٥ .

(٤) المعجم ١٢ : ٩٧ .



ولا أعرف كيف فهم القدماء والمعاصرون من هذا النص المضطرب أن أبا الفرج أهداه إلى سيف الدولة ، فإذا أخذنا النص على اضطرابه كان معناه ـ كما فهم منه خلف الله ـ أن الوزير المغربي انتخب كتاب الأغاني الى سيف الدولة ، وإذا صحَ هذا فأين إهداء أبي الفرج كتاب الأغاني الى سيف الدولة ؟ إن كل ما في الأمر أن الوزير المغربي اختار منتخبات من كتاب الأغاني لسيف الدولة ، وهذا باطل لأن الوزير المغربي متأخّر عن عصر سيف الدولة ، إذ توفي سنة ٤١٨هـ .

وإذا افترضنا أنه سقط من النص شيء يدل على هذا كان علينا أن نعيد من كتابته على هذه الصورة : «وقال الوزير أبو القاسم... المغربي في مقدمة ما انتخبه من كتاب الأغاني [أنه أنفذه] الى سيف الدولة بن حمدان فأعطاه ألف دينار وبلغ ذلك الصاحب أبا القاسم بن عباد فقال : لقد قصّر سيف الدولة وإنه يستأهل أضعافها...» . فإذا قبلنا النص على هذه الصورة فهمنا منه أن أبا الفرج أنفذ كتاب الأغاني إلى سيف الدولة وأنه أجازه عليه .

ويرى الدكتور خلف الله ـ وأراني أوافقه ـ أن هذا لم يقع لجملة أسباب منها :

«أن الكتب التي جمعت من أخبار سيف الدولة الأدبية والتاريخية الأمور الكثيرة»(١) لم تذكر «لهذه المسألة ظلاً... مع عناية أصحاب هذه الكتب بما هو من جنس هذه المسألة»(٢) . وأن العداوة التي كانت قائمة بين الحمدانيين والبويهيين والتي استتبعت حروباً كانت تمنع أبا الفرج ـ وهو كاتب المهلبي ـ وزير البويهيين أن يهدي كتابه إلى أعداء أولياء نعمته .

زد على ذلك أن أبا الفرج ينص في مقدمة الأغاني أن رئيساً من رؤسائه قد

---

(١) صاحب الأغاني : ٨٠ .
(٢) نفسه .



كلفه بجمعه له . وسيف الدولة ليس برئيس ، وإنما هو أمير ، ولو كان ـ على أسوأ الفروض ـ رئيساً لما كان رئيساً لأبي الفرج[١] .

ورغم كل هذا فقد بنى بعض المعاصرين على مسألة هذا الإهداء نتائج منها قول بروكلمان عن أبي الفرج : «ومن ثم وجدناه ينادم سيف الدولة»[٢] علماً أن من يقرأ ما تبقى من كتب أبي الفرج ـ كما قرأها الدكتور خلف الله ـ يجده لم يزر في حياته إلا أربع مدن ـ على وجه التحديد ـ هي الكوفة ، والقادسية ، والبصرة ، وأنطاكية[٣] .

وإذا نحن ما تجاوزنا بغداد التي اتخذها سكناً له فلا نستطيع أن نضيف الى أربع المدن هذه إلا حصن مهدي الذي يقع في خوزستان[٤] .

ومهما يكن من أمر فإن مسألة إهداء الكتاب الى سيف الدولة أسطورة نسجها المعجبون بالكتاب وبمؤلفه . وإذا كان سيف الدولة ممن ليست لهم علاقة بالكتاب ، فإن المهلبي كان كذلك . أقول هذا لأنني رأيت الدكتور خلف الله يميل إلى ذلك ـ أعني أن الكتاب آلف للمهلبي ـ ويُرجّحه . وحجته على ذلك أن المهلبي ممن تنطبق عليه صفة الرياسة ، وأن هنالك من العلاقة بينه وبين أبي الفرج ما يجعل تأليف الكتاب له أمراً وارداً . أما لماذا لم يذكره باسمه الصريح مكتفياً بإطلاق لفظ الرئيس عليه فذلك عائد في رأيه الى أن المهلبي «قد مات مغضوباً عليه من معزّ الدولة سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة ، ولعله من أجل هذا الغضب نفسه سكت أبو الفرج عن أن يقول في المهلبي شيئاً من الرثاء»[٥] .

---

(١) ينظر السابق ، ٧٦ وما بعدها .

(٢) تاريخ الأدب العربي ٣ ، ٩٨ . وفي أدب الغرباء ، ٥٧ ما يوحي بأن أبا الفرج كان من حضار مجلس المتنبي ولا نعلم إن كان قد حضره في بغداد أو في حلب . ولكن يغلب على ظني أنه حضره في بغداد .

(٣) ينظر صاحب الأغاني ، ٢٦-٢٧ . ومعلوم أنه لم يكن من كتب أبي الفرج المطبوعة ـ على عهد خلف الله ـ إلا اثنان هما الأغاني والمقاتل .

(٤) ينظر أدب الغرباء ، ٢٧ وحاشية محققة .

(٥) صاحب الأغاني : ٩١ .



ويغلب على ظني أن الأمر لم يكن كذلك لجملة أمور منها أننا نعلم أن أبا الفرج «كتبه مرة واحدة في عمره»[1] فإذا صح هذا وهو عندي صحيح لا لشيء إلا لضخامة حجم الكتاب الذي بلغ ـ كما يقول ابن النديم ـ خمسة آلاف ورقة . وصعوبة نسخه . والدليل على ذلك أن أبا الفرج نفسه لم يحتفظ لنفسه إلا بمسوّدة الكتاب «وهي أصل أبي الفرج أخرجت الى سوق الورّاقين لتباع... [فـ] بيعت في النداء بأربعة آلاف درهم ، و... أكثرها في طروس وبخط التعليق»[2] أقول : إذا صح أنه كتبه مرة واحدة ، ولا شيء يمنع من صحته ، فإن ذلك معناه أنه أهدى النسخة الى المهلبي في حياته وليس بعد وفاته ، وفي وزارته وليس قبلها إذ ماذا كان يؤمّل أبو الفرج بالمهلبي ـ وهو المفلس ـ قبل وزارته ؟ فإذا كان ما ذهبتُ إليه صحيحاً ـ والمهلبي في مجده ورفعته ووزارته ـ فما الذي كان يمنع أبا الفرج من ذكر اسم الرئيس صراحة ؟

إن فرض الدكتور خلف الله كان سيكون صحيحاً من أن أبا الفرج لم يذكر المهلبي لأنه كان مغضوباً عليه يوم توفي لو ثبت أن أبا الفرج أخرج نسخة من كتابه بعد وفاة المهلبي ، أما مسألة أن أبا الفرج لم يرثه يوم مات فتلك مسألة بها حاجة الى أن يكون ديوان أبي الفرج بين أيدينا نتحرى الأمر فيه . أما وقد ضاع الديوان فتقرير رثائه إياه من عدمه يبقى رجماً بالغيب الذي لا يعلمه إلا الله .

فإذا قررت هذا ، فليس في وسعي ـ وأنا أقول إنه لم يؤلف لا لسيف الدولة الحمداني ولا للوزير المهلبي ـ أن أعيّن الرئيس الذي ألّف له ، وحسبي من هذا أنني مشيتُ من الطريق نصفه .

وأسطورة أخرى صاغها المعجبون ، فقال قائلهم عن الحكم المستنصر

---

(١) معجم الأدباء ١٣ : ٩٨ .

(٢) السابق ١٣ : ١٢٦-١٢٧ .



صاحب الأندلس أنه : «بعث في كتاب الأغاني الى مصنّفه أبي الفرج الأصفهاني [كذا] وكان نسبه في بني أمية ، وأرسل إليه فيه بألف دينار من الذهب العين . فبعث إليه بنسخة منه قبل أن يخرجه إلى العراق»(١) .

وعلى أنني لا أعرف متى آلف أبو الفرج ـ على وجه التحديد ـ كتاب الأغاني ، ولا أعرف أيضاً من أين جاء السيد أحمد صقر بقوله عنه إنه نهض «بتأليف كتاب الأغاني العظيم ولما يبلغ الثلاثين من عمره»(٢) إلا أنني أكاد أظن أنه ألفه بعد مقاتل الطالبيين بنحو من ثلاثين عاماً أو تزيد قليلاً ، فقد قرأه عليه تلميذه ابن دينار قال : «قرأت على أبي الفرج علي بن الحسين الأصفهاني [كذا] جميع كتاب الأغاني»(٣) ، وابن دينار هذا من واسط مولداً ومنشأ ، ويبدو أنه نزل الى بغداد لطلب العلم ثم عاد الى مدينته واسط فقد «سأله الناس بواسط بعد موت أبي محمد عبد الله العلوي أن يجلس لهم صدراً فيقرنهم فامتنع»(٤) ، ومعنى هذا أنه نزل الى بغداد ـ كما هي طبيعة الأمور ـ وهو في سن الطلب ، فإذا فرضنا أنه لقي أبا الفرج وله من العمر عشرون سنة ، فمعنى هذا أنه قرأه عليه في سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة . وهذا الفرض ينسجم مع أخذ ابن دينار عن أبي سعيد السيرافي . ويمكن أن يكون الأغاني ـ بعد هذا ـ قد آلف قبل هذا التاريخ .

فإذا صحّ هذا الفرض فمعناه أن الكتاب قد آلف قبل أن يتولى الحكم المستنصر الخلافة بنحو من سبع سنين ، لأنه «ولي... في ثاني أو ثالث شهر رمضان من عام خمسين وثلاثمائة»(٥) . فإذا كان الأمر كذلك فكيف بعث إليه

---

(١) نفح الطيب ١ : ٣٨٦ .

(٢) مقاتل الطالبيين : أ .

(٣) معجم الأدباء ١٤ : ٢١٨ .

(٤) السابق ١٤ : ٢٤٦ وإذا صحّ فرضي تلاشت الأسطورة القائلة إنه آلفه في خمسين عاماً ؛ لأن معناها أنه ابتدأ بتأليفه سنة ٢٩٣ وعمره يومذاك تسع سنوات . وهذا مما لا يقبله من له أدنى مسكة من عقل .

(٥) نفح الطيب ١ : ٢٨٥ .



أبو الفرج «بنسخة منه قبل أن يخرجه إلى العراق» ؟ وهو يقرنه ببغداد لتلاميذه قبل أن يتولى الحكم المستنصر الحَكَمَ ، وقبل أن يهتم بجمع الكتب من الأقطار .

على أن ما ترويه المصادر القديمة فصدّقه المحدثون ـ بمن فيهم الدكتور خلف الله ـ من علاقة أبي الفرج بخلفاء الأندلس الأمويين هو عندي ضرب آخر من الأساطير ، وأخشى أن أسوق أسبابي مفصّلة فأدخل في استطراد لا أحب أن أدخل فيه ، ولكن لا بأس من أن أقول : إن علاقة أبي الفرج بروسانه ـ وهم من الشيعة ـ فضلاً عن تشيّعه يمنعانه من الاتصال بأولئك الخلفاء ، ثم إذا كان هذا الاتصال حقيقة وكان «حصل له ببلاد الأندلس مصنفات لم تقع إلينا منها : كتاب نسب بني عبد شمس ، وكتاب أيام العرب... وكتاب التعديل والانتصاف... وكتاب جمهرة النسب... وكتاب نسب المهالبة... وكتاب القيان...»[1] فإنني أفهم أن يهدي الى هؤلاء الخلفاء نسب بني عبد شمس ، وأيام العرب وما إليها ، ولكنني لا أفهم أن يهدي إليهم كتاب نسب المهالبة ، فما لهم ولهذا النسب ؟ ثم إنني تصفحت ما وقع تحت يدي من فهارس أندلسية ، فلم أجد لتلك المؤلفات ظلاً .

ولكن يبدو أن المؤرخين لم يريدوا أن يصدّقوا أن الأصبهاني أمويّ يتشيع ـ كما ترجموا له ـ فجعلوا تشيعه واجهة ، واختلقوا له صلة سرية بينه وبين الخلفاء الأمويين في الأندلس .

وعلى أية حال : أعود الى رأس أمري فأقول : إن حاسدي أبي الفرج ضعّفوه ، وإن المعجبين به نسجوا الأساطير التي تدور عليه وعلى كتابه حتى أنّ المرء لا يستطيع أن يجد عند هؤلاء أو أولئك خيراً كثيراً ، مما يجعله يواجه الكتاب بنفسه فيقول :

إن الحديث عن أهمية الأغاني من الوجهة الأدبية من نافلة القول ، وللمرء

(١) تاريخ بغداد ١١ ، ٣٩٨ .



أن يتصور كيف كان يمكن أن يكون حال الدراسات الأدبية في عصور الأدب العربي حتى عصر أبي الفرج لو كان الكتاب قد ضاع ، وله أن يتصور مقدار الخسارة الفادحة لو حدث ذلك لأن هذا الكتاب لا يعوضه كتاب آخر حتى من الكتب التي جاءت بعده ، ونقلت عنه .

فإذا كان هذا الحديث نافلة فإن الحديث عن مرويات أبي الفرج وقيمتها التاريخية مما ينفع ؛ فقد أخذ الأستاذ محمد كرد علي على أبي الفرج أنه شوّه صورة الأمويين[١] التي أرادها كرد علي أن تكون برّاقة . وأظن أن هذا يحسب لأبي الفرج لا عليه ، وهو عندي دليل على التجرد ، وإلا فإن أبا الفرج أولى بالدفاع عن أجداده الأمويين من كرد علي لو أنه وجد في القول متّسعاً ، وفي القوس منزعاً .

أما الدكتور زكي مبارك ، فقد أراد أن يتسلّق قامتين شاهقتين في سماء الأدب العربي ليصفعهما فلم يجد سلّماً إليهما ، ولم يكد ، حتى عثر على أبي الفرج فقال : « كان الأصبهاني مسرفاً أشنع الإسراف في اللذات والشهوات ، وقد كان لهذا الجانب من تكوينه الخلقي أثر ظاهر في كتابه ، فإن كتاب الأغاني أحفل كتاب بأخبار الخلاعة والمجون ، وهو حين يعرض للشعراء يهتم بسرد الجوانب الضعيفة من أخلاقهم الشخصية ، ويهمل في الجوانب الجدية إهمالاً ظاهراً يدل على أنه قليل العناية بتدوين أخبار الجدّ ، والرزانة ، والتجمّل والاعتدال ، وهذه الناحية من الأصبهاني أفسدت كثيراً من آراء المؤلفين الذين اعتمدوا عليه ، ونظرة فيما كتبه المرحوم جرجي زيدان... وما كتبه الدكتور طه حسين... تكفي للإقناع بأن الاعتماد على كتاب الأغاني جرّ هذين الباحثين الى الخطّ من أخلاق الجماهير في عصر الدولة العباسية ، وحملهما على الحكم بأن ذلك العصر عصر شك ، وفسق ، ومجون... »[٢] .

---

(١٤١) مجلة المجمع العلمي العربي في آذار (مارس) ١٩٢٨ نقلاً عن أبو الفرج : ١٧٦-١٧٩ .

(١٤٢) النثر الفني في القرن الرابع ١ : ٢٢٤-٢٢٥ .



وهكذا قعد الأصبهاني - كما يقال - في طريق قافية الدكتور زكي مبارك حتى لأحسب أن هذا الرأي من زكمبرياته كما كان يحب أستاذنا الدكتور الطاهر أن يصف بعض آرائه ، وإلا فإن أبا الفرج قد وصف من تهتّك مجّان الكوفة ما وصف مثل الحسين بن الضحاك ، والحمّادين الثلاثة ومن إليهم ، ووصف أيضاً صلاح محمد بن كناسة وتقواه ، وزهده أفيكون من ذنبه أن الدكتور طه حسين رحمه الله قد استوحى من أخبار المجّان أن العصر عصر « شك وفسق ومجون » ؟ ثم إذا لم يكن العصر كذلك فلم استحدث فيه ديوان للزنادقة وكان حمدويه صاحب الزنادقة ؟ ولم يكن هذا الديوان قائماً على عصر الخلافة الراشدة أو على عصر الأمويين .

وإن عجبت فاعجب من أن الدكتور زكي مبارك ينسى أن الكتاب هو كتاب في الأغاني ، وأن الأغاني تدور في مجالس اللهو وليس - أستغفر الله - في بيوت الذكر والمساجد ، وأن أخبار هؤلاء الشعراء الذين يتغنّى بأشعارهم هي - في الغالب - من جنس تلك المجالس ، فماذا كان ينتظر الدكتور زكي مبارك أن يدور بها ؟ ولم يكن أبو الفرج الأصبهاني بدعاً في هذا فمن يقرأ كتاب « الديارات » للشابشتي ، أو « مسالك الأبصار » لابن فضل الله العمري يجد في أجواء أخبارهما ما يجده في أخبار الأغاني لا لشيء إلا لأن كليهما يكتبان عن الديارات وما إليها ، ومجالس الخمر كانت تعقد في هذه الديارات .

أقول كل هذا لا أريد من ورائه أن أنفي تأثير حياة أبي الفرج في كتابه ، ولكنني أريد أن أحمد الله أن كتب هذا الكتاب أبو الفرج وليس سواه من الذين يرون أن ناقل الكفر كافر وإلا لضاع علينا جانب من جوانب الحياة العربية ما كنا نطمع أن نظفر به عند غير أبي الفرج . على أن أبا الفرج لم يكن - كما أرى - « مسرفاً أشنع الإسراف في اللذات والشهوات » . لأن الذي يكتب ما يقرب من أربعين كتاباً بينها الأغاني في خمسة آلاف ورقة . وأيام العرب وقد ذكر فيه



ألفاً وسبعمائة من أيامهم ، لا يجد متسعاً من الوقت ليسرف أشنع الإسراف في اللذات والشهوات .

ولكن هل كتاب الأغاني كتاب يتوفر على المادة التاريخية المحضة من سياسة واجتماع وما إليهما ؟ وأجيب أن «نعم» و«لا » في آنٍ واحد .

أما نعم فلأن فيه من المادة التاريخية ما يوافق كتب التاريخ فيما تورده ، ويزيد عليها بأننا نجد في أخباره من الجزئيات ما لا نجده في كتب التاريخ . وأما «لا » فلأنه اشترط على نفسه في مقدمة الكتاب أن يأتي بفِقَر «إذا تأملها قارنها لم يزل متنقلاً بها من فائدة الى مثلها ، ومتصرفاً فيها بين جدٍّ وهزل...»[1] فكان يسوقه هذا المنهج الى ذكر أخبار يعرف هو قبل غيره أنها موضوعة ، فيعقّب عليها بأنه إنما أوردها لئلا يشذّ عن الكتاب خبر من جنسه ومن موضوعه ، ومن يتصفح كتاب الأغاني يجدني في حلٍّ من أن أستشهد .

ولعل من هذا الباب كان نقله عن ابن خرداذبة وردُّه عليه في مواضع كثيرة ، وكذلك فعل مع جحظه في «أخبار الطنبوريين» في مواضع ، ولعل من هذا الباب أيضاً ما يراه القارئ أحياناً من نقله أنساباً لا يستطيع أحد أن يزعم أنها صحيحة أو حتى قريبة من الصحة .

على أن هذا المنهج كان فيه فائدة ، فمن فوائده أنه جعل أبا الفرج يصوّر لنا الحياة ـ من حيث يريد أو لا يريد ـ بجزئيات لم نكن نطمع أن نظفر بها في غير كتابه ، منها ما رواه عن طب الأسنان في البصرة وهو يترجم لعمر بن أبي ربيعة ، «أنه أتى إلى الثريا يوماً ومعه صديق كان يصاحبه ويتوصل بذكره في الشعر ، فلما كشفت الثريا الستر وأرادت الخروج إليه ، رأت صاحبه فرجعت ، فقال لها : إنه ليس ممن أحتشمه ، ولا أخفي عنه شيئاً ، واستلقى فضحك ـ وكانت النساء إذاك يتختّمن في أصابعهن العشر ـ فخرجت إليه فضربته بظاهر

(١) الأغاني .



كفها فأصابت الخواتيم ثنيتيه العليين فنغضتا ، وكادتا تسقطان ، فقدم البصرة فعولجتا له ، فثبتتا واسودتا... »[١] .

ومما صوّره أبو الفرج مما يمكن أن يدخل في تاريخ السجون في الحضارة العربية الإسلامية ما رواه في ترجمة عريب المغنيّة قال : «لما وقف المأمون على خبرها مع محمد بن حامد أمر بإلباسهما جُبّة صوف ، وختم زيقها ، وحبسها في كنيف مظلم شهراً لا ترى الضوء يدخل إليها خبز وملح وماء من تحت الباب كل يوم... »[٢] .

ويعرض علينا أبو الفرج شيئاً من الحضارة في بغداد يظنه من يراه اليوم أنه تقليد أوروبي محض وفد إلى تقاليدنا في آداب الشراب في قوله : « كان الواثق يحبّ المواخير ، وما قيل فيها ، وما غنّي به في ذكرها . فعقد حانتين ، إحداهما دار الحُرَم ، والأخرى على الشطّ ، وأمر بأن يختار له خمّار نظيف ، جميل المنظر ، حاذق بأمر الشراب ، ولا يكون إلا نصرانياً من أهل قطربل . فأتي بنصراني له ابنان نظيفان مليحان وابنتان بهذه الصفة . فجعلهم الواثق في الحانتين ، وضمّ إليهما خدماً ، وغلماناً وجواري رومية . وأخدم النساء حانة الحُرَم ، والرجال حانة الشط . ونقل إليهما طرائف الشرب ، وفرشهما من فرش الخلافة ، وعلّق عليهما الستور ، وجعل فيهما الأواني المذهبة والدِّنان المدهونة... فلما فرغ منها... وحضرنا ، وخرج الخمار ، هو وأولاده معه ، عليهم الأقبية المسهمة ، وفي أوساطهم الزنانير المحلاّة ، ومعهم غلمان يحملون المكاييل والكيزان ، والمبازل في الصواني ، وأخرجت تلك الدنان المذهبة ، وقد طيِّنت رؤوسها تطييناً نظيفاً ، يعبق منه الطِّيب ، فأقيمت بإزاء المجلس الذي كان فيه جالساً ، فبزلت ، كما يفعلُ في الحانات ، وجعل يؤتى بالأنموذجات

---

(١) نفسه . بدلالة الدكتور داود سلوم في شخصيات الأغاني .

(٢) نفسه .



فيذوقها ويعرض ذلك على الجلساء فيختار كلٌ منهم ما يشتهيه . فيأخذ دناً ، ويجيء الى الخمّار فيكتال منه بمكيال إنائه كما يُفعل في المواخير... »[١] .

وإذاً فقد كانت الخمر في بغداد وفي حاناتها ـ كما هي في أوروبا اليوم ـ تشرب بمكيال ، وتُذاق قبل شربها ، ولولا أبو الفرج ما عرفنا هذا ، ولا عرفنا طبيعة الحانات البغدادية .

ولا أريد أن أطيل على القارئ بسرد مثل هذه اللقطات الجميلة ، لأنني أطمع أن يكتشفها بنفسه ، ولكنني أريد أن أقول : إن أبا الفرج وضع تحت أيدينا مادة تنفعنا في دراسات شتى شرط أن يكون الباحث الناظر في «الأغاني» باحثاً بحق وحقيق . وإلا فإن أبا الفرج لم يكن يخلو ـ في أحيان نادرة ـ من خلطٍ لا أعرف إن كان جاءه من ذات نفسه فدبَّ الى الكتاب أم من نسّاخه . وأضرب مثلاً واحداً على هذا الخلط هو ما وقع له حين ترجم ليوسف بن الحجّاج الصيقل ، فقد خلط بينه وبين يوسف لقوة خلطاً لا أريد أن أعرض إليه الآن بأكثر من أن أقول : إنهما شخصيتان لا شخصية واحدة ، كما توهّم أبو الفرج ، على أن من الأمانة أن أقول : إن هذا الخلط قد جاءه من محمد بن داود الجراح صاحب كتاب «الورقة» فتابعه ، ولم يتثبّت ـ خلاف عادته في التثبّت ـ فوقع فيما وقع فيه . وأن أقول أيضاً إن أحداً ممن تناولوا كتاب الأغاني بالتحقيق أو بالدراسة لم يتنبه الى ذلك فيشير .

بقي عليَّ أن أشير الى أن كتاب الأغاني ليس كتاب أخبار فحسب ، وإنما هو كتاب نقد أيضاً . وتأتيه الصفة النقدية من جانبين أولهما فيما حفظ لنا من « كثير من مسائل النقد الأدبي وأحكامه الى أواخر القرن الثالث »[٢] . وثانيهما من إيمانه بالمدارس الشعرية فهو « كثيراً ما يصل بين الشاعر وأساتذته ،

(١) نفسه .

(٢) تاريخ النقد الأدبي عند العرب ـ طه أحمد ابراهيم : ١٤٦ .



والذين روى عنهم ، أو تلقى أو تأدب ، أو احتذى حذوهم ، وانتهج نهجهم ، وكأنه بذلك يميّز المذاهب الأدبية بعضها عن بعض ، ويُرجع الشعراء الى حلبات أو مدارس يصدر عنها كلامهم... »[1] .

وفضلاً عن أنه تكلم عن السرقات الأدبية وما إليها فقد « فطن الى كثير من الأمور التي تؤثر في الشعر ، وتوجّه الشعراء كالمكان ، والصحبة ، والسيرة... »[2] . ومن هنا ، أظن أن على من يدرس النظرية الإقليمية عند الثعالبي أن يبحث عن جذورها عند أبي الفرج وعند ابن سلاّم من قبله . فقد يصل الى أن العرب توصّلوا الى هذه النظرية النقدية قبل (تين) بقرون . وعلى العموم فإن أبا الفرج لم يُدرس ناقداً ، وإنما بقي في تراثنا العربي راوية إخبارياً ، وما هو كذلك فحسب ، فإن لديه من الذوق ما يجعله ناقداً كما هو ، وناقداً كبيراً لو كان أراد .

أما كتاب الأغاني فقد طبع أكثر من مرة ـ ولا أريد أن أتحدث عن مختصراته الكثيرة ومنتخباته ـ في مصر وفي لبنان ، قد كانت أول طبعة من طبعاته في مصر بمطبعة بولاق سنة ١٢٨٥هـ في عشرين جزءاً[3] أي في سنة ١٨٦٨م « وقد أكمله المستشرق رودلف برونو بطبعه الجزء الحادي والعشرين منه في سنة ١٣٠٦هـ ـ ١٨٨٨م »[4] .

وقام المستشرق الإيطالي « جويدي... ونفرٌ من أفاضل المستشرقين بعمل فهارس هجائية وافية لهذا الكتاب... طبعوها باللغة الفرنسية في مجلد ضخم على حدته بمدينة ليدن سنة ١٣١٨هـ ـ ١٩٠٠م وهو يشتمل على أربعة فهارس :

---

(١) نفسه .

(٢) نفسه .

(٣) تاريخ الأدب العربي ٢ : ٦٩ .

(٤) أبو الفرج ٦١ .



الأول في أسماء الشعراء ، والثاني في القوافي ، والثالث في أسماء الرجال ، والرابع في أسماء الأمكنة والجبال والمياه »[1] .

ثم جاء الحاج محمد أفندي الساسي فطبع الأغاني طبعة ثانية ، مضيفاً إليه الجزء الذي نشره المستشرق برونو «مع ترجمة الفهارس التي وضعها... المستشرقون ، ولكن... لم تطبق أرقامها على هذه الطبعة فجاءت كلها مغلوطة ؛ لأنها لا تتفق إلا مع طبعة بولاق »[2] وكان ذلك بمصر سنة ١٩٢٣[3] ، فصدرت في واحد وعشرين جزءاً .

وكان من أريحية رجل فاضل غيور على اللغة العربية هو السيد علي راتب أن اقترح على دار الكتب المصرية بالقاهرة أن يتحمل نفقات طبع كتاب الأغاني طبعة لائقة به ، وأن يضع ما يملكه من نُسخ مخطوطة منه تحت تصرفها ، فاستجابت له الدار فبدأت بطبعه طبعة محققة منذ عام ١٩٢٥[4] ، وطال الزمن بالطبع ، إذ طبعت الدار ستة عشر جزءاً منه ، وصورتها وباعتها مجلدة بثمن بخس ثم توقفت ، وكان ذلك ـ على ما أظن ـ سنة ١٩٦٣ ، فبقي الباحثون ينتظرون طبعة معتمدة من الأغاني ، فما كان من دار الثقافة ببيروت إلا أن تستثمر هذا الانتظار فأقدمت على طبعه سنة ١٩٥٥ وألحقت به فهارس ، فكان الباحث إذا رجع الى الأغاني اعتمد طبعة دار الكتب المصرية فإن احتاج الى جزء لم يُطبع في الدار لجأ الى طبعة دار الثقافة ، وظلّت الحال على ما هي عليه حتى استأنفت الدار طبعه ، فأكملته في السبعينات في أربعة وعشرين جزءاً .

ثم صوّرت مؤسسة جمال للطباعة والنشر في بيروت هذه الطبعة فيسّرتها للقراء والباحثين .

---

(١) أبو الفرج ٧٠ .

(٢) نفسه .

(٣) تاريخ الأدب العربي ٣ : ٦٩ .

(٤) تنظر رسالته في الأغاني ١ : ٦١ .



وصدرت فِصل من الأغاني كأنها مهيّأة للشباب الذي يهاب الكتاب ذا الحجم الضخم بحجم يقارب نصف الجريدة العادية ـ ولعل ذلك كان في بيروت ـ إلا أن هذه الفِصَل توقفت ، ولم تكمل الكتاب ، بل لم تأخذ منه إلا أقله .

وتشاء الآن سلسلة الأنيس ـ وهي سلسلة أدبية تصدر عن موفم للنشر ـ في الجزائر أن تُعيد طبعه في الجزائر ، وحسناً تفعل .

ومهما يكن من أمر ، فأجدني شاكراً للأنيس ما أتاحته للشباب الجزائري من صلة بأجدادهم العظام ، وبحضارتهم العربية الإسلامية ، وشاكراً لها على ما أتاحته لي من فرصة في أن أتتلمذ لأبي الفرج الشامخ وأن أحاوره .

---

* رجعتُ الى كتاب الأغاني كثيراً ، ولكنني رأيت ألا أشير الى الأجزاء والصفحات لسببين ، أولهما أنني اعتمدت طبعة دار الكتب المصرية ، وليست هذه الطبعة التي بين يدي القارئ ، وثانيهما أنني لم أر في الباحثين ـ إلا نادراً ـ من أفاد من نص بدلالة غيره فأشار إليه . ومن هنا رأيت أن أتعب الباحث عن نصوص اعتاد أن يأخذها جاهزة ، ثم يدعي أنه عثر عليها بنفسه بدون دلالة أحد .



العلاّمة الطاهر

مرةً ثانية

لن يستطيع التلميذ أن يوفي حقّ أستاذه ، وكيف يستطيع وفجيعته بوفاته وحدها كفيلة أن تخلخله ، فما بالك وقد فجع بخبرين في شهر واحد ، وفاة أبيه بالدمِ ، ووفاة أبيه بالروح الدكتور علي جواد الطاهر ، أبي رائد ؟

مضى أحبّايَ ما ودّعتُ من أحدٍ　　منهمْ ، ولا ودّعوني يومَ أن عَزموا

أالذكرُ الجرحَ أم أنسى إذاعتَهُ　　حسبُ الجراحاتِ ألاّ يُذكرَ الألمُ

أما أبي ، فلن أستطيع أن أرثيه للناس ، لأنه لم يكن يزيد ـ عليه رحمة الله ومغفرتُه ـ عن كادحٍ من عامة الناس ، وأما أبي بالروح فقد كان أباً لأجيال أستطيع أن أرثيه لهم ، وأستطيع أن أباهي به كما يباهون . ولكن ماذا أقول ؟

وتزدحم الذكريات في ذهن التلميذ ، فأيّها ينتقي ، وأيّها يدع ؟ ويا لله ويا للذكريات كم تتوهّج في الأسى ، ولكنه ليس أسى المفجوع بعزيز أنه مات ، فقد قال المتنبي العظيم قبل أكثر من ألف عام :

نحنُ بنو الموتِ فما بالُنا　　نَعافُ ما لابدّ من شُربِهِ ؟!

يموتُ راعي الضأن في جهله　　ميتةَ جالينوس في طبّهِ

ولكنه أسى من نوع آخر أعمق وأشفُّ . أسىً لابد أنه ترك غصة في روح الدكتور الطاهر أقسى من غصة الموت نفسها ، هي غصته أن يموت والأمل



لم يتحقق . وأكاد أتصور غصته ـ وهو يُحتضر ـ مردداً قول الشاعر القديم :

وإن بقاءَ المرءِ بعد عدوّه ولو ساعةً من عمرهِ لكثيرُ

فقد مات ولم يفرح ببقاءٍ كثير ولا قليلٍ بعد عدوّه .

ويتذكر الآن التلميذ أستاذيه الدكتورين المخزومي والطاهر ـ وقد دُعيا إلى إلقاء محاضرات على طلبة الماجستير بجامعة قسنطينة في الجزائر ـ أن ساكناه بعد انتهاء المحاضرات في شقته بالجزائر العاصمة في محلة ابن عكنون ينتظران موعد الطائرة التي تُقلّهما إلى بغداد أياماً ، ويتذكر من هذه الإقامة الطيبة كل عطرها الفاغم ، ويلحّ عليه من بين هذه العطور عطرٌ واحد هو أن استيقظ ـ ذات صباح ـ أستاذه أبو رائد ، فأطلّ من شبّاك غرفته على أطفالٍ جزائريين يلعبون ، فتذكّر طفله : أربد ـ وكان ذلك في خريف عام ١٩٧٩ ـ فدمِعت عيناه ، فسأله تلميذه عن دموعه فأخبره بما يحسّ .

أما كيف أُعجب التلميذ بأستاذه فلذلك حديث آخر .

لم أكن معجباً بالدكتور الطاهر ؛ لأنه عالِم فحسب ، ولا لأنه أستاذي فحسب ، وإنما أُعجبت به وأكبرتُه ، لأنه كان أستاذاً من طراز خاص ، لا يكاد يشبهه أستاذ آخر ، اذ كان أستاذاً يربي العقل أكثر مما يحشوه بالمعلومات . وإن أنسَ لا أنسَ أنني وهمتُ ذات يوم في امتحان الأدب العباسي عنده ؛ فأجبتُ عن سؤال لم يسألناه ـ وكانت ورقة الأسئلة تتألف من سؤال واحد ـ وإذ اكتشفتُ وهمي خائفاً وجلاً موقناً بالرسوب ضحك هو ـ عليه رحمة الله ـ قائلاً :

ـ حسناً سأعطيك صفراً على الإجابة ، وينتهي الأمر .

ثم سكت لحظة ، وسألني :

ـ عمّاذا أجبتَ ؟



فقلت :

ـ عن الرسائل الديوانية . فقال :

ـ حسناً سنغيّر السؤال في ورقتك الامتحانية بحيث يكون سؤالاً عن الرسائل الديوانية ، وسأصحح إجابتك على هذا الأساس . وهكذا كان الأمر ، ولم يكن الدكتور الطاهر يفعل هذا وهو الشديد الشديد ، ولكنه كان حسنَ الظن بتلميذه الذي كان من حسن الحظ وحده ـ وليس شيئاً آخر ـ يكون في نجاحه الأول على زملائه ، وعلى سواهم من طلبة الأقسام الأخرى .

وأتذكر ـ ونحن في السنة الرابعة من كلية الآداب ـ أنه صدرت قصة «اللعبة» للأستاذ يوسف الصانع ، وأنها أثارت في حينها ضجة كبيرة ، فمن قائل : إنها كاسمها «لعبة» ، ومن موقن أنها مسروقة من الأدب السوفياتي (يومذاك) ، ومن معجب بها ، فكلّف الدكتور الطاهر ثلاثة من تلاميذه كنت واحداً منهم أن يكتبوا عنها نقداً ـ وكان يدرّسنا مادة النقد الأدبي ، ثم استحالت دروسه تلك إلى كتابه الممتاز : «مقدمة في النقد الأدبي» ـ وإذ كتبنا ، وحان موعِدُ إلقاء ما كتبنا على زملائنا في الصف ليسمعَ أستاذنا فيرى رأيه ، ويناقش زملاؤنا ، لمحنا ونحن في الصف وجهاً جديداً كدنا نظن أنه طالب منقول إلى صفنا لولا أن عمره كان يكذّب ظننا ، ولم نجرؤ ـ ونحن نتهامس ـ أن نسأله عمن يكون ؟ وإذ جاء أستاذنا قرأ الفضول في عيوننا مبهماً ؛ فبدأ محاضرته ذلك اليوم :

ـ الذي بينكم هو الأستاذ يوسف الصانع صاحب «اللعبة» ، وقد دعوته إلى هنا ليناقشكم فيما كتبتم ، فمن يبدأ منكم بالقراءة ؟

وقرأنا ، سلام ، ووليد ، والمتحدث ، ما كتبناه ، وناقشنا ونوقِشنا ، وإذ انتهينا طلب مني أن أسلمه مقالتي ففعلت . أليس من حق الأستاذ أن يأخذ معه ما كلّف به تلميذه ؟ وظننت أن الأمر قد انتهى ، وهو منتهٍ عند أي استاذ سواه ،



ولكنني فوجئت بعد شهرين ـ أو أكثر أو أقل ـ لا أتذكر تماماً ، بالدكتور الطاهر وهو يعطيني مجلة «الأديب» البيروتية قائلا : خذها فهي لك! وأخذتها أتصفح موادّها وإذا بي أفاجأ بأن ما كتبته عن «اللعبة» منشور فيها ، وكان الذي أرسله هو الدكتور الطاهر ، ولابد أن يكون قد استثمر صداقته العميقة مع ألبير أديب ، صاحب المجلة ، في نشره ، وإلا فمن أنا يومذاك ، واليوم أيضاً ، لتنشر لي «الأديب» ؟

وحماسته لمن يظن أنهم نابهون من طلابه من العجب العجاب ، ولولا أنه كان يظن أنني من بينهم ، لقلت : إنه لم يخطئ مرة واحدة في ظنه . ومن آيات هذه الحماسة أن جاء إلى القاعة التي نمتحن فيها امتحان التخرج ، وكان ذلك آخر يوم من امتحان السنة الرابعة ، فطلب مني أن ألقاه بعد الفراغ في قاعة الأساتذة ، فامتثلت ، وكان المرحوم الدكتور المخزومي معه ـ كما هي عادتهما ـ وإذ حييتهما أشارا عليّ بالجلوس ، وبدأ الطاهر الجنب والفكر والقلب :

ـ هل فكرت في مستقبلك ؟

ـ وماذا عسى أن يكون سوى مدرّس للغة العربية في إحدى الثانويات ؟

ـ لا ، لا ، إن من هو مثلك لا ينبغي أن يكون هذا مستقبله . ثم أردف :

ـ هيّئ نفسك لامتحان القبول في الماجستير ، وقدّم أوراقك .

وهكذا كان ، بل إن موافقة ما يُسمّى بمجلس قيادة الثورة على تأجيلي من الخدمة العسكرية قد صدرت بعد انتهاء موعد تقديم الأوراق الرسمية فاستصدر الدكتور الطاهر استثناء من عميد الدراسات العليا في جامعة بغداد بقبول أوراقي .

لم يكن الدكتور الطاهر أستاذاً فحسب . كان أباً .

وأتذكر ـ وأنا أكتب رسالة الماجستير تحت إشرافه ، وكتبت الدكتوراه



فيما بعد تحت إشرافه الكريم أيضاً ـ حوادث منها : أنه كان من عادته إمعاناً في الدقة والتدقيق أن يقرأ الفصل الذي يكتبه تلميذه ثلاث مرات ، الأولى حين يأخذ الفصل من الطالب ، فيقرؤه وحده ، والثانية حين يستدعي الطالب يقرأ عليه الفصل وهو يسمع ويناقش ـ ويكون عليه الرحمة حينئذ قد دقق ملاحظاته في المرة الأولى ووثقها ـ وتكون هذه القراءة عادة في مكتبة بيته ، والثالثة حين يُتم الطالب رسالته ، فيقرؤها من المقدمة حتى الخاتمة . والقراءة الثالثة تبلغ من الأهمية لديه بحيث إنه لا يعطي الإذن بطبع الرسالة إلا بعد الانتهاء منها معجباً ؛ وكان يريد من هذه القراءة شيئين ، أولهما : ملاحظة المنهج الذي سارت عليه الرسالة ، وثانيهما التنبيه على ما يمكن أن يكون قد وقع في الرسالة من تناقض في الرأي او اضطراب ، كأن يقرر الطالب حُكماً في الفصل الاول ثم يبدو للقارئ أنه ضعّفه أو ناقضه في فصل آخر .

وكان زميلنا يوسف الصائغ قد سجل رسالته تحت إشرافه ، وكانت بعنوان : «الشعر الحر في العراق منذ نشأته حتى عام ١٩٥٨ » ـ ولا أمهر من الدكتور الطاهر في حدس ما يناسب تلميذه من موضوع يكون هو رسالته ـ فكتب يوسف ، وكان قد قسم رسالته إلى فصول أربعة هي : السياب ، نازك ، البياتي ، بلند الحيدري ، وقرأ الدكتور الطاهر الفصول الاربعة وهو راضٍ عنها وعن التقسيم ، حتى اذا بلغ القراءة الثالثة ـ وكنا نسميها القراءة المرعبة ـ بدا له أن ما كان راضياً عنه من أمر خطة الرسالة لا ينبغي أن يكون محل رضى ، وإذ اقتنع تمام الاقتناع برأيه الجديد فُجع به يوسف ، فقد استدعاه الدكتور الطاهر ليقول له :

ـ كتبتَ رسالتك يا يوسف أفقياً ، وينبغي الآن أن تُعيد كتابتها عمودياً ، كأن تكون : اللغة ، الصورة ، الفكر ، وما أشبه .

واستغرقت ملاحظة الدكتور الطاهر ، وامتثال يوسف لها سنة كاملة من



عمر يوسف ، ولكنها لم تكن سنة ضائعة ، فقد تُوّجت بثناء الدكتور الطاهر على يوسف يوم المناقشة بقوله : «سلمت يداك يا بَيْدَبا» ، وتوّجت بأن أصبحت رسالته مرجعاً لا يستغني عنه باحث في الشعر الحر .

وكلفني ذات يوم زميل آخر هو خالد علي مصطفى - وكان يملأ المحافل الأدبية يومذاك ضجيجاً ، ولكنه ضجيج رحى تطحن قرونا - أن أفاتح الدكتور الطاهر بقبول الاشراف على رسالته عن الشعر الفلسطيني ، وإذ فاتحته لم يزد في رأيه على كلمة واحدة :

- لن أزرع في أرض سبخة .

ومن هذه الحوادث أنه لم يرض عن رأيين ذهبتُ إليهما في رسالتي للماجستير ، فلم أستطع اقناعه بوجاهتهما ، ولم يستطع - عليه الرحمة - أن يقنعني بخطلهما ، فلم يزد على أن قال :

- طيب ، لا تستغرب إذا ناقشتك - يوم المناقشة - في هذين الرأيين رغم أنني المشرف .

وفعل ما قال يوم المناقشة ، فكان من رأي المرحوم الدكتور باقر عبد الغني - وكان من اعضاء لجنة مناقشة الرسالة - أن الحق مع التلميذ وليس مع الاستاذ ، فما كان منه إلا أن تهلل فرحاً حتى ترقرق الماء في عينيه ، ثم أمعن في تواضعه قائلاً : إنه لا شيء يُفرحه بمقدار ما يُفرحه أن يكون رأي التلميذ أصوب من رأي أستاذه .

ولا أظن الآن ان رأيي كان أصوب من رأيه ، ولكنه كان يريد ان يعلمني ويعلم الآخرين احترام الرأي الآخر ، والاذعان للحق حتى لو كان صادراً من تلميذ . وليس غريباً على مثله هذه التقاليد الديمقراطية .

ولعلي أدرك الآن فرحه بطلابه - ونحن في مرحلة الليسانس - حين



يتناقشون مناقشة هادئة قائمة على الاحترام ، وأدرك غضبه حين يسيء أحدهم في المناقشة إلى زميل من زملائه يخالفه في الرأي ، فقد أسأتُ الأدب في إحدى المحاضرات إلى زميلي الكريم سلام ـ وكان مغرقاً في الحداثة الشكلية ـ فردّ سلام على إساءتي بابتسامة وديعة ، ولكنها مُفعمة بالمرارة ، فما كان من أستاذنا الطاهر إلا أن سألني وهو يتوهج غضباً :

ـ هل تعلمت الآن من ابتسامته ؟ إن للمناقشة آداباً إما أن تلتزم بها ، وإمّا أن تعتزلها .

وكم حاولت أن أتعلّم منه هذا الدرس ، فنجحتُ مرة ، وأخفقتُ مرات .

وماذا أتذكر ؟ إننا من كثرة ما نتذكر نفقد الذاكرة أحياناً!

كان آية في التواضع ، وفي نقاء الذمة ، ولا أعني بتواضعه أنه كان لا يعجب بما يكتب ، أو لا يحب ما ألّف ، ولكنه كان يمشي على خيط رقيق يفصل بين الغرور والثقة بالنفس ، ومازلت أتذكر أنه يوم جاء إلى الجزائر ، كان كتابي : «فن التمثيل عند العرب» قد صدر في بغداد ، فاصطحب معه نسخاً منه إليّ ، وإذ شكرتُه واضعاً النسخ على طاولة سألني متعجباً :

ـ لم أرك احتفيت بكتابك ، ألا تحب أن ترى ما تبحث في كتاب ؟

قلت :

أحب ذلك كثيراً ، ولكني خجلت أن أفرح بحضرة أستاذيَ أنت والدكتور المخزومي . قال :

ـ ولم الخجل ؟ انني لا أكاد أنام فرحاً عندما يصدر لي كتاب .

ولكن هذا الذي لا يكاد ينام فرحاً حين يصدر له كتاب ، لم أسمعه ، ولم يسمعه الناس قال ذات يوم : إنه ذهب إلى هذا الرأي أو ذاك في احد كتبه الكثيرة ، بل إنه حدث ان حقق الدكتور سامي مكي العاني كتاب الباخَرْزي :



«دمية القصر» رسالة نال بها شهادة الدكتوراه تحت إشراف الأستاذ الدكتور شوقي ضيف في القاهرة تحقيقاً على الغاية من الرداءة . وكان عليه أن يكتب دراسة في صدر التحقيق عن الباخرزي وعن عصره ، فسطا على ما كتب الدكتور الطاهر عن العصر في كتابه الرائع : «الشعر العربي في العراق وبلاد العجم في العصر السلجوقي» فسرق منه ما يقرب من تسعين صفحة سرقة لم يكلّف نفسه فيها حتى عناء تغيير حروفها ، ولابد أن الدكتور الطاهر - وقد طبع كتاب الدمية في النجف وتداوله الناس - كان قد اطّلع على السرقة ، وتحقق منها - كدأبه في التحقق - ولكن لم يسمع أحد منه أنه تحدث في أمرها . بل إنه لم يتحدث حتى بعد أن كتب الدكتور يحيى الجبوري عنها في مجلة «العرب» .

أما نقاء ذمة الدكتور الطاهر ، فلعله مما لا يختلف فيه اثنان ، ولا ينتطح فيه عنزان ، فقد بلغ به هذا النقاء أن نصح قرّاءه من المؤلفين في مقدمة كتابه : «الخلاصة في مذاهب الأدب الغربي» أن يُحيلوا - اذا احتاجوا الى شيء منه - على اسم الكتاب لا على اسم مؤلّفه ؛ لأنه ليس لمؤلفه الدكتور الطاهر - كما يقول هو - إلا الجمع والاستيعاب والعرض . ومن هنا كان ينكر على المؤلفين العرب ، والمصريين منهم - بوجه خاص - أن يزعموا أنهم يؤلفون في الأدب الغربي ، وهم لا يفعلون - لدى الحق - أكثر من أن يترجموا وأن ينقلوا .

وقد كان من اليقين بهذه الحقيقة بحيث لم يهتز ولم يدهش يوم كتب الأديب العراقي الأستاذ عبد المطلب صالح عن الأستاذ الدكتور محمد مندور - وكان الدكتور الطاهر من المعجبين بمندور ناقداً وبصفاء تذوقه الأعمال الأدبية - أنه ترجم كتابه : «نماذج بشرية» ولم يؤلّفه كما زعم على غلافه ؛ إذ لم يزد الدكتور الطاهر - ونحن نتفاوض في الأمر - على أن قال :

- وماذا تنتظر ممن يكتب مثل هذا الكتاب ؟ لابد له من الترجمة وإن زعم أنه آلف .



ولعل تواضع الدكتور الطاهر ونقاء ذمته هما اللذان جعلاه يتخذ مواقف يراها الآخرون غير ودية من الأدباء الذين لم يكن يرى فيهم هاتين الصفتين كما يريد بالغاً ما بلغت شهرتهم . ولعل أجلى مثل على ذلك موقفه من الاستاذ عبد الوهاب البياتي ، وقد كتب هذا الموقف ، فقد كان لا يحتفل به لسببين أولهما : كثرة إعلانه عن نفسه ـ وهذا يتنافى مع تواضع الدكتور الطاهر ـ وثانيهما ادعاؤه أنه ترجم شيئاً من شعر پول إيلوار بالاشتراك مع أديب مصري ، فقد كتب الدكتور الطاهر يسأل : كيف تسنى للبياتي ـ وقد رسب في الفرنسية عند مدام البصير ـ أن يترجم عنها ؟ وأثارت كتابة الدكتور الطاهر لغطاً بين الأدباء العراقيين حتى اتهمته طائفة منهم بالتجني على البياتي ، وحتى بدا لي أن أطلب من الاخ عبد الرضا الوزّان ـ وكان مسجل كلية الآداب التي ورثت دار المعلمين العالية ـ أن يتحرى الأمر في ملف الأستاذ البياتي ، فوجدنا الأمر كما قال الدكتور الطاهر .

ولقد ذكرت الأستاذ البياتي دون سواه ، وعذراً لأبي علي ، لأدلّ على المدى الذي بلغه نقاء الذمة من نفس الدكتور الطاهر ، وإلا فإنه كان يعلم ـ عليه رحمة الله ـ حق العلم أنه يعرّض نفسه إلى عداء مجموعة وزارات إعلام متنقلة تمشي على قدمين ، وليس إلى عداء وزارة واحدة!

ويحز في النفس الآن أن رسائل الدكتور الطاهر التي لم تنقطع عني منذ أيلول ١٩٧٨ وحتى حزيران ١٩٩٦ ليست معي ، وإلا لكنت عرضت من خلالها إلى جانب آخر من جوانب طهره ونقائه . ويعزّيني عن ذلك أنني فاعل ذلك يوماً ما .

لم تكن وفاة الفقيد خسارة لعائلته : أم رائد ، ورائد ، ولبيد ، وأربد ، ولا خسارة للأدب العراقي ، أو العربي ، وإنما هي خسارة لكل هؤلاء وللحركة الوطنية العراقية ، وللفكر النيّر .

كان الطاهر أمةً وحده .




مكتبة
الفكر
الجديد

من بغداد إلى القيروان

أبو بكر محمد بن خلف بن المرزبان

بَرِيّة بن أبي اليُسر الرِّياضيّ


مكتبة
الفكر
الجديد

أبو بكر محمد بن خلف بن المرزبان

وكتابُه: «ذمُّ الثقلاء»

لم يُفرِدْ أحدٌ ـ قبل ابن المرزبان ـ كتاباً برأسه لموضوع الثقلاء إلاّ أبو العَنْبَس الصَّيْمَريّ محمد بن إسحاق الكاتب الكوفيّ ـ قاضي الصَّيْمَرَة ـ المتوفَّى سنة ٢٧٥هـ[1] ، رغم أنه موضوعٌ إنسانيٌّ فيه الكثيرمن الطرافة ، والجدّة . وإذا كان خوضُ أبي العنبس في هذا الموضوع يمكن أن يدلّ على مزاجٍ خاصٍ ساخرٍ عُرِف به أبو العنبس ، واشتهر به ، مما يجعلني أتوقّع أن يكون كتابه ساخراً مثلَهُ لايختلف كثيراً عن كتبه الأخرى في أدب السُّخفِ من مثل : «تأخير المعرفة» ، و«فضل السلّم على الدرجة» ، و«شكوى الجمل إلى ربّه» وسواها من كتبه ، فإنه يمكن أن تدلنا إثارةُ ابن المرزبان موضوع الثقلاء مرّةً أخرى ـ في هذا العصر ـ على الشوط الذي قطعته المجتمعاتُ الإسلاميةُ في مدارج الحضارة ، والرقيِّ الاجتماعيِّ . ولا أدلَّ على هذا الرقيِّ مما كان عليه العربُ إبّان نزول الوحي من تخلُّفٍ يبلغُ ببعضِهم ـ كما دلّنا المؤلّفُ ـ أن يُولِمَ لهم النبيُّ ﷺ ليلة بنائه بزينب بنت جحش (رض) ، فيظلوا في داره يتحدثون ، وكأنهم لايُدركون أن عليه أن ينصرف إلى أهله ؛ وأن عليهم أن ينصرفوا بعد إذ طعِموا ؛ فيخلُّوا ما بينه وبين أهله ؛ حتى لينزل الوحيُ الكريمُ يقول لهم : ﴿يا أيها الذين

---

(١) ينظر الفهرست ، ٦٦٨ ، أما أبومحمد الحسن بن محمد الخلاّل ، وله كتابٌ في الثقلاء ، فهو متأخرٌ عن ابن المرزبان إذ توفّي سنة ، ٣٥٢ هـ .



آمنوا لا تدخُلوا بيوتَ النبيِّ إلاّ أن يُؤذنَ لكم إلى طعامٍ غيرَ ناظرينَ إناهُ ولكنْ إذا دُعيتُمْ فادخُلوا فإذا طَعِمتُمْ فانتشِروا ولامُستأنِسينَ لحديثٍ إنَّ ذلكمْ كانَ يُؤذي النبيَّ فيستحيي منكم واللهُ لايستحيي من الحقِّ وإذا سألتموهنَّ متاعاً فَسْئَلُوهُنَّ من وراءِ حجابٍ ذلكمْ أطهرُ لقلوبكمْ وقلوبهنَّ وما كان لكمْ أن تؤذوا رسولَ اللهِ ولا أن تنكِحُوا أزواجَهُ من بعدِهِ أبداً إنَّ ذلكمْ كانَ عندَ اللهِ عظيماً﴾[1] . أقول : لا أدلَّ على هذا الرقيِّ مما كان عليه العربُ من التخلّف الاجتماعيِّ وما صاروا إليه حتى لنرى بعض المشتغلين برواية الحديث النبويِّ الشريف لايحدِّثون من يستثقلونه على الرغم من إدراكهم أن ذلك من واجباتهم الدينية ، وأنه من صميم مايَشِمُون به من ورعٍ ، وتقوى .

ومن هنا فالكتاب آيةٌ ناصعةٌ من آيات ما بلغه المجتمع العربيُّ ، والعراقيُّ منه ، بوجهٍ خاصٍّ ، من التطور الاجتماعيِّ ، والرقيِّ الحضاريِّ . ولعلَّ في هذا مايُفسِّرُ ظهور شعراء فيه من أمثال : أبي نواس ، ووالبة بن الحباب ، والحسين بن الضحاك ، ومطيع بن إياس ، وأبي حُكيمة الكاتب ، وسواهم ممن شغلوا دنيا الأدب بظرفهم ، ولطفهم ، وخفّة أرواحهم ، ولعلَّ فيه ما يُفسِّرُ ما قيل عن شيخ القرّاء في عصره ، أعني : ابن مجاهد المتوفى سنة : ٣٢٤هـ من أنَّ فيه «ظرف البغاددة مع الدين والخير»[2] ولعلَّ فيه مايُعزِّزُ ماكان سمّاهُ المرحومُ العلاّمة الدكتور مصطفى جواد بالظرف العراقيِّ ، يومَ كانَ ـ رحمه الله ـ قال «وكان اسم العراق مقارناً للظرافة...»[3] . ولعلّي مقاربُ الصواب إذا فسَّرتُ بهذه الحقيقة حملة الرَّحّالة الأندلسيِّ ابن جُبير الذي زار بغداد في شهر صفر من سنة ٥٨٠هـ ، على البغداديين إذ لم يرَ فيهم : «إلاّ من يتصنّعُ بالتواضع رياءً ، ويذهب بنفسه عُجباً وكبرياءً ، يزدرون الغرباء ، ويُظهرون لمن دونهم الأنفة

---

(١) الأحزاب : ٥٣ .

(٢) تاريخ الإسلام (وفيات ٣٢١-٣٣٠هـ) : ١٤٦ .

(٣) في التراث العربي ٢ : ٢٤٢ . بحثه : آراء السلف في الأدب العراقي .



والإباء ، ويستصغرون عمن سوامم الأحاديث والأنباء ، قد تصوَّركلٌ منهم في معتقدِه وخَلَدِه أنَّ الوجودَ كلَّه يصغر بالإضافة لبلدِه...»[1] ؛ فلعلَّهم رأوا فيه ـ وهو يحدِّثهم عن علماء الأندلس ، وعن محاسنها ، ويطلبُ منهم أن يقِرّوا له بفضلها ـ ماجعَلَهم يستثقلون حديثَه ، ويستثقلونه ، وما حملهم على أن يتذكَّروا قول شاعرهم أبي نواس :

يبكي على طلل الماضين من أسدٍ لا درَّ درُّك قل لي : من بنو أسد ؟

فإذا أضفنا إلى هذا تزمُّتَ طائفةٍ من الأندلسيين ، وكثافة طبائعهم ، ثمَّ رأينا ميْلَ العراقيين إلى السخرية بالأشياء أدركنا سبب الحملة ؛ إذ هي أقربُ ما تكون إلى تصادم مزاجيْن ، وتنافر طبيعتين .

لا أقول هذا دفاعاً عن العراقيين ، ولا انتصاراً لهم ؛ فهم في غنًى عن هذا الدفاع ، وذلك الانتصار بمقدار ما أردتُ أن أُعلِّلَ ماحفز ابنَ المرزبان على تأليف مثل هذا الكتاب .

على أنَّ حديثي عن هذا الجانب لا يعني إهمالي تأثير مزاج ابن المرزبان نفسه في اختيار بعض موضوعات كتبه ؛ إذ ينبغي لي أن أتذكّر أنه هو صاحبُ « تفضيل الكلاب على كثيرٍ ممن لبس الثياب » مما يدلُّ على نزعةٍ هجائيةٍ في نفسه ، ولا يُقلِّل من أهمية الحديث عن هذه النزعة أن تُعزى إلى ظروف عصره ، وإلى بداية انحلال الخلافة العباسية فيه ، وما يجرُّه هذا الانحلال من اختلال في الموازين[2] .

ولستُ أطيل في الحديث عن دواعي تأليف الكتاب ؛ لأنني أريد أن أتحدَّثَ عن جوانبَ أخرى تهمُّ شأنَه كتاباً انتهيتُ من تحقيقه . وأبدأ بالحديث عن مؤلِّفه فأقول :

---

(١) رحلة ابن جبير ١٩٠-١٩١ .

(٢) تحدثتُ عن ذلك تفصيلاً في التمهيد من كتابي : « الشعر في الكوفة منذ أواسط القرن الثاني حتى نهاية القرن الثالث للهجرة » . فلا أعيد الحديث فيه .



مؤلَّفه:

لم أعثر على مرجع يتحدث عن أبي بكر حديثاً يُغنيني عن التعرض إليه ، فقد كنتُ أطمحُ أن أحيل إلى مقدمة ناشر[1] كتابه «تفضيل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب» ، ولكنني وجدتُه تحدَّث في المقدِّمة عن الكلاب ، وطبيعتها ، أكثرَ مما تحدَّث عن ابن المرزبان ، وعِلمِه ؛ مما يجعلني مَسُوقاً إلى الحديث عنه بما سمحت به المصادرُ ، فأقول :

ينبغي أن أُنبِّه باديء ذي بدء إلى مايبدو وكأنه مشكلةٌ في ترجمة ابن المرزبان أثارها الصفديُّ في الوافي بالوفيات ، حين ترجم له على أنه اثنان لا واحد . وتفصيل الأمر أن ياقوت الحمويَّ كان تَرجم له ـ قبل الصفديّ ـ فسمّاه : «محمد بن المرزبان» وكنّاهُ ونسبه بقوله : «أبو العباس الدميري» (ودميرة : قريةٌ كبيرة بمصر قرب دمياط... وهما دميرتان إحداهما تقابل الأخرى على شاطيء النيل في طريق من يريد دمياط)[2] فأوهم أنه غيرُ صاحبنا ، ولكنه حين سردَ جريدة كتبه ، وعرض إلى سنة وفاته دلَّ على أنه هو هو ، وإنما تحرَّفت كلمة الدَّيْمَرتيَ على : الدّميري[3] ونقل الصفديُّ ماقاله ياقوت ، وزاد عليه أشياء ، وحذف أشياء ، فكان له من كلِّ ذلك ترجمتان إحداهما لمحمد بن خلف بن المرزبان المتوَفى سنة : ٣٠٩هـ[4] ، وثانيتهما لمحمد بن المرزبان[5] الذي أهمل ذِكرَ وفاته ، وأهمل ذِكرَ بعضِ كتبه التي تدلُّ عليه مما ذَكَرَ ياقوت قبلَه . والحقُّ أن مثل هذا الخلط ليس غريباً على الصفديِّ في بعض التراجم التي

---

(١) هو الدكتور عصام محمد شبارو ، وقد قدّم لطبعة دار التضامن من الكتاب ، بيروت ، ١٩٩٢ .

(٢) معجم البلدان ٢ : ٤٧٢ ، ولم يذكر ابن المرزبان في علمائها .

(٣) نقل السيوطيُّ في بغية الوعاة ١ : ٢٤١ ترجمته عن ياقوت فسماه : الديمرتي ، ووردت نسبته في الوافي بالوفيات ٥ : ٥١٥ الديمري فحرّفها المحقق بما في معجم الأدباء ، وبما في الطبعة غير المحققة من البغية . فجاء : الدميري .

(٤) الوافي ٣ : ٤٤-٤٥ .

(٥) السابق ٥ : ١٥ .



يعقدها لمن تقدَّم زمنُه من الأدباء ، والعلماء ؛ فقد خلطَ أيضاً في ترجمة نفطويه ، فجعل منه اثنين[1] . وإذ جاء السيوطيُّ ينقل من ياقوت كان الصفديُّ ـ كما يغلب على الظنِّ ـ نصب عينيه ، فأخذ شيئاً مما ذكرَ ياقوت وآخر مما حذف الصفديُّ ، فكان له من كلِّ ذلك ترجمةٌ لاتكادُ تدلُّ على أحد .

وجليّة الأمر ـ كما يبدو أن ياقوت الحمويَّ أراد أن يشير إلى أصله الفارسيِّ ، فنسبه إلى دِيْمَرْت (بفتح الدال وبكسرها) ، وهي قرية من قرى أصبهان ، فلما رأى الصفديُّ أن هذه النسبة غريبةٌ على ابن المرزبان ؛ لأنَّه اشتُهر بالنسبةِ إلى باب المُحوَّل ، فقيل المُحوَّلي ، توهَّم أنه آخر ؛ فأعاد ترجمته بما يؤيد تصوّره حذفاً وإضافةً . وأعودُ الآن إلى ماكنت أريد الحديث عنه من أمره ، فأقول :

هو محمَّد بن خلف بن المرزبان بن بسّام المُحَوَّلي ، يكنى بأبي بكرٍ ، وهي كنيته الشائعة ، وبأبي العباس[2] وأبي عبد الله[3] وتختلف المصادر في سبب نسبته ، فتذهبُ طائفةٌ منها إلى أنها نسبةٌ إلى قريةٍ تقع غربيَّ بغداد تُدعى المُحوَّل[4] ، ولكنَّ الباحث لايطمئن تمام الاطمئنان إلى هذا التعليل ؛ لأنَّ الذين قالوا به هم من المتأخرين ، مما يجعلني أميل إلى التفسير الآخر الذي يقول : إنه منسوبٌ إلى باب مُحَوَّل « وهي محلّة... بجنب الكرخ... متَّصلةٌ »[5] به .

---

(١) ينظر الوافي بالوفيات ٦ : ١٢٩-١٣٠ . وكانت الترجمة الأولى باسم : ابن عرفة المهلبي ، والثانية باسم : نفطويه النحوي .

(٢) كناه بذلك النديم في الفهرست ٢٩٦ ، وياقوت في معجم الأدباء ١٩ : ٥٢ .

(٣) كناه بذلك إسماعيل باشا البغدادي في إيضاح المكنون في ١ : ٥٤٣ ، وفي سائر الصفحات التي ذكره فيها . ويكنى أخوه أحمد بن خلف بن المرزبان بأبي عبد الله أيضاً .

(٤) ينظر النجوم الزاهرة ٣ : ٢٠٣ ، وهدية العارفين ٢ : ٢٦ . ولعلَّ المحوَّل هي ما ندعوه اليوم بالمحاويل ، وهي قرية تقع غربيَّ بغداد أيضاً .

(٥) معجم البلدان ٥ : ٦٦ . وممن ذهب إلى هذا الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ٥ : ٢٣٧ ، وابن الجوزي في المنتظم ٦ : ١٦٥ . وانفرد ياقوت في معجم الأدباء بنسبته إلى الدميرة ، فقال : محمد بن المرزبان ، أبو العباس الدميري . على حين لم يذكر شيئاً من هذا في معجم البلدان .



وأسرتُه فارسية ، وفي اسم جدِّه «المرزبان» وفي سكوت المصادر عن أن تنسبه إلى قبيلةٍ بعينها ، ثمَّ في نسبة ياقوت إيّاه إلى دِيمَرْت ـ كما مرَّ بنا ـ إنَّ في كلّ ذلك مضافاً إليه إجادته اللغة الفارسية ، وترجمته منها[1] ما يدلُّ على كونه من أصلٍ فارسيٍّ دلالةً واضحةً ، وتجمع المصادرُ على نسبته إلى الآجرّ ، فتقول : الآجريّ المحوّلي ، ولانعرف إن كانت هذه النسبةُ إلى صناعة الآجرّ ، أو إلى «درب الآجرّمن نهر طابق في المحالّ الغربية»[2] من بغداد ، ولكننا نتصور أنَّ تعدّد هذه النِسَب يمكن أن يشير إلى أصل الأسرة الأول ، ثم إلى تنقّلها ـ بعد أن استوطنت بغداد ـ في محالّها .

وهي أسرةٌ تهتمُّ بالأخبار ، والأدب ، إذ وجدنا صاحبنا يروي عن أبيه في هذا الكتاب بما هو صريحٌ في أن لأبيه مشايخ[3] ، ووجدنا أبا الفرج الأصبهاني يروي عن أخي صاحبنا : أحمد[4] . ولم تكن روايته عنه روايةً عابرةً ؛ فقد نصَّ الخطيب البغداديُّ وهو يترجم له على أنّه «صاحب أخبارٍ ، ومُلَحٍ ، وأشعار ، وله تصانيف وروايات... »[5] شأنه في ذلك شأن أخيه الأكبر منه ، أعني به صاحبنا ؛ محمّداً . وعلى أن مثل هذه العائلة تبيح لنا أن نتخيَّلَ أنَّ نشأته كانت نشأةً علمية ، إلاّ أننا لا نملك صورةً واضحةً عن هذه النشأة .

ويبدو أنه اهتم برواية الحديث النبويّ الشريف وبالأخبار ، وبالأدب فكان له فيها شيوخٌ ، ولعله اهتم بشيء من الثقافة الإغريقية التي كانت سائدةً في عصره ، ولكننا لا نزعُم أنه كان عميقاً فيها .

---

(١) ينظر معجم الأدباء ١٩ : ٥٢ .

(٢) الأماكن ١ : ٥٦ .

(٣) ينظر : ٢ و .

(٤) ينظر نشوار المحاضرة ٦ : ١٩٢ ، فقد روى خبر شراء المتوكل جاريتين عن أبي الفرج عن أحمد بن خلف بن المرزبان . وترجمة أحمد في تاريخ بغداد ٤ : ١٢٥ .

(٥) تاريخ بغداد ٤ : ١٢٥ .



شيوخه:

من شيوخه مَن نصّ القدماءُ على تلمذته لهم ، فمن هؤلاء :

- ابن أبي الدنيا عبد الله بن محمد ، المتوفَّى سنة : ٢٨١هـ[١] .

- أحمد بن منصور الرماديّ ، المتوفَّى سنة : ٢٦٥هـ[٢] .

- الزبير بن بكار المتوفَّى سنة : ٢٥٦هـ[٣] .

- محمد بن أبي السَّريّ الأزديّ ، ولم يذكر الخطيب وفاته ، إلاّ أنه قال : إنَّه من طبقة محمد بن أبي السريّ المتوكِّل العسقلاني ، ومعروف أن العسقلانيّ هذا توفي سنة : ٢٣٨هـ[٤] .

- عبد الله بن عمرو البلخيّ ، وهو المعروف بعبد الله بن أبي سعد الوراق البلخيّ ، المتوفى سنة : ٢٧٤هـ[٥] ، وقد روى عنه في كتابنا هذا مرة واحدة .

- أحمد بن أبي خيثمة المتوَفَّى سنة : ٢٧٩هـ[٦] ، ويسميه في هذا الكتاب باسم أبيه لا بِكُنيته ، فيقول : أحمد بن زهير .

- عيسى بن عبد الله الطيالسي المتوَفَّى سنة : ٢٧٧هـ[٧] .

---

(١) نصَّ على ذلك الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ١٠ : ٩٠ . و٥ : ٢٣٨ وياقوت في معجم البلدان ٥ : ٦٦ ، وابن الجوزي في المنتظم ٦ : ١٦٥ . والذهبي في تأريخ الإسلام (وفيات ٢٠١-٢٢٠) : ٢٦٠ .

(٢) ينظر تاريخ بغداد ٥ : ٢٣٧ ، ومعجم البلدان ٥ : ٦٦ ، وقد تصحّف فيه على : الزيادي ، ومعجم الأدباء ١٩ : ٥٢ . وتاريخ الإسلام : ٢٦٠ ، وطبقات المفسِّرين ٢ : ١٤٦ ، وتصحف في نشوار المحاضرة ٥ : ٩١ على : أحمد بن محمد بن منصور بن سيار . وهو في مصارع العشاق ١ : ٤٢ أحمد بن منصور بن سيار .

(٣) تاريخ بغداد ٥ : ٢٣٧ . ومعجم الأدباء ١٩ : ٥٢ . ومعجم البلدان ٥ : ٦٦ . والمنتظم ٦ : ١٦٥ . وطبقات المفسرين ٢ : ١٤٦ . والوافي بالوفيات ٢ : ٤٤ . والنجوم الزاهرة ٢ : ٣٠٢ .

(٤) تاريخ الإسلام : ٢٦٠ . وتاريخ بغداد ٥ : ٢٣٧ . وقد تحرّف على : محمد بن أبي السوى .

(٥) تاريخ بغداد ١٠ : ٢٥-٢٦ . وقد تحرّف اسمه في نشوار المحاضرة ٥ : ١٠٥ على : عبد الله بن عمر ، ولعله تطبيع . وينظر مصارع العشاق ١ : ٧٧ .

(٦) نفسه .

(٧) نفسه .



ـ الحارث بن أبي أسامة المتوَفى سنة : ٢٨٢هـ[١] .

ـ مغيرة بن محمد بن المهلّب... بن المهلب بن أبي صفرة ، المعروف بأبي حاتم المهلبي الأزدي المتوفى سنة : ٢٧٨هـ[٢] .

ـ ابن أبي طاهر الكاتب ، المعروف بابن طيفور المتوَفَّى ٢٨٠هـ[٣] . وقد روى له في كتابِنا هذا في موضعين ، وهو من أصدقائه[٤] ، ولعله من أكثر شيوخه تأثيراً فيه ، حتى إنَّه « كان يتعاطى » طريقتَه[٥] ، وقد تحرَّف في تفضيل الكلاب على : ابن طاهر الكاتب[٦] .

ـ أبو سليمان البلخي النابلسي ، إدريس بن يزيد ، المتوفى بعد سنة ٢٨٠هـ[٧] .

وهنالك شيوخٌ لم يذكرهم مترجموه ، وإنما اكتفوا أن يشيروا إليهم بما اعتادوا أن يختموا به جريدة أسماء شيوخه المشهورين ، وشيوخ سواه ، من نحو قولهم : « وغيرهم » أو « وسواهم » .

وأريد الآن أن أسرد ما استطعتُ الاهتداء إليه من أسماء هؤلاء ، سواء أكانوا من المشهورين أم من المغمورين ، فأقول : من هؤلاء الذين روى عنهم :

ـ أبو العباس محمد بن يزيد المبرِّد المتوَفَّى سنة : ٢٨٦هـ ، وقد روى عنه في كتابه « تفضيل الكلاب » وسماه : أبا العباس المبرِّد ، مرَّةً ، وأبا العباس الأزدي مرَّةً أخرى[٨] ، ومحمد بن يزيد النحويَ مرة ثالثة[٩] .

---

(١) السابق ٥ : ٢٢٨ .

(٢) تاريخ بغداد ١٢ : ١٩٥ ، وله رواية عنه في الإمتاع والمؤانسة ٢ : ١١٦ .

(٣) تاريخ الإسلام (وفيات ٢٧١-٢٨٠) : ٢٥٦ .

(٤) ينظر خبراجتماعه هو والناشيء بن محمد في دار ابن المرزبان ، ودعوته مغنيةً لهما في المنتظم ٦ : ٥٨ .

(٥) الفهرست : ٦٥٤-٦٥٥ .

(٦) تفضيل الكلاب : ٥٢ ، وورد صحيحاً في ٥٨ ، ٦٨ ، وكناه بكنيته : أبي الفضل .

(٧) ينظر تاريخ الإسلام (وفيات ٢٨١-٢٩٠) : ١١٤ .

(٨) تفضيل الكلاب : ٦١ ، ٦٥ . وروى خبراً في نزهة الألباء : ٢٢٢ عن المنافرة التي بين المبرد وثعلب .

(٩) ينظر الأغاني : ٣:٥٥ .



ـ القاسم بن الحسن المتوفى سنة : ٢٧٢هـ[١] .

ـ أبو محمد جعفر بن الفضل العسكري[٢] .

ـ أحمد بن حرب[٣] ولعله أحمد بن حرب بن مسمع بن مالك ، أبو جعفرالمعدّل ، المتوفَّى سنة : ٢٧٥هـ .

ـ إسحاق بن محمد[٤] .

ـ محمد بن إسحاق[٥] . وذهب المرحوم الأستاذ عبود الشالجي إلى أنه : محمد بن إسحاق البغويّ ، وليس هناك قرينة فيما أحال عليه ـ أعني تاريخ بغداد ـ تدلُّ على أنه المعنيُّ ، دون سواه .

ـ سليمان بن أيوب المديني[٦] .

ـ أبو بكر العامري[٧] .

ـ محمد بن موسى[٨] .

---

(١) ينظر نشوار المحاضرة ٥ : ٩٠ ، وقد أفدت في معرفته من حاشية محققه الأستاذ عبود الشالجي ، وقد روى عنه في كتابنا مرتين ، وينظر مصارع العشاق ١ : ٢٢ ، ١٥٠ .

(٢) النشوار ٥ : ٩٢ .

(٣) السابق ٥ : ١٠١ ، ومصارع العشاق ١ : ١٣٩وقد تصحف اسم أبيه فيه على : جرب ، وورد صحيحاً في ١ : ٢٣٢ .

(٤) السابق ٥ : ١١٠ ، قال المحقق : إنه إسحاق بن محمد بن أحمد بن أبان النخعي ، وهذا النخعيُّ من غلاة الشيعة ، كان تلميذاً للمازني المتوفى سنة : ٢٤٩هـ على أحد الأقوال . ينظر الوافي بالوفيات ٨ : ٤٢٢-٤٢٣ . وينظر مصارع العشاق ١ : ٨١ إذ يروي إسحاق فيه عن ابن الأعرابي المتوفى ـ على أحد الأقوال ـ سنة : ٢٣١ هـ ، ويروي عن محمد بن سلام في ٢ : ١٢٣ ، وسماه السراج مرّة أخرى في ١ : ٢٥٠ إسحاق بن محمد الكوفي ، وإسحاق بن محمد بن أبان في ٢ : ١٧ مرّةً ثالثة ، وإسحاق بن محمد مرّةً رابعة في ٢ : ٧٥ .

(٥) السابق ٥ : ١١٢ ، وتنظر روايته عنه في مصارع العشاق ٢ : ٩٠ .

(٦) السابق ٥ : ١١٨ .

(٧) السابق ٥ : ١٢٧ ، ١٥٨ومصارع العشاق ١ : ٤٩ ، ٥١ وقد روى عنه في هذا الكتاب في أكثر من موضع .

(٨) النشوار ٥ : ١٦٢ .



ـ أحمد بن حبيب[1] ، وقد روى عنه في كتابنا هذا ، فكنّاه بأبي الفضل ، ثم سماه . ولا أعرف من هو ، ولكنني أشكُّ في أن يكون هو أحمد بن حبيب بن حماد ، أو أحمد بن حبيب النهرواني ـ كما أوحى المرحوم الأستاذ عبود الشالجي في إحالته على تاريخ بغداد ـ لأنَّ كنية الأول فيه : أبو جعفر ، وكنية الثاني : أبو بكر ، على حين أن كنية صاحبنا المعنيّ هي : أبو الفضل .

ـ عبد الله بن محمد[2] ، وسماه في كتابنا هذا : عبد الله بن محمد القنطري مرّة ، وكنّاه بأبي بكرٍ مرّةً أخرى .

ـ محمد بن عبد الله بن أبي مالك الخزاعي[3] .

ـ حماد بن إسحاق الموصلي[4] . وقد كان يروي عن أبيه كتابه : «الأغاني»[5] .

ـ محمد بن إسحاق[6] . وليس هنالك ما يقطع بأنه الصيرفيُّ الشاهد المتوفى سنة : ٣١٦هـ .

ـ محمد بن عبد الرحمان الصيرفي[7] المتوفى سنة : ٢٦٥هـ .

ـ أبو عبد الله التميمي[8] ، ولعله هو الذي روى عنه مرّةً في كتابنا هذا باسم : عبد الرحمان بن محمد التميميّ .

---

(١) السابق ٥ : ١٨٢ .

(٢) السابق ٥ : ٢٤٩ ، وقد روى عنه في كتابنا هذا في أكثر من موضع .

(٣) السابق ٥ : ٢٨٤ ، وتنظر روايته عنه في مصارع العشاق ١ : ٢٤٠ ، وهو فيه : ... بن أبي مالك بن الهيثم الخزاعي .

(٤) السابق ٥ : ٢٨٧ ، ٧ : ١٢٤ ولم يذكر نسبته ، وإنما ذهب إليها محققه ، وله رواية عنه في مصارع العشاق ١ : ٢٢٤ .

(٥) ينظر تاريخ بغداد ٨ : ١٥٩ .

(٦) النشوار ٧ : ٢١ ، وقال المحقق : إنه الصيرفي الشاهد .

(٧) السابق ٧ : ٦٦ .

(٨) السابق ٦ : ٧١ ، ٢٢٨ ، ومصارع العشاق ١ : ٢٥٢ ، وقد روى عنه في كتابنا هذا في أكثر من موضع .



ـ محمد بن عبد الله بن الفضل[1] .

ـ أبو الفضل قاسم بن سليمان الإيادي[2] .

ـ عبد الرحمان بن سليمان[3] .

ـ عبد الرحمان بن عبد الله السرخسي[4] .

ـ محمد بن الفضل[5] .

ـ عبيد الله بن سعد الزهري[6] .

ـ أبو علي الحسن بن عليل العنزي ، وقد روى عنه مكاتبةً ، ثمَّ لقيه[7] .

ـ زكريا بن يحيى الكوفي[8] . وهو من شيوخه ـ على ما يبدو ـ في الحديث .

ـ زكريا بن موسى[9] .

ـ أحمد بن شدّاد[10] .

ـ أبو العباس أحمد بن يحيى[11] الإمام ثعلب المتوفى سنة : ٢٩١هـ .

ـ عبد الجبار بن عبد الأعلى[12] .

---

(١) السابق ٦ : ٢٢٢ ، ومصارع العشاق ١ : ٢٦٦ .

(٢) السابق ٦ : ٢٣٩ ، وتنظر روايته عنه في مصارع العشاق ٢ : ٥٧ ، وروى عنه مرّةً واحدة في كتابنا هذا ، وسماه : القاسم .

(٣) النشوار ٦ : ٢٤٠ ، وتفضيل الكلاب ١٠٩ ، وتنظر روايته عنه في مصارع العشاق ٢ : ٢٧ .

(٤) تنظر روايته عنه في مصارع العشاق ١ : ٥٢ .

(٥) تنظر روايته عنه في السابق ١ : ٦٢ .

(٦) تنظر روايته عنه في السابق ١ : ٦٩ .

(٧) تنظر روايته عنه في السابق ١ : ٩٢ .

(٨) تنظر روايته عنه في السابق ١ : ١٠٢ .

(٩) تنظر روايته عنه في السابق ١ : ١٢٥ ، ٢ : ١٨١ .

(١٠) تنظر روايته عنه في السابق ١ : ١٢٢ .

(١١) تنظر روايته عنه في السابق ١ : ١٢٥ .

(١٢) تنظر روايته عنه في السابق ١ : ١٤٦ .



ـ عبد الله بن المهاجر[١] .

ـ أبو صالح الأزدي[٢] .

ـ أبو الفضل المروروذي[٣] .

ـ أبو عبد الله أحمد بن عبد الرحيم[٤] .

ـ عبد الله بن شبيب[٥] ، أبو سعيد الرَّبعي ، ولم يذكر تاريخ وفاته ، ويبدو أنه من أقران الزبير بن بكار المتوفى : ٢٥٦هـ ، فقد روى عنه الزبير ، وروى هو عن الزبير[٦] .

ـ سعيد بن عمر البيروذي[٧] .

ـ أبو عليّ البلديّ الشاعر[٨] .

ـ جعفر بن علي اليشكريّ[٩] .

ـ أبو الفضل الكاتب[١٠] .

ـ أبو عبد الله السدوسيّ[١١] .

ـ أبو هفّان المتوَفَّى سنة : ٢٥٠هـ[١٢] .

---

(١) تنظر روايته عنه في مصارع العشاق ١ : ٢٠٥ .

(٢) تنظر روايته عنه في المصدر نفسه ، و٢ : ٢٩٦ .

(٣) تنظر روايته عنه في السابق ١ : ٢١٣ .

(٤) تنظر روايته عنه في السابق ١ : ٢٤٤ .

(٥) النشوار ٦ : ٢٤١ . وقال محققه : إنه الربعي .

(٦) ترجمته في تاريخ بغداد ٩ : ٤٥٦-٤٧٤ .

(٧) النشوار ٦ : ٢٤٢ . وتنظر روايته عنه في مصارع العشاق ١ : ٢٤٧ وفيه : البيرورذي .

(٨) السابق ٦ : ٢٤٣ . وتنظر روايته عنه في مصارع العشاق ٢ : ٩٠ .

(٩) السابق ٦ : ٢٤٤ . وتنظر روايته عنه في مصارع العشاق ٢ : ٥١ .

(١٠) السابق ٦ : ٢٤٨ . ومصارع العشاق ٢ : ٣٨ . ولعله ابن طيفور . أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر

(١١) تفضيل الكلاب : ٤٧ .

(١٢) السابق : ٤٩ .



ـ زيد بن عليّ[1] .

ـ القاسم بن محمد الرصدي[2] .

ـ الحسن بن عبد الوهاب[3] .

ـ عبد الواحد بن محمد النجاري[4] .

ـ أحمد بن منصور[5] .

ـ عبد الله بن محمد الكاتب[6] .

ـ أبو العلاء بن يوسف القاضي[7] .

ـ عليّ بن محمد[8] . وقد روى عنه في كتابنا هذا في موضع واحد .

ـ عبد الرحمان بن محمد الحنظليّ ، وقد روى عنه في كتابنا هذا ثلاث مرات .

ـ أبو العباس المروزيّ ، وقد روى عنه في أكثر من موضع في كتابنا هذا ، وفي مصارع العشاق[9] .

ـ محمد بن عبد الله الأهوازي[10] .

ـ موسى بن الحسن النَّسانيّ ، وقد روى عنه مرّةً واحدة في كتابنا هذا .

---

(١) السابق ، ٥١ .

(٢) السابق ، ٥٨ .

(٣) السابق ، ٦٠ .

(٤) تنظر روايته عنه في مصارع العشاق ١ ، ٢٦٥ . ولست على ثقة من نسبته .

(٥) السابق ، ٦٨ .

(٦) السابق ، ٩١ . ولعله عبد الله بن محمد الطالقاني المذكورة روايته عنه في مصارع العشاق ٢ : ٦٢ ؛ ١٠٤ .

(٧) السابق ، ٩٤ .

(٨) السابق : ٩٨ .

(٩) ١ : ٣٤ .

(١٠) تنظر روايته عنه في مصارع العشاق ١ : ١٤١ . ويبدو أنه غير محمد بن عبد الله بن الفضل .



ـ عمر بن عبد الوهاب ، وقد روى عنه مرَّةً واحدةً أيضاً في كتابنا هذا .

ـ عبد الله بن نصر ، وقد روى عنه في كتابنا هذا في أكثر من موضع ، ونسبه مرَّةً ، فقال : الرياشيّ ، وورد على عبد الله بن نصر المروزي[1] .

ـ عبد الله بن عبيد القرشيّ ، وقد روى عنه مرّة واحدة في كتابنا هذا[2] .

ـ محمد بن إسحاق بن عبد الرحمان المدائنيّ ، وقد روى عنه أكثر من مرّة في كتابنا هذا .

ـ محمد بن الحنظليّ ، وقد روى عنه مرّة واحدة ، ولا أعرف إن كان هو عبد الرحمان بن محمد السالف الذكر ، وتحرَّف على يد الناسخ أم أنه آخر .

ـ محمد بن عمران بن زياد الضبيّ ، وقد روى عنه مرة واحدة في هذا الكتاب .

ـ محمد بن بكر ، وقد روى عنه مرّة واحدة في هذا الكتاب .

ـ محمد بن عبد الله بن عمر ، وروى عنه في كتابنا هذا مرّة واحدة .

ـ عبيد الله بن عبد الله الخراسانيّ ، وقد روى عنه مرة واحدة .

ـ الحسن بن صالح البرتي ، وقد روى عنه مرة واحدة في كتابنا[3] .

ـ محمد بن صالح الكوفيّ ، ولم أعرفه ، وقد روى عنه مرةً واحدة .

ـ عبد الله بن جعفر ، وقد روى عنه مرّة واحدة .

ـ سلمة بن يزيد ، وقد روى عنه مرة واحدة .

ـ عبد الجبار بن محمد الطوسيّ ، وقد روى عنه مرة واحدة .

---

(١) ينظر مصارع العشاق ١ ، ١٨٠ .

(٢) وتنظر روايته عنه في مصارع العشاق ١ ، ١٦٠ .

(٣) وتنظر روايته عنه في السابق ١ ، ١٢٠ . وقد كناه بأبي علي .



- أبو بكر الكوفي ، وقد روى عنه مرة واحدة .

- محمد بن عليّ ، وقد روى عنه مرتين[١] .

- سعيد بن عثمان ، وقد روى عنه مرة واحدة .

- أبو النضر ، ولعله أحمد بن إبراهيم بن الحارث العقيلي[٢] ، وقد روى عنه في كتابنا هذا مرة واحدة .

- الواسطيّ ، هكذا سمّاه ، ولعله حماد بن محمد بن حماد ، أبو سعيد الأعور الواسطي ، إذ هو من معاصري صاحبنا ، فقد كان من شيوخ محمد بن مخلد الدوري المتوفى سنة : ٣٣١هـ[٣] . وروى عنه مرة واحدة .

- عبد الرحمان القنطريّ ، وقد روى عنه مرة واحدة .

- أبو محمد الطوسيّ ، وقد روى عنه مرتين .

- محمد بن عمر ، وقد روى عنه مرة واحدة في كتابنا هذا[٤] .

- أبو يعقوب النَّخعيّ ، وقد روى عنه مرة واحدة في كتابنا هذا .

- عليّ بن الفضل ، وقد روى عنه مرتين .

- عبد المؤمن بن عبد الله ، وقد روى عنه مرة واحدة .

- أبو محمد الأمين ، وقد روى عنه مرة واحدة .

- عمر بن عبد الحكيم ، وقد روى عنه مرة واحدة .

- أبو محمد عبد الله بن عبيد الله ، وقد روى عنه مرة واحدة .

---

(١) وتنظر روايته عنه في السابق ٢ : ٢٧ .

(٢) ينظر تاريخ بغداد ٤ : ١٤ ، ومصارع العشاق ٢ : ١٠ .

(٣) ينظر السابق ٨ : ١٦٠ ، وفي وفاة الدوري ينظر الأنساب ٥ : ٣٥٨ .

(٤) وله عنه رواية في مصارع العشاق ١ : ٢٩٠ .



ـ أبو العباس محمد بن نصر ، وقد روى عنه مرة واحدة .

ـ أبو القاسم عبد الرحمان بن عليّ ، وقد روى عنه مرتين .

ـ إبراهيم بن محمد الطائفي[1] .

ـ أبو الفضل أحمد بن ملاعب[2] .

ـ صالح بن يوسف المحاربي[3] .

ـ يحيى بن جعفر الواسطي[4] .

ـ أبو عبد الله محمد بن يوسف الكوفي[5] .

ـ أبو العباس فضل بن محمد اليزيدي[6] المتوفى سنة ٢٧٨هـ .

ـ محمد بن معاذ[7] .

ـ الحسن بن مكرم بن حسان[8] .

ـ هارون بن محمد[9] .

ـ عبد الله بن مسلم المروزي[10] .

ـ أبو العباس محمد بن يعقوب[11] .

---

(١) الأغاني ١٩ ، ٢٦١ ، ومصارع العشاق ١ ، ١١٠ .
(٢) تنظر روايته عنه في مصارع العشاق ١ ، ٢٧٨ .
(٣) تنظر روايته عنه في السابق ١ ، ٢٨٠ .
(٤) تنظر روايته عنه في السابق ١ ، ٣١٢ .
(٥) تنظر روايته عنه في السابق ١ ، ٣١٤ .
(٦) تنظر روايته عنه في السابق ١ ، ٣١٧ .
(٧) تنظر روايته عنه في السابق ٢ ، ٧ .
(٨) تنظر روايته عنه في السابق ٢ ، ٨ .
(٩) تنظر روايته عنه في السابق ٢ ، ١٢ .
(١٠) تنظر روايته عنه في السابق ٢ ، ١٣ .
(١١) تنظر روايته عنه في السابق ٢ ، ١٧ .



ـ عبد الملك بن محمد الرقاشي[1] ، وهو المعروف بأبي قلابة المتوفى ، ٢٧٦هـ .

ـ عمر بن شبّة[2] .

ـ أحمد بن الهيثم القرشي[3] .

ـ القحذمي[4] . ولا أعرف عنه أكثر من هذا .

ـ محمد بن سلمة الواسطي[5] .

ـ أبو حفص عمر بن علي[6] .

ـ عبد الله بن أبي عبد الله القرشي[7] .

ـ محمد بن هارون المقري[8] .

ـ أبو العلاء القيسي[9] .

ـ الحسن بن صالح الأسدي[10] .

ـ أبو جعفر أحمد بن الحارث[11] .

ـ العمري[12] . ولم يُذكر عنه أكثر من هذا .

---

(١) تنظر روايته عنه في السابق ٢ ، ٢٢ .

(٢) تنظر روايته عنه في السابق ٢ ، ٦٥ .

(٣) تنظر روايته عنه في السابق ٢ ، ٦٦ .

(٤) روى عنه شيئا من شعر مجنون ليلى في السابق ٢ ، ٧٦ .

(٥) تنظر روايته عنه في المصدر السابق ٢ ، ٩٢ .

(٦) تنظر روايته عنه في مصارع العشاق ٢ ، ٩٥ .

(٧) تنظر روايته عنه في المصدر السابق ٢ ، ١٠٧ .

(٨) تنظر روايته عنه في السابق ٢ ، ١٠٨ .

(٩) تنظر روايته عنه في السابق ٢ ، ١١٥ .

(١٠) روى شيئاً من شعر أبي العتاهية عنه في السابق ٢ ، ١١٩ .

(١١) تنظر روايته عنه في السابق ٢ ، ١٢٩ .

(١٢) تنظر روايته عنه في السابق ٢ ، ١٤٢ .

ـ أبو عبد الله أحمد بن أبي محمد القرشي[1] .

ـ أبو بكر القرشي[2] . ولم يذكر عنه شيء أكثر من هذا .

ـ محمد بن العباس المكتِّب[3] .

ـ أبو موسى عيسى بن جعفر الكاتب[4] .

ـ علي بن صالح المعرِّي[5] .

ـ حسين بن الضحاك اليشكري[6] .

ـ إسحاق بن منصور[7] .

ـ صالح بن يعقوب المديني[8] .

ـ العباس بن الفضل الأسدي[9] .

ـ أبو محمد التميمي[10] ، وأظنه غير أبي عبد الله السالف الذكر .

هذا ما تيسَّر لي من أسماء شيوخه ، وكثيرٌ منهم لا نعرف ـ اليوم ـ عنه شيئاً ، وكما روى عن هؤلاء الشيوخ الأخبار ، والأدب ، كان يروي عن بعض الشعراء من معاصريه أشعارهم ؛ فقد كان يروي عن البحتريّ شيئاً من شعره[11] ،

---

(١) تنظر روايته عنه في السابق ٢ : ٢٠٦ .

(٢) تنظر روايته في السابق ٢ : ٢٥٤ ، ٢٥٥ .

(٣) تنظر روايته عنه عن عبد الرحمان بن أخي الأصمعي في السابق ٢ : ٢٦٣ .

(٤) تنظر روايته عنه في السابق ٢ : ٢٧١ .

(٥) تنظر روايته عنه في السابق ٢ : ٢٧٤ .

(٦) تنظر روايته عنه في السابق ٢ : ٢٧٧ .

(٧) تنظر روايته عنه في السابق ٢ : ٢٨١ .

(٨) تنظر روايته عنه في السابق ٢ : ٢٨٢ .

(٩) تنظر روايته عنه في السابق ٢ : ٢٨٤ .

(١٠) تنظر روايته عنه في السابق ٢ : ٢٩٤ .

(١١) ينظر وفيات الأعيان ٦ : ٢١ .



ويروي شيئاً آخر من شعر أبي بكر الطاهري[١] . وليس هذا الاهتمام بغريب عليه ؛ فقد كان هو نفسه يقول الشِّعرَ حين تدعوه إليه مناسبة[٢] .

وإذ سمع من كلِّ هؤلاء وروى عنهم استوى له أن يكون أخبارياً[٣] صدوقاً ثبتاً[٤] ، وأن يوصف بأنه : « كان إماماً عالماً »[٥] ، و« فاضلاً بليغاً مؤرِّخاً عالماً بمجاري اللغة ، تصدَّر عنه الكتّابُ الكبارُ ، وكان أحد التراجمة »[٦] .

ولكن هذا الفضل كلَّه لم يؤهِّله أن يتصل بذوي الجاه في عصره ، كأن يكون على صلةٍ بخليفةٍ أو وزيرٍ أو نحوهما ؛ إذ لم يذكر مترجموه شيئاً يمكن أن يُستشفَّ منه ذلك ، وعلى أننا لانعرف يقيناً موردَ رزقِه ، إلاّ أننا لا نستطيع أن نصف حاله بالضيق ؛ فقد رأيناه يجتمع عنده صديقاهُ : ابنُ أبي طاهر الكاتب ، والناشيءُ الأكبرُ فيدعو لهم مغنِّيةً تغنِّيهم[٧] . ولعلَّ مثل هذه المجالس التي يكون فيها السماع قد أسهمت في أن يصفَه الدار قطنيَ بأنه « أخباريٌّ ليِّنٌ »[٨] .

ولا أستبعد أن يكون قد امتهن القضاء ؛ فقد رأينا تلميذيه ابن حيويه ، والزبيبي يرويان عمن سمياه : أبا بكر محمد بن خلف القاضي ؛ إذ يغلب على ظنِّي[٩] أنهما يعنيان به صاحبنا .

---

(١) ينظر الوافي بالوفيات ٦ : ٢٠٠ .

(٢) تنظر قصيدته في تاريخ بغداد ٥ : ٢٣٨ . ونقل الصفديُ منها ثلاثة أبيات في الوافي ٣ : ٤٤ . وتنظر مقطّعته في الحارث بن أبي أسامة في تاريخ الإسلام (وفيات ٢٨١-٢٩٠ هـ) ١٤٧ .

(٣) تاريخ بغداد ٥ : ٢٣٧ .

(٤) المنتظم ٦ : ١٦٥ .

(٥) النجوم الزاهرة ٣ : ٢٠٣ .

(٦) معجم الأدباء ١٩ : ٥٢ . ووردت جملة : « وتصدَّر عنه الكتّاب الكبار » في الوافي ٥ : ١٥ « تصدر عنه الكتب الطوال » وفي بغية الوعاة ١ : ٢٤١ « تصدر عنه الكتب الكبار » .

(٧) ينظر المنتظم ٦ : ٥٨ .

(٨) طبقات المفسرين ٢ : ١٤٦ .

(٩) قلتُ : يغلبُ على الظنِّ : لأنني خشيتُ أن يكون الذي رويا عنه هو القاضي وكيع ؛ فهو وابن المرزبان يتطابقان في الاسم .



وإذا لم يكن فضلُه قد أهَّله أن يكون من أهل النفوذ الباذخ ، فإنَّه أهَّله أن ينتصب للتدريس ـ كما هي طبيعة الحال ـ فيكون له تلاميذُ عرضَ مترجموه إلى بعضِهم ، وسكتوا عن بعضٍ . فمن هؤلاء الذين عرضوا إليهم من تلاميذه :

ـ أبو بكر بن الأنباريّ المتوَفَّى سنة : ٣٢٨هـ[١] .

ـ الحافظ أبوأحمد بنُ عَدِيّ[٢] ، وهو عبد الله بن عديّ الجرجانيّ المتوفى سنة : ٣٦٥هـ .

ـ أبو الفضل عيسى بن موسى بن أبي محمد بن المتوكل على الله الهاشمي العباسيّ المتوَفَّى سنة : ٣٦٣هـ[٣] .

ـ أبو جعفر بن بريه الهاشميّ[٤] .

ـ أبو عمرو بن حيَّوَيه ، محمد بن العباس بن محمد بن زكريا بن يحيى الخزاز ، المتوفى في ربيع الآخر من سنة : ٣٨٢هـ . وقد اعتمدت نشرتا لويس شيخو ، وإبراهيم يوسف لكتاب « تفضيل الكلاب » روايته عنه إجازةً[٥] .

ـ ابن البختري ، أحمد بن عبد الله بن إبراهيم بن البختري ، أبو العباس الداودي[٦] .

ومن تلاميذه من لم يذكرهم أحدٌ من مترجميه ، ولكن رواياتهم عنه مبثوثةٌ في المصادر ، فمن هؤلاء :

---

(١) تاريخ بغداد ٥ : ٢٣٧ ، والمنتظم ٦ : ١٦٥ ، والنجوم الزاهرة ٣ : ٢٠٢ ، وتاريخ الإسلام (وفيات ٣٠١-٣٢٠) : ٢٦٠ .

(٢) معجم البلدان ٥ : ٦٦ .

(٣) تاريخ بغداد ٥ : ٢٣٨ ، وتاريخ الإسلام (وفيات ٣٠١-٣٢٠) : ٢٦٠ ، و(وفيات ٣٥١-٣٨٠) : ٣١٠ .

(٤) تاريخ بغداد ٥ : ٢٣٨ .

(٥) ينظر تأريخ الإسلام (وفيات : ٣٨١-٤٠٠هـ) : ٥١-٥٥ ، وتاريخ الأدب العربي ٢ : ٢٣٩-٢٤٠ ، ومقدمة نشرة الدكتور عصام شبارو للكتاب

(٦) الوافي بالوفيات ٧ : ٨١ .



ـ الحسن بن سعيد الأدمي ، وهو الذي روى هذا الكتاب .

ـ أبو السائب القاضي عتبة بن عبيد(١) .

ـ أبو الفرج الأصبهاني المتداول تاريخ وفاته على أنه في سنة : ٣٥٦هـ ، وقد روى عنه في أكثر من موضع في كتبه .

ـ أبو الحسين عبد الله بن إبراهيم الزبيبي(٢) .

آثارُه:

وكما كان له تلاميذُ يروون عنه علمه بالأخبار ، والأشعار ، فقد كان له أيضاً مصنَّفاتٌ منها ماهو مترجَمٌ من الفارسية إلى العربية ، فقد ترجم أكثر من خمسين أثراً(٣) ، لم يصل إلينا منها شيءٌ .

أما آثارُه الأخرى فهي :

ـ تفضيل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب . وقد نشره لويس شيخو في المجلد السابع من مجلة المشرق سنة : ١٩١٢م ، ونشره أيضاً إبراهيم يوسف في القاهرة سنة : ١٣٤١هـ ، ثم نشره الدكتور عصام محمد شبارو في دار التضامن ببيروت عام : ١٩٩٢م .

ـ ذم الثقلاء ، وهو هذا الكتاب ، وسأفرده بحديث خاصٍ به .

ـ وصف الفارس والفرس(٤) .

---

(١) الإمتاع والمؤانسة ٢ : ١١٦ .

(٢) ينظر على سبيل المثال مصارع العشاق ١ : ٦٩ ، ٧٢ ، ١٦٠ . وورد في : ٧١ أبو الحسين بن بيان الزبيبي ، وهو هو ؛ إذ أنه عبد الله بن إبراهيم بن بيان . ينظر المصارع ١ : ٣٠١ ، ١٢٤ . وسماه في ٢ : ٢٤٤ عبد الله بن إبراهيم البصري .

(٣) ينظر معجم الأدباء ١٩ : ٥٢ .

(٤) معجم الأدباء ١٢ : ٥٢ ، هدية العارفين ٢ : ٢٦ .



- وصف السيف[١] .

- وصف القلم[٢] .

- الحاوي في علوم القرآن ، وهو في سبعةٍ وعشرين جزءاً[٣] .

- كتاب الحماسة[٤] .

- أخبار عبد الله بن جعفر بن أبي طالب[٥] .

- كتاب الشعر و الشعراء[٦] .

- ألقاب الشعراء[٧] .

- أخبار عبد الله بن قيس الرقيّات ، ومختار شعره[٨] .

- أخبار العرجي[٩] .

- كتاب السودان وفضلهم على البيضان[١٠] .

---

(١) نفساهما ، على أنه وما يليه في هدية العارفين كتابٌ واحدٌ هو ، وصف السيف والقلم .

(٢) معجم الأدباء ١٢ ، ٥٢ .

(٣) الفهرست ، ٣٩٦ ، ٦٥٥ ، ومعجم الأدباء ١٢ ، ٥٢ ، وطبقات المفسرين ٢ ، ١٤٦ ، وإيضاح المكنون ٢ ، ٢٨٧ ، وهدية العارفين ٢ ، ٢٦ ، وينظر الوافي بالوفيات ٣ ، ٤٥ .

(٤) الفهرست ، ٣٩٦ ، ٦٥٦ معجم الأدباء ١٩ ، ٥٢ ، والوافي بالوفيات ٣ ، ٤٥ ، وطبقات المفسرين ٢ ، ١٤٦ ، وهدية العارفين ٢ ، ٢٦ .

(٥) الفهرست ، ٣٩٦ ، ٦٥٦ معجم الأدباء ١٩ ، ٥٢ ، والوافي ٣ ، ٤٥ ، وطبقات المفسرين ٢ ، ١٤٦ ، وإيضاح المكنون ١ ، ٤٢ ، وهدية العارفين ٢ ، ٢٦ .

(٦) الفهرست ، ٦٥٦ ، وهدية العارفين ٢ ، ٢٦ ، وسماه في طبقات المفسرين ٢ ، ١٤٦ كتاب الشعراء .

(٧) الفهرست ، ٦٥٦ ، والوافي ٣ ، ٤٥ ، وإيضاح المكنون ١ ، ١٢١ ، وهدية العارفين ٢ ، ٢٦ .

(٨) الفهرست ، ٦٥٥ وفي إيضاح المكنون ١ ، ٣٩ أخبار أبي [كذا] قيس الرقيات ومختار شعره ، وفي الحاشية ، لعله ابن قيس . وفي الوافي ٣ ، ٤٥ وطبقات المفسرين ٢ ، ١٤٦ « أخبار عبد الله بن قيس الرقيات » .

(٩) الفهرست ، ٦٥٦ ، والوافي ٣ ، ٤٥ ، وطبقات المفسرين ٢ ، ١٤٦ ، هدية العارفين ٢ ، ٢٦ .

(١٠) الفهرست ، ٦٥٦ ، والوافي ٣ ، ٤٥ ، وهدية العارفين ٢ ، ٢٦ وهو في طبقات المفسرين ٢ ، ١٤٦ « تفضيل السودان على البيضان » .



- كتاب الشراب ويحتوي على عدّة كتب[1] .

- كتاب المتَيّمين[2] .

- كتاب المعصومين[3] .

- كتاب المتباعدين[4] .

- كتاب الروض والزَّهر[5] .

- كتاب الجلساء والندماء[6] .

- ذمّ الحجاب والعتب على المحتجب[7] .

- كتاب الهدايا[8] .

- كتاب مَن غدرَ وخانَ[9] .

- كتاب الشتاء والصيف[10] .

---

(١) الفهرست ٦٥٥-٦٥٦ ، وينظر الوافي ٢ ، ٤٥١ ، وطبقات المفسرين ٢ ، ١٤٧ .

(٢) الفهرست ٦٥٥ ، وفي إيضاح المكنون ٢ ، ٢٢٨ ، وهدية العارفين ٢ ، ٢٦ كتاب المتيمين المعصومين ، وفي الوافي ٢ ، ٤٥١ ، وطبقات المفسرين ٢ ، ١٤٧ كتاب المتيمين المعصومين المتباعدين .

(٣) الفهرست ٦٥٥ .

(٤) نفسه ، وفي الإيضاح ٢ ، ٢٣١ ، والهدية ٢ ، ٢٦ كتاب المساعدين ، وأحسبه تصحيفاً .

(٥) الفهرست ٦٥٦ ، وهو في طبقات المفسرين ٢ ، ١٤٧ الروضة ، وفي الوافي ٢ ، ٤٥١ ، وهدية العارفين ٢ ، ٢٦ ، وإيضاح المكنون ٢ ، ٣٠٠ الروض .

(٦) الفهرست ٦٥٦ ، والوافي ٢ ، ٤٥١ ، وطبقات المفسرين ٢ ، ١٤٧ ، وإيضاح المكنون ٢ ، ٢٨٦ . وهدية العارفين ٢ ، ٢٦ .

(٧) الفهرست ٦٥٦ ، وإيضاح المكنون ١ ، ٥٤٢ ، وهدية العارفين ٢ ، ٢٦ ، وهو في الوافي٢ ، ٤٥١ «ذم الحجاب» .

(٨) الفهرست ٦٥٦ ، والوافي ٢ ، ٤٥١ ، وطبقات المفسرين ٢ ، ١٤٧ ، وإيضاح المكنون ٢ ، ٣٥٠ ، وفي تاريخ الأدب العربي ٢ ، ٢٤٠ أن له كتاباً اسمه «الهداية» ، وقال «إنّ نسخته الخطية في القاهرة ، وإنّ نسخةً من منتخبه في لندبرج ـ بريل .

(٩) الفهرست ٦٥٦ ، والوافي ٢ ، ٤٥١ ، وطبقات المفسرين ٢ : ٢٤٧ .

(١٠) الفهرست ٦٥٦ ، والوافي ٢ ، ٤٥١ ، وإيضاح المكنون ٢ : ٣٠٥ ، وهدية العارفين ٢ ، ٢٦ .



- كتاب النساء والغزل[١] .

- كتاب في أشعار الحارث بن خالد المخزومي في عائشة بنت طلحة[٢] .

- كتاب الذهول والنحول[٣] .

هذا مابلغنا من أسماء كتبه ، ولم يبلغنا اليوم منها إلاّ شذراتٌ رواها أبو الفرج الأصبهاني في كتبه ، وأخرى رواها السرّاج عن شيوخه في مصارع العشاق ، وروى شذراتٍ منها آخرون دون أن ينصَّ أحدٌ منهم - في الغالب - على اسم كتابٍ بعينه . وبلغنا كتابان له هما : تفضيل الكلاب على كثيرٍ ممن لبس الثياب ، وذمّ الثقلاء ، وهو الكتاب الذي نحققه . ويبدو أنَّ سوى هذين الكتابين كان معروفاً في القرن الثامن للهجرة ؛ فقد وقعت قطعةٌ من مؤلفاته للذهبيِّ المتوَفّى سنة : ٧٤٨هـ[٤] .

وفاتُه:

تجمعُ المصادرُ على أنَّ وفاته كانت في سنة ٣٠٩هـ . وإذا نظرنا إلى أن من شيوخه محمد بن أبي السريِّ الأزديّ - كما سبق أن رأينا - وأنَّ ابن أبي السريّ هذا من طبقة سميِّه العسقلانيّ لم نجد حرجاً أن نتابع قول من قال : إنه توفِّي وهو في عشر الثمانين[٥] .

---

(١) الفهرست ١٥٦ ، والوافي ٣ : ٤٥ ، وفي إيضاح المكنون ٢ : ٢٤٣ ، وهدية العارفين ٢ : ٢٦ : النساء والعزل .

(٢) ينظر تاريخ الأدب العربي ٢ : ١٤٠ .

(٣) نفسه .

(٤) ينظر تاريخ الإسلام (وفيات : ٣٠١-٣١٠) : ٢٦٠ .

(٥) ينظر معجم المؤلفين ٩ : ٢٨٥ .



نسبة الكتاب:

تجمع المصادر على أن هذا الكتاب له لا ينازعه في نسبته إليه منازعٌ ، وفضلاً عن هذا الإجماعَ فإنَّ فيه من القرائن مايدلُ دلالةً قاطعةً على أنه من تأليفه ؛ فمن هذه القرائن روايته فيه عن شيوخه : ابن أبي الدنيا ، وأحمد بن أبي طاهر ، وأحمد بن زهير المعروف بابن أبي خيثمة ، وعبد الله بن أبي سعد الوراق . ومنها أيضاً طبيعته القائمة على الأخبار ، مما ينسجم وقول مترجميه عن مصنفاته : إنها يغلب عليها الحكايات والأشعار .

وعليه لا أجدُ بي حاجةً أن أطيل في موضوع نسبة الكتاب إليه ؛ لأنها ـ كما قلتُ ـ ثابتةٌ لا ينازِعُه فيها أحدٌ .

منهجُهُ:

الكتاب ـ كما هو بيِّنٌ لكلِّ ناظرٍ فيه ـ كتابُ أخبارٍ رُويت عن أعلامٍ في ثقافتنا العربية أغلبُهم من أهلِ الحديث الشريف كانوا يستثقلون تلاميذهم مرّة ، وزملاءهم مرّةً ثانية ، ونفراً من الناس سواهما مرّة ثالثة ، ولكنه لايتعرّضُ إلى أخبار هؤلاء الثقلاء ، ونوادرهم في الثقل . وكأنَّ ما عقده ابنُ قتيبة المتوفَّى : ٢٧٦هـ على أخبارهم في كتابه « عيون الأخبار » قد أصبح منهجاً يتبَّعه ابنُ المرزبان ، ومن جاء بعدَه ، كابن عبد ربِّه في « العقد الفريد » ، والقرطبي في « بهجة المجالس » ، والبيهقي في « المحاسن والمساوي» » ، والزمخشري في « ربيع الأبرار » وسواهم ، ولعلَّ روح التقليد وحدها هي المسؤول عن هذا المنهج .

وملحظٌ آخر هو أن طائفةً من اخبار الكتاب لاتكادُ تدخل في بابة الثقلاء ، ويمكنني أن أسوق على ذلك جملة أمثلةٍ منها ما صدَّر به ابنُ المرزبان كتابَه من كتاب ابن أبي الدنيا إلى الخليفة المعتضد يذكِّره بحقِّه عليه وهو يؤدِّبُ ابنَهُ عليَ



المكتفي ؛ إذ لم أر فيه شيئاً يمكن أن ينسب إلى الثقل . ومنها مارواه من خبر جرير بن عطية الخَطَفَى يستعير راحلةً من الفرزدق يحجُّ عليها ، ومنها الخبران اللذان رواهما عن الحجاج بن يوسف الثقفي ، وخبرُ هريرة صاحبة الأعشى بعد أن أسنَّت ، وخبر الرجل الذي ليم على أن سمى ابنَه محمداً .

فهذه الأخبار جميعاً من أنباء التباغض بين الناس ؛ بسبب اختلاف المنازع السياسية كما هي الحال في بغض الحجّاجِ بنِ يوسف الخوارجَ ، وبسبب المنافرة في الشعر كما هو حال جرير والفرزدق ، وبأسباب أخرى قد تكون أسباباً شخصيةً بحتةً كما في علاقة أبي هاشم بن محمد بن الحنفية بإبراهيم بن محمد بن طلحة ، وعلاقة ابن أبي الدنيا بتلميذه عليّ المكتفي ، وبداعٍ من الأمر بالمعروف كما في خبر من أنكر على صاحبه الفاسق أن يسمي ابنَه : محمداً . أما خبر هريرة فلا يكاد يجدُ له طريقاً يدخلُ منه إلى مثل هذا الكتاب .

أقول هذا لأننا نفترض أن يُبغَضَ الثقيلُ ـ أو يُشفقَ عليه من نفسه ـ بداعٍ من ثقل ظلِّه ، ووخامة شخصه ، وتتايهِه بنفسِه جهلاً بمقدارها ؛ بل لعلّك تُبغِضُ الثقيل وأنت لا تعرِفُهُ ، وتهربُ منه مخافة أن يقصدَك وأنت عنه بمعزل ، فإذا سئلت عما يدعوك إلى ذلك لم تجد ما تُقنع به من سألكَ فأنكر عليك إلاّ أنك لا تُطيقه ، ولا تحتملُ رؤيته ، تقول هذا وأنت تعلم أنه إنْ حاجَّكَ قطعَك ، وإن خاصَمَك غَلَبَك . وهذا هو الذي يحفزني أن ألاحظَ على بعضِ أخباره ما لاحظتُ .

وشيء آخرُ في الكتاب ـ وهو شيء قليلٌ ـ لم أشأ السكوت عنه ، هو ما بدا لي في بعض رواياته من غرابةٍ تخالفُ ما درجتْ عليه أخبارُ سواه ، من ذلك ما رواه عن استثقال الإمامِ عليٍّ صاحبَه ، وصفيَّه مالكَ الأشتر .

لا أقول ما قلتُ أتنقَّصُ من قدر الكتاب ، وإنما هي خطراتٌ عرضت لي ـ وأنا منشغلٌ بتحقيقه ـ رأيتُ أن أعرضها على القارئ يرى فيها رأيه . أمّا ما سوى هذا فحسبي أنّي قلتُ .



بَرِيَّةُ بن أبي اليُسر الرّياضيّ

وكتابه: «تلقيحُ العقول»

لم يذكر مصدرٌ من المصادر المطبوعة صاحبَنا بريَّة هذا ، ولم يترجمْ له أحدٌ ، ولم يقف عنده أو عند كتابه مرجعٌ من المراجع التي أُلِّفت في الأدب المغربي ؛ فكلُّ مانعرفه عنه أنَّه ابنُ إبراهيم بن محمد الشيباني ، المعروف بأبي اليُسر الرِّياضيِّ .

وحياةُ أبي اليسر هذا نفسُها ـ كما ترسمها المصادر ـ أقربُ إلى الغموضِ منها إلى شيءٍ آخر ، فكلُّ مالدينا منها ما ذكره ابنُ الأبّار[1] ، فنقله عنه المقّريُّ نقلاً يكادُ يكون بألفاظه[2] .

وهذا الذي ذكره ابنُ الأبّارِ هو أقربُ إلى الاضطراب منه إلى شيء آخر ، ومن آيات هذا الاضطراب أن يقولَ ابنُ الأبّار عنه : إنَّه «لقي من الشعراء إبا تمام والبحتريَّ ، ودعبلاً وابنَ الجهم» ويقولَ بعد ثلاثة عشر سطراً معدودة عداً : إنّه «تُوفِّيَ بالقيروان سنة ثمانٍ وتسعين ومائتين... وهو ابنُ خمسٍ وسبعين سنة» وكأنَّ ابنَ الأبّار يَذهلُ عن أن يحسُبَ عمر أبي اليسر يوم التقى أباتمام ؛ فإذا كان قد توفي ٢٩٨هـ وله من العمرخمسُ وسبعون سنة ، فإنَّ ذلك

(١) ينظر التكملة : ١٧٣ .

(٢) ينظر نفح الطيب ٢ : ١٢٤-١٢٥ .



يعني أنه ولد سنة ٢٢٢هـ ، وأنه كان يبلغُ من العمر الثامنة يوم توفّي أبو تمام ، فكيف تهيّأ له أن يلتقيه وأن يروي ديوانَه عنه بحيث يحمِّل ابنُ الأبار هذه الرواية عنه ، فيقول : إنه يروي ديوان أبي تمام «عن ابن زرقون ، عن الخولاني ، عن أبي القاسم حاتم بن محمد ، عن أبي غالب تمام بن غالب بن عمر اللغويِّ ، عن أبي سعيد عثمان بن سعيد الصيقل ، عن أبي اليسر ، عن أبي تمام» ؟

أسُوق كلَّ هذا أريد أن أقول : إنه لايكادُ يصحُّ عندي مما ورد في ترجمة أبيه إلاّ أنّه من أهل بغداد ، هاجر منها في سنة لانعرفها فاستقرّت به الحالُ في إفريقية (تونس اليوم) كاتباً لأميرها إبراهيم بن أحمد بن الأغلب ، ثم لابنه أبي العبّاس عبد الله ، ثم صاحبَ بيتِ الحكمة لزيادة الله بن عبد الله آخر ملوك الأغالبة .

ويغلبُ على الظنِّ أنَّ أبا اليسرِ كان شيعيَّ المذهب ، وأنّه نجح في أن يُخفي تشيُّعَه عن مخدوميه الأغالبة ؛ فقد رأيناه يرافق الداعيَ الفاطميَّ عند توجُّهِهِ إلى سجلماسة ، ثم يُرافقُهُ وهو يتوجَّه إلى تاهرت يقضي على دولة الرُستُميِّين فيها : دولةِ الخوارجِ الإباضيِّين ، وكنّا رأيناه أيضاً يكتب لعبدِ الله الشيعيِّ في رقّادة أيضاً[1] .

ولابدَّ أن يكون ابنُه برِيَّة قد وَرِثَ عنه هذا التشيُّعَ لآل بيتِ النبوّة .

لا نعرف متى وُلِد برِيَّةُ ، ولكنّنا نستطيعُ أن نُخمِّنَ أنّه قد بلغ العشرين من عمره ، قبل وفاة أبيه ، فقد رأيناه يروي عنه في كتابه هذا شيئاً من شعرِه ، ورأيناه يلازمه في مرضه ، فينقل أحاديثه وأحاديث عُوّادِه . فإذا صحَّ هذا ولاشيء يمنعُ من صحّتِه ، كان معنى ذلك أنه وُلِد في العقد الثامن من القرن

---

(١) ينظر البيان المغرب ١ : ٢٠٩ . واسمه فيه : عبيد الله ، على عادة المصادر السُنية في تحقيره .



الثالث ، أمّا مكان هذا الميلاد فيغلب على الظنّ أنّه كان بالقيروان ، فقد رأينا أن أباه كان من أهلها ، فإنْ لم يكن ابنُه بريّة قد ولد بها فلاشكَّ أنّه قد نشأ بها وأنها قد شهدت طفولتَه .

ولم يكن أبو اليسر ـ كما رأينا ـ من عامّة الناس ، وإنّما كان «أديباً شاعراً مرسِّلاً حسنَ التأليف» له من الكتب : «لقيط المرجان» قيل عنه : إنه أكبر من «عيون الأخبار» لابن قتيبة ، وكتابُ : «سراج الهدى» في القرآنِ ومشكلِه وإعرابِه ومعانيه ، و«المرصعة» و«المدبجة» و«قطب الأدب» وسوى ذلك من الكتب . حتى قيل : «إنَّه هو الذي أدخل [إلى] إفريقية رسائل المحدثين ، وأشعارهم ، وطرائفهم» وإنَّه «كان عالماً»[1] . وأبٌ مثل هذا لابدَّ أن يكون عُني بتأديب ابنِه ، وبتلقينه مبادىء العلومِ ، مما يبيح لنا أن نتخيّلَ أنَّ صاحبنا أخذ أوّل ما أخذ عن أبيه .

على أنّنا لانعرف ـ بعد هذا ـ أحداً من أساتذته في القيروان ، ولم يدلّنا هو في كتابه على أحدٍ منهم .

ويبدو أنّه شدَّ الرِّحالَ ـ ولعلَّ ذلك كان بعد وفاة أبيه ـ إلى العراق موطنِ أبيه وموطنِ أهل العلم يطلبُ فيه العلمَ ، وكان ذلك قبل سنة ٣٠٠هـ[2] ، وإنّما نصصتُ على هذه السنة ؛ لأنّني رأيتُه يروي في موضعين من كتابه عن أبي أحمد المنجِّم المتوَفَّى ـ كما هو معروفٌ ـ في تلك السنة .

وقد كان طريقُه إليه يمرُّ بمصر ، وقد توقَّف فيها ـ على ما يبدو ـ ولقي

(١) نفساهما ، ولاأكادُ أشكُّ في صحة ماذهب إليه أستاذي المغفور له العلاّمة علي جواد الطاهر في كتابه «كتب محققة وفوائد» ١٢٢-١٢٩ من أنه هو كاتب الرسالة العذراء ، فقد ورد على نسخها المخطوطة أنها مما كتب به إبراهيم بن محمد الشيباني لابن المدبّر ، وكذلك قال ابنُ عبد ربّه في نقله عنها . ينظر العقدُ الفريد ٤ ، ١٥٩ ؛ ١٧١-١٧٢وفي صفحات أخرى .

(٢) لا عبرة بما أوحى به بريّةُ في مقدّمة كتابه من أنّه زار العراق أثناء خلافة المنصور الفاطمي (٣٣٤ ـ ٣٤١هـ) ؛ لأن معظم شيوخه المذكورين في الكتاب تُوفُّوا قبل خلافته ، فلعله لم يُحسن التعبير عن تأريخ سفره .



فيها جملةً من أدبائها ، فروى عنهم في كتابه هذا ، من مثل : سيبويه المصري ، وأبي سهل الحاسب ؛ فقد قال : « حدثنا أبو سهل الحاسب ، ونحن معه في بعض حوانيت الفسطاط ، فقال... »[1] ، ولكنَّ قلّة شيوخه فيها لاتدلُّنا على أنه أطال الإقامة فيها ؛ فلم تكن مصر يومذاك من الحواضر التي تُقصد لطلب العلمِ .

وتوجَّه صاحبنا إلى العراق ، فأقام في بغداد وفي البصرة ، فأخذ فيهما عن :

- أبي أحمد المنجِّم المتوفى : ٣٠٠هـ .
- وأبي محمد الأبحريِّ (ولم أعرف من هو) ، وهو يروي عن أبي العيناء .
- وأبي الطيِّب الكاتب (ولم أعرف من هو أيضاً) .
- وابنِ الوزير ، وكان من رواة شعر ابن الروميِّ ، وقد وصفه أبو العيناء بأنه « كبشُ الزنادقة »[2] .
- وأبي الحسن الأهوازي (ولم أعرفه) .
- وأبي بكر بن الأنباريِّ المتوفى ٣٢٨هـ .
- وأبي سهل الأهوازيِّ (ولم أعرفه) .
- وأبي أحمد بن إسماعيل العلويّ ، وهو من رواة شعر علي بن محمد الحِمّاني العلويّ المتوفى سنة ٣٠١هـ على وجه التقريب (ولا أعرف عنه أكثر من ذلك) .
- وأحمد بن سُليمان السَرِيّ ، وهو من رواة شعر الحماني أيضاً (ولا أعرف عنه أكثر من ذلك) .

---

(١) تلقيح العقول : ٤٠ و .

(٢) زهر الآداب : ٦٥٧ .



ـ وأبي الباسانيّ ، وهو من رواة شعر الحمّانيّ أيضاً ، وشعرِأحمد بن أبي طاهر المتوفى سنة ؛ ٢٨٠هـ (ولا أعرف عنه أكثر من ذلك) .

ـ والناقد الشاعر (ولم أعرفه) .

ـ وأبي عبد الله الكرمانيّ الورّاق المتوفى سنة : ٣٢٩هـ ، تلميذ ثعلب ، وقد التقى به في البصرة .

ـ وابنِ سعيد الكاتب (ولم أعرفه) .

ـ وأبي إبراهيم الأبجدي (ولم أعرفه) .

وكما أخذ من أفواه الرواة والعلماء عكف على ما وقع بيده من مؤلّفات العلماء يفيد مما بها ، فمن المؤلفات التي اطّلع عليها وهو في العراق :

ـ أخبار بني المهلّب .

ـ وأخبار أبي العتاهية .

ـ والبيان والتبيين للجاحظ .

ـ وبعض كتب أبي بكر الصوليّ ، ولم يُسمِّه .

ـ وكليلة ودمنة ، وقد نقل منه نصوصاً لم أجد بعضَها في مطبوعته اليوم .

ـ وكتاب الآداب لابن المعتز ، وقد نقل منه نصوصاً لم أعثر على بعضها في مطبوعتِه .

ويمكن أن تدلّنا هذه الكتب التي ذكرها على ميله إلى الأدب الرطبِ الذي لا تُكلّفُه قراءتُه مشقّةً ، ولاعنَتاً على أنّ ذكره إيّاها لا يعني أنّه اقتصر عليها ، وإن كنّا لانعلم على وجه اليقين ما أضافه إليها في قراءاتِه .

ويبدو أنّ إقامتَه في بغداد قد امتدّت إلى أيامِ الخليفة الراضي الذي تولّى الخلافة من سنة ٣٢٢هـ حتى سنة ٣٢٩ ؛ فقدرَوَى حديثَ أبي عبد الله الكرمانيّ



عن أبي بكرٍ الصوليّ أنّه قال : « كنّا بين يدي الراضي ـ وأنا أذكرُ فضائل المكتفي ـ فلم يعجبْهُ ذلك... » .

وأكاد أظنُّ أنّه عاد إلى موطنِه قبل سنة ٣٢٩ ، يدفعني إلى هذا الظنّ أنّه توقّف في رواية ما تمثّل به خلفاءُ بني العباس عند الخليفة المكتفي الذي كانت سنة ٢٩٥هـ آخر سنة من سنوات خلافته ؛ ولعلّه أهمل ذكرَ الخليفتين : المقتدر والقاهر ؛ لهوان شأنهما عنده وعند الناس ، فقد كانت شغب أمُّ المقتدر هي الخليفة الحقيقي في عهد ابنها : المقتدر ، وكان القاهر على ذوقِ الخمر أقدرَ منه على ذوقِ مرارة الخلافة وحلاوتِها . فإذا استقام تصوُّرنا سبب إهماله أخبار ذينك الخليفتين قلنا : إنّه غادر بغداد ، والراضي مايزالُ خليفةً ، لم تجرؤ الألسنُ بعدُ على لوكِ سيرتِهِ ، والخاصّ من أخباره ، ممايتيحُ له تدوينَ شيء منهما ، كما فعل في أخبار سواه من آبائه .

وعاد إلى موطنِه ـ كما أُرجِّحُ ـ أثناء خلافة القائم الفاطميّ (٣٢٢ ـ ٣٣٤هـ) ، ولكننا لا نعرف ما إذا كان اتّصلَ به أم لا ؟على أنّنا نعرفُ أنّه اتّصل بابنه الخليفةِ المنصور (٣٣٤ ـ ٣٤١هـ) وأهداه كتابَه : «الأمثال السائرة والأبيات النادرة» فقد تحدّث هو عن هذا الإهداء في مقدّمة كتابه الذي أُقدِّمُ له . ولا يبعد أن يكون المنصورُ قد نظرإليه بعين الرعاية ؛ فمن المعقول أن يكون قد حَفِظ له حُرمةَ أبيه الذي رافق الداعي إلى سجلماسة ـ كما رأينا ـ ثم رافقه وهو يقضي على حاضرةِ دولة الرُستُميِّين في تاهرت ، والذي استكتبه عبدُ الله الشيعيُّ في رقّادة .

وإذ تُوفِّيَ المنصورُ ، وتولّى ابنُه المعزُّ الخلافة سنة ٣٤١هـ اتّصلَ به ، فألّف له كتابه هذا : «تلقيح العقول» . ويبدو أنّه أهداه الكتابَ ، والمعزُّ في صبرة القيروان لم يُغادر بعد إلى مصر في سنة ٣٥٨هـ ، ولم يبتنِ القاهرةَ المعزِّيّة ، يدلُّنا على ذلك حديثُه عن المعزّ في مقدّمة الكتاب ، ووصفُه إيّاه بالحداثة في



قولِه عنه : «الواسع الحِلم الذي لم تستهزّه فيه الحداثة...» إذ كان عمر المعز[1] يوم وليَ الخلافةَ ـ في إفريقية ـ لا يتجاوزُ الرابعةَ والعشرين ، على حين قد تجاوز الأربعين يوم نقل ملكَه إلى مصر .

والكتابُ حصيلةُ ثقافته العراقية ؛ فقد قال عنه : «فلما سافر عبدُ أميرِ المؤمنين إلى العراق ، ورأى أدباءه ، وكُتّابَه لا يتكلّمون في معنًى من المعاني حتى يُقدِّموا قبل كلامهم مثلاً مشهوراً ، وبيتاً مذكوراً ينبيء عما يريد[ون] الكلامَ فيه ، واستحسن ذلك منهم جعلَ كلّما سمعَ مثلاً سائراً ، وبيتاً نادراً ، كتبه ووعاه ؛ ليكون له ذخيرةً إلى تأليف كتابٍ جامعٍ فيه . وكانت نفسُه تُنازعه إلى ذلك في الغربة ؛ فحال بينه وبين ذلك تقسُّمُ قلبِه في البلدانِ ، واشتغالُه بالترؤحِ إلى الأوطان» .

«فلما استقرَّ بعبد أمير المؤمنين القرارُ ، وقعد عن الأسفار ، واستوطنت به الدار ، استنهضَ نفسَه إلى تأليفه ، فوجدَ فيها قوّةً تنهضُه إلى ذلك...»[2] .

وأدركتْ صاحبَنا الشيخوخةُ ، والمعزُّ في المغرب ؛ فقد رأيناه يشكو من آثارِها في كتابِه بقوله : «كنتُ أسمعُ بكاءَ من بكى على الشبابِ ، ونوحَ من ناحَ عليه فأتوهَّمُ أنَّ ذاك للخلاعةِ والمُجانةِ ، حتى ابتُليتُ بفقدِهِ فوقفتُ على أخبارِ القومِ...»[3] .

ويبدو أنَّه توفِّي في هذه المرحلة من عمرِه في سنةٍ لا نعرفها ولا تعرفها مصادرُ الأدب[4] .

---

(١) ولد المعزُّ ، معدُّ بنُ إسماعيل المنصور يوم الإثنين الحادي عشر من رمضان سنة ٣١٧ . ينظر السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية في بلاد المغرب الإسلامي ١٠٣ .

(٢) تلقيح العقول : ٢ ظ .

(٣) السابق ٤٤ ظ .

(٤) جعل كارل بروكلمان في تأريخ الأدب العربي ٢ : ١٧٧ وفاته سنة ٣٤١هـ ، ولا أعرف مصدره في ذلك .



نسبةُ الكتاب:

قلتُ إنَّه لم يذكر أحدٌ صاحبَنا بريَّة ، فأحرى أن نتصوَّر أنَّه لم يذكر أحدٌ كتابَه أيضاً ؛ ولكنَّ هذا التصوّر ليس في محلِّه تماماً ؛ فقد انفردَ ابنُ ظافر الأزديُّ بنقولٍ عن كتابنا هذا في كتابه : «بدائع البدائه» نصَّ فيها أنَّه ينقلُ - كما قلتُ - عن هذا الكتاب[1] . على أنَّ هذا النقل أثار لنا مشكلتين ، أوّلُهما :

أنَّ اسم بَريّة قد وردَ فيه مُصحَّفاً على يزيد ، ولا أعرف إنْ كان التصحيف قد لحق اسمَ صاحبنا من قلم المؤلِّفِ : ابن ظافر الأزدي ، أم من قلمِ المحقِّقِ : محمد أبو الفضل إبراهيم ، رغم أنَّني أميلُ إلى الاحتمال الثاني ؛ لأنَّ معنى وروده على يزيد عند ابن ظافر الأزدي أنْ نعيد النظر في صحة ماورد على وجه الورقة الأولى من المخطوط على أنَّه اسمُهُ ؛ إذ ورد فيه اسمه : بريَّة . ولابدَّ أنَّ تقارب الرسمين هو الذي جعله يتصحَّفُ على : يزيد ؛ لأنَّ من المستبعد جداً أن يُسمي رجلٌ شيعيٌّ مثلُ أبي اليسرِ ولداً من أولادِهِ باسمِ صار عَلماًعلى قاتل الحُسين بن عليَّ سبط رسول اللهِ وريحانته عليه صلواتُ الله وسلامُهُ أعني : يزيد بن معاوية لايكادُ يتعدّاهُ إلى غيره ؛ على أنه من المهم أن أقول إنَّ حاجّي خليفة[2] وقد ذكرَ الكتاب ، لم يذكر اسمَ مؤلِّفه .

أما المشكلة الثانية فهي ذِكرُه الكتابَ على أنَّه في الأمثال ، وكذلك فعل حاجّي خليفة ، ويبدو لي أنَّ مقدِّمة المؤلِّف هي التي أوحتْ إليهما بذلك . أقول هذا لأنَّني لم أر شيئاً من الأمثال التي نعرفها على أنَّها من أمثال العراقيين[3] في هذا الكتاب ، وإنَّما الذي ورد فيه هو أقربُ إلى الحكمة ، والموعظةِ ، والحثِّ على مكارم الأخلاق ، منه إلى الأمثال .

---

(١) ينظر - على سبيل المثال - بدائع البدائه : ١١٠-١١١ ؛ ٢٢٢ ؛ ٢٤٥ ؛ ٢٤٦ .

(٢) ينظر كشف الظنون ٢ : ٤١٧ .

(٣) جمع أبو بكر الخوارزمي هذه الأمثال في كتابه : «الأمثال» الذي صدر في الجزائر بتحقيقنا . ولم نر فيه من الأمثال ما يلتقي بما ورد في هذا الكتاب .



أمّا حاجي خليفة فإنَّ اهتمامه بتقسيمٍ تندرج تحته أسماءُ الكتب هو الذي جعله ـ زيادةً على السبب الذي ذكرناه ـ يُدرجه تحت كتب الأمثال ؛ فليس هنالك بابٌ أليق به من باب كتب الأمثال .

وذكرَ الكتابَ له من المعاصرين المستشرقان الألمانيان كارل بروكلمان[1] ورودلف زلهايم[2] ، ولم يطَّلع زلهايم على الكتاب ؛ فأثبت عنوانه : «تلقيح العقول في الأمثال والحكم» . ولم تردْ عبارة «في الأمثال والحكم» في عنوان الكتاب ، وإنّما نقلها عن آخر .

وإذاً فكتاب «تلقيح العقول» هو لبريَّة بن أبي اليُسر الرياضيِّ غير مدفوع .

أهميّة الكتاب:

يغلب على الظنِّ أنَّ هذا الكتاب هو أوّلُ كتابٍ في الأدب يصلُ إلينا من الحقبة الفاطمية المغربية ؛ فلم أعثر على من ذكر كتاباً في الأدب أسبق منه فقال : إنّه وصل إلينا . ومن هنا فالكتاب يمكن أن يكون نموذجاً مبكّراً للتأليف الأدبيِّ في المغرب العربي .

وليس من قبيل المصادفة أن يكون في الأدب الأندلسيِّ كتابٌ مثل «العقد الفريد» يكاد ينعقد برمَّتِه على الأدب في المشرق العربي ، وأن يكون في الأدب المغربي هذا الكتاب ؛ فقد كان الأدبُ المشرقيُّ قِبلةَ الأدبين في مرحلةٍ من مراحلهما .

وإذا كان العقد الفريد قد تناول الأدب العربي في المشرق حيثما كان من

---

(١) ينظر تأريخ الأدب العربي ٢ : ٢٧٧ .

(٢) ينظر الأمثال العربية القديمة : ٢٨٢ .



أرض الأدب الواسعة ؛ فإنَّ هذا الكتاب قد وقف عند العراق لم يَتَعدَّهُ إلى سواه إلاّ قليلاً .

وإذا كان ابنُ عبد ربِّه قد احتفلَ بإيراد شعره في ثنايا «العقد الفريد» فإنَّ بريَّة قد احتفل أيضاً بإيراد كثيرٍ من شعره في كتابه ، وإيراد قليلٍ من شعر أبيه ؛ مما جعله متفرِّداً برواية شعر أبي اليُسر ، إذ لم يوردْ مصدرٌ من المصادر التي ترجمت لأبي اليسر ـ مما نعرف ـ شيئاً من شعره رغم إجماعها على أنَّه كان شاعراً .

وزاد الكتابُ على ذلك فتفرَّد برواية شيء يسيرٍ من شعر بكر بن حماد التاهرتي ، ونَسَبَ إليه ماتداولته مصادرُ الأدب على أنَّه لسواه ، وروى أشياء يسيرةً لشعراء مغاربةٍ لانعرف عنهم شيئاً مثل : ابن أخت أبي العتاهية ، ورحمون الفارسي .

وروى من الأدب في العراق ومصر مالم أعثر عليه في مصدر سواه ؛ فقد روى من شعر الجاحظ ـ وأنا أمثِّل ولاأستقصي ـ ما ليس في مصدر من المصادر التي نعرف ، وكذلك فعل وهو يروي من شعر أحمد بن أبي طاهر ، ومحمد بن حازم الباهليِّ ، وروى للناقد الشاعرشيئاً من شعره ، ولم نكن نعرف الناقد الشاعر فضلاً عن أن نعرف شعره ، وقدَّم لنا أديبين لم نجد لهما ذكراً في مصادر الأدب هما : أبو الطيب الكاتب ، وأبو سهلٍ الحاسب وروى عن آخرين مجهولين سوى هؤلاء مما هو واضحٌ في حواشي التحقيق .

ولعلَّ من وجوه طرافة هذا الكتاب أنَّه تحدَّث لنا عن جوانب إنسانيَّةٍ تدلُّ على خبرةٍ عميقة بالحياة لم نكن تعرَّفنا عليها لدى نفرٍ من علمائنا الأوائل ، مثل الخليل بن أحمد الفراهيديِّ ، وابن الأعرابيِّ ، وابن الأنباريِّ ، وأبي عمرو بن العلاء . أما ابنُ الأنباريِّ فقد بدا في هذا الكتاب أقرب إلى الحكيم منه إلى النحويِّ اللغويِّ الذي نعرف .



على أنَّ أهمَّ مايلفتُ النظر ـ من وجهة نظري ـ في هذا الكتاب هو صورة الخلفاء الفاطميين في الحقبة المغربية من خلافتهم ، فقد دأب الدارسون على دمج مرحلتيْ خلافتهم المغربية والمصرية ، والحديث عنهم ـ في المرحلتين معاً ـ على أنهم إنْ لم يكونوا آلهةً في عيون أنفسهم وعيون أتباعهم فأنصافُ آلهةٍ ، حتى يُخيَّلُ لمن يصغي إلى أحكام هؤلاء الدارسين أنَّ أولئك الخلفاء قد مرقوا عن الإسلام مروق السهم من قوسه ، وحسبك من هذا أن تجد من يزعم : أنَّ «الإمام عند الإسماعيلية هو الواحدُ الأحدُ الفردُ الصمدُ المنتقِمُ الجبّارُ»[1] فراح يُعلِّلُ سخفَ مطلعِ قصيدة ابنِ هانيء الأندلسيِّ يمدحُ المُعزَّ الفاطمي القائل :

ما شئتَ لا ما شاءت الأقدارُ ... فاحكمْ فأنتَ الواحدُ القهّارُ

بأنّه من عقائد الفاطميّين في أنفسِهم . ولا أعرف لماذا لم يعلّل الباحثون قياساً على استنتاجهم عقائد الفاطميين من شعر ابن هانيء قولَ يزيد بنِ مفرِّغ الحميري في خالد بن... أسيد بن أبي العيص بن أميّة بن عبد شمس ، وسعيد بن عثمان بن عفّان :

والبهاليلُ خالدٌ وسعيدٌ ... شمسُ دَجنٍ ، ووُضَّحٌ كالهلالِ
في الأرومات والذُّرا من بني العِيصِ ، ... قرومٌ إذا تُعدُّ المعالي
كنتُ منهمْ ماحرَّموا فحرامٌ ... لم يُراموا ، وحِلُّهم من حلالي[2]

أقول : لا أعرفُ لماذا لم يعلِّلوا قولَ ابن مفرّغ بأنَّ التحريم والتحليل في أبياته من عقائد وُلاةِ الأمويين في أنفسهم بأنهم أنبياء مرسلون ، يحلِّلون ويحرِّمون ؟ولكن ذلك ليس بصحيحٍ في الحالين ؛ لأنَّ تلك أساليب الشعراء ، وذلك هو مادَرج عليه الشعر العربي .

ويهمني الآن أن أقول : إنّنا لا نجدُ ظلاً لاعتقاد الفاطميين المزعوم في

---

(١) ينظر الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج ٢/ ١٠٧ للأستاذ محمد الطمار .

(٢) ديوانه : ١٩١-١٩٢ .



أنفسهم بأنّهم آلهةٌ أوأنصافُ آلهةٍ في حقبة خلافتهم المغربية كما يدلُّنا عليه هذا الكتاب ، فقد رأينا المعزَّ الفاطميَّ في مقدّمة الكتاب لايزيد عن كونه أمير المؤمنين يُدعى له كما يُدعى لأيِّ خليفةٍ آخرَ سواء أكان عادلاً أم جائراً ، ويُسبغُ عليه من الصفات مايُسبغ على نظرائه سواء أكانوا من أهل السنَّة أم من الخوارج ؛ فهو «معزّ الدين أمير المؤمنين ، الإمام من الأئمة المهديين ، والخلفاء الراشدين ، مولانا أطال اللهُ بقاءه ، فجعله أحمد رحمةٍ للعالمين ، وبركةً في الغابرين ، يهدي به من الظلماتِ ، ويستنقذ به من الهلكات...»[1] ولم يُدعَ لأبيه المنصور بأكثر من «قدّس الله روحَه ، ونوّر ضريحَه»[2] كما يُدعى لأيِّ إمامٍ من أئمّة الجمعة . فأين هي الألوهيّة ؟

هذه واحدةٌ ، فأما الثانية فهي أنّني لم أرَ في طول الكتاب وعرضه شيئاً من التجريح بصحابة رسول الله عليه صلواتُ الله وسلامُه ، وإنما رأيتُ الترضّي عنهم ، سواء أكانوا ممن اختلف مع الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أم ممن والاه ، وليس قليل الدلالة أن يفتتح كتابه وهو يُصلّي على «محمّد وعلى آله الأبرار ، وأصحابه الأخيار»[3] . ولم أرَ أيضاً شيئاً من التقديس يُضفى على شخصية الإمامِ أو على أبنائه من أئمة الشيعة ، فلم يزد لدى ذكرهم على الترضي عنهم .

ولا أريد أن أخوض في عقائد الفاطميّين بمقدار ماأريد أن أدعو المتخصّصين أن ينبذوا عقائدهم المذهبية الضيقة التي ورثوها عن الأميّات من العجائز ، وأن ينظروا إلى الحقائق العلمية كما وقعت[4] لا كما يتخيلُّها الهاجسُ

---

(١) تلقيح العقول : ١ ظ .

(٢) السابق ٢٠ ظ .

(٣) السابق ١٠ ظ .

(٤) من اللافت للنظر أن تسمي النقودُ الفاطميةُ عبيد الله المهدي بعبد الله ، وأن تصرَّ كتبُ التأريخ أن تسمّيَهُ عبيد الله تحقيراً لشأنه ، فيتابعها على ذلك الباحثون العلميون المعاصرون! ينظر بحث المسكوكات الفاطمية في مجلة معهد الآثار في جامعة الجزائر ، ١٩٩٢ .



الطائفيُ ، فيدرسوا أسباب تحوّل عقائدهم ـ وهم في مصر ـ عما كانت عليه وهم في المغرب .

وبمقدار ما يدعونا هذا الكتاب إلى إعادة النظر في عقائد الفاطميين ، يدعونا إلى إعادة النظر في موقفهم من الخلافة العباسية ؛ فقد بدت هذه العلاقة طبيعيَّةً إلى الحدّ الذي كان فيه «البابُ الخامسُ والخمسون بعد المائة فيما تمثَّل به الخلفاء من بني العباس» ، فلم يُذكر فيه مايمكن أن ينتقص من أقدارهم ، أو يسيء إلى ماانطبع في الأذهان من احترامهم ، أومايراد من ذكرِهِ أن يزحزحهم عن إمرة المؤمنين . فهل يكون كلُّ ذلك قد جاء مصادفةً ليست بذات معنى ؟!

وعلى أيَّة حالٍ ، تلك مسألةٌ لم أشأ أن أسكت عنها ؛ لأنني أريدُ أن يُنظر إلى تراثنا على أنّه إرثُ أمّةٍ لا إرثُ طائفةٍ واحدةٍ تنظرُ إليه على هواها ، وكأنّها وحدَها تمتلك الحقيقة التأريخية ، والدينية .

ومن أهميَّة الكتاب مايثيره من مشكلاتٍ اصطلاحيَّة . فمن هذه المشكلات استعمال المؤلف مصطلح «التمثُّل» ؛ فالذي نعرفه أنّ التمثّل يعني الاستشهاد بقولٍ آخرَ ، سواء أكان هذا القول مثلاً أم بيتَ شعرٍ أو ماهو بسبيلهما ، وبهذا المعنى كان الثعالبي قد ألّف كتابه : «التمثّل والمحاضرة»[1] ، ولكنّنا نجد المؤلِّف يستعمل هذا المصطلح للقول يتمثَّلُ به قائلُهُ ، وللبيت يتمثَّلُ به ناظمُه تارةً ، ويستعملُهُ كما استعمله الثعالبيُ وسواه تارةً أخرى ، أي أن يتمثل الرجلُ بقول سواه . ويمكنني أن أسوق على ذلك مثلاً

---

(١) هكذا ورد اسم الكتاب في نسخته المخطوطة المحفوظة بمكتبة جامعة ليدن . وهي نسخةٌ قديمةٌ مقروءةٌ جليلةٌ في ضبطها وقدمها . ولكنْ محقق الكتاب الدكتور عبد الفتّاح محمد الحلو لم يطّلع عليها . واكتفى في تحقيق الكتاب بالنسخ المحفوظة في مصر ـ وهي نسخٌ متأخّرة ناقصة ـ فأثبت عنوانه : «التمثيل والمحاضرة» مما دعاني أن أُكلِّف الأستاذة زهيّة سعدو بإعادة تحقيقه رسالة لنيل دكتوراه الدولة . وقد سجّلت هذه الرسالة بجامعة الجزائر .



بقولِهِ وهو يتحدث عن الخليفة العبّاسي المهدي : «ومما تمثَّل به [وقد] كتب إلى الخيزرانِ وهي بمكة :

نحنُ في أفضل السرورِ ، ولكنْ ... ليس إلاّ بكمْ يتمُّ السرورُ
عيبُ ما نحنُ فيهِ يا أهلَ ودِّي ... أنّكمْ غُيَّبٌ ونحن حضورُ
فأجِدُّوا المسيرَ ، بل إن قدرتُمْ ... بحياتي بأن تطيروا فطيروا

فأجابته... »[١] والأبيات ـ كما يدلُّ سياقها على ذلك ـ للخليفة المهديِّ نفسه . هذا إلى أنَّ القرطبيَّ قد نسبها إليه[٢] . وأسوق مثلاً آخرَ بقوله ـ وهو يتحدَّث عن الخليفة العباسيِّ المنصور ـ : «ومما تمثَّلَ به في موتِ عمرو بن عُبيد :

صلّى الإلهُ عليك من متوسِّدٍ ... قبر[اً] مررتُ به على مَرّانِ... »

فالأبياتُ قد أوردها ابنُ خلّكان على أنها من شعر المنصور نفسِهِ[٣] .

هذان مثلان سُقتُهما على ما يتمثَّلُ به المرءُ من شعره هو ، وأسوق الآنَ مثلاً على مايتمثَّلُ به من شعر غيره بقوله ـ وهو يتحدَّثُ عن المنصور نفسه ـ : «ومما تمثَّل به ، وهو على المنبر ، لمّا بلغه خروج محمّد بن عبد الله :

مالي أكفكفُ عن سعدٍ وتشتمني ... ولو شتمتُ بني سعدٍ لقد سكنوا
جهلاً علينا وجبناً عن عدوّهمُ ؟! ... لبئستْ الخَلّتانِ : الجهلُ والجُبْنُ... »[٤]

فالبيتان ـ كما هو معروفٌ ـ لقعنب بن ضمرة الغطفانيِّ المعروف بابن أمِّ صاحب[٥] . فكان من شأن هذا الاستعمال أن يخلق لي مشكلةً في صنع فهرس

---

(١) تلقيح العقول ، ٥١ ظ

(٢) بهجة المجالس ١ : ٨١٩ .

(٣) ينظر وفيات الأعيان ٣ : ٤٦١ . ونقلها عنه بهاء الدين العاملي في الكشكول ١ : ٢٢٤ .

(٤) تلقيح العقول ، ٥١ ظ .

(٥) تنظر نسبتها في حماسة أبي تمام : ٤٦١ . وحماسة البحتري : ٢٤٨ . واللسان ـ وزن . ومختارات شعراء العرب : ٣٠ . ولباب الآداب : ٤٠٣ . ومحاضرات الأدباء ١ : ٣٦٠ .



القوافي ؛ فلم أكن أدري حين لا أجِد البيتَ المُتمثَّل به في المصادر منسوباً كيف أنسبه ؟ومن هنا كنتُ أضعُ حين أُخمِّنُ أن البيت للمتمثَّل به وراء اسم القائل علامة استفهام بين قوسين معقوفتين .

ومشكلةٌ أخرى يثيرها الكتاب هي معنى الإنشاد ، فالمعروف أنَّ المُنشِدَ يُنشِدُ - في العادة - شعرَ غيرِه ، إلاّ إذا نُصَّ على أنّه أنشدَ لنفسِه ، ولكنَّنا نجدُ بريَّة لا يتقيَّدُ دائماً بهذا المعنى في الإنشاد ؛ فقد تراه يجمع المعنيين معاً في صفحةٍ واحدةٍ كمثل قوله : « ... وأنشدني أبو أحمد المنجِّم في هذا المعنى :

ويعرضُ لي حقٌّ ولا أستطيعُهُ ... ولا يقبلُ العافون أهلاً ومرحبا

وأنشدني [ابنُ] الوزير ببغداد ، قال : أنشدني ابنُ الروميِّ لنفسه :

أبا بكرٍ لك المجدُ المُعلَّى ... وخدُّ عدوِّك التربُ الذليلُ... »[1]

فلا تعرف إن كان ما أنشده أبو أحمد المنجم له أم رواه ؟أقول هذا ؛ لأنّني رأيتُه يقول : « وأنشدني أبو سهل الحاسب :

تقاضاك دهرُكَ ما أسلفا ... فكدَّر عيشَكَ بعد الصَّفا

فلا تُنكرنَّ ؛ فإنَّ الزمانَ ... جديرٌ بتشتيتِ ما ألَّفا »[2]

فوجدتُ أنَّ البيتين من شعر محمد بن أبي محمد اليزيدي[3] .

طبيعةُ الكتابِ ومنهجُه:

الكتاب الذي أتحدَّثُ عنه مما اصطلحت على تسميته المكتبة العربية بكتب المحاسن والأضدادوقد ألَّف في هذا الفنِّ نفرٌ من علمائنا ، ولعلَّ من أقدم هذه

---

(١) التلقيح : ١٥ و .

(٢) السابق : ٤٢ظ - ٤٣ و .

(٣) ينظر معجم الشعراء : ٣٥٥ ، وفيه زيادة بيت ثالث .



المؤلفات كتاب « المحاسن » الذي ألّفه أبو الحسن المدائني المتوَفّى ٢١٥هـ ، ذكر فيه « ما يُحتاجُ إليه من الآداب في معاشرة الملوك »[١] ، وكتاب « المحاسن والأضداد » المنسوب إلى الجاحظ ، وهو مطبوع ، وكتاب « الآداب » لابن المعتز ، وهو مطبوعٌ أيضاً ، وسواها كثيرٌ ، ليس من وكدي أن أستعرضها ، وإنَّما أردتُ أن أشير إلى أنَّ كتابنا لم يكن من الكتب الراندة في هذا الفنّ .

وقد ألّفَ بريَّةُ كتابَه في مائةٍ وسبعةٍ وخمسين باباً ، ولم يكن هذا العددُ الكثير من الأبواب دليلَ ثراءٍ بمقدار ما كان دليلاً على اضطراب منهجِ الكتابِ شيئاً ما ، ويمكننا أن نلمح هذا الاضطراب في تقسيم الأبواب ؛ فقد عقد الباب الرابع على « ... ما يُتمثَّلُ به فيمن استغنى بأدبِهِ عن حسبِهِ ونسبِهِ » ثمَّ عاد فعقد البابَ السادسَ على « ... ما يُتمثَّلُ به فيمن شرَّفَ حَسبَهُ أدبُهُ » ؛ مما يجعلك تتساءلُ عن الفرق الجوهريِّ بين البابين . ووقّفَ البابَ الثالثَ والعشرين على « ... ما يُتمثَّلُ به في الذي يُصغِّرُ معروفَه » ثمَّ تحدَّثَ في الباب الذي يليه مباشرةً عمَّن « أظهرَ معروفَه ولا يُظهِرُ قولَه » فبدا البابان وكأنَّهما شيءٌ واحدٌ . وأناط البابَ الرابع والثلاثين بما « يُتمثَّلُ به في حسن المحضر » ثمَّ أردفَه بالحديث في الباب الذي بعده عما « يُتمثَّلُ به في حسن الثناء والمحضر » . وهكذا فعل في أبوابٍ عديدةٍ أتركها للقارئ الكريم يكتشفها بنفسه .

وبفعل هذا التكرار جاءت طائفةٌ من الأبواب قصيرةً في محتواها ، فلم يتعدَّ البابُ الرابعُ والخمسون بيتين من الشعر ، وثلاثة أسطرٍ ، ولم يتجاوز الباب السادس والخمسون بيتاً واحداً وأربعة أسطرٍ ، وقل مثل ذلك في الباب السابع والخمسين ، والثامن والخمسين ، والثالث والستين ، وأبوابٍ أخرى لا أريد أن أُحصيَها ؛ لأنَّني أُمثِّلُ ولا أستقصي .

وبعدُ ، فحسبُ هذا الكتاب أن يكون قد أثار كلَّ تلك المشاكل التي تحدَّثتُ عنها ، ولا أزيد .

---

(١) الفهرست : ١٦٧ .



مُلحق

(المُستَثنى بإلاّ)؛

الطاهر أحمد مكي سارقاً


مكتبة
الفكر
الجديد

المُستَثنى بإلاّ

الطاهر احمد مكي سارقاً

لم يسبق لي أن قرأتُ شيئاً للدكتور مكي سوى ترجمتِه ملحمة «السيد» لا لشيء إلاّ لأنَّ كتبَه الأخرى لم تكن من صميم اهتماماتي ؛ فما أنا من المعنيّين بامريءِ القيس ـ وللدكتور مكّي : «امرؤ القيس أمير شعراء الجاهليّة» ـ ولا أنا من المعنيّين أيضاً بالأدب المقارن ؛ وللدكتور كتابان فيه أحدهما : «الأدب المقارن ، أصوله وتطوّره ومناهجه» وثانيهما : «في الأدب المقارن ، دراسات نظرية وتطبيقيّة» . ولكن عدم قراءتي كتبَه لا يعني أنني لا أعرف له علوّ كعبِه في الأدب ، ورسوخَ قدمِه في دراستِه ؛ فهو علَمٌ من أعلام أدباء مصر المعاصرين .

وإذاً فأنا لم أقرأ له إلاّ ملحمة «السِّيد» ، ولم أحفظ له من خلال هذه القراءة إلاّ الإعجابَ ، والإعجابَ وحدَه ، بدقّتِه مرّةً ، وبصبرِه مرّةً أخرى ، وبعلمِه قبل هذه وتلك .

وكُلِّفتُ ذات يومٍ أن أكتبَ عن أبي الفرج الأصبهانيّ وعن كتابِه العظيم : «الأغاني» ؛ فطفقتُ أسأل المصادرَ عمّا تعرفُه من حياتِه ، والمراجعَ عمّا تراه في شأن كتابِه ، فكان من لُطفِ الزميل الصديق الدكتور أبي العِيد دُودُو أن دلَّني على كتاب الدكتور طاهر أحمد مكّي : «دراسات في مصادر الأدب ، الجزء



الأول ، الطبعة الأولى ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٨ » وعلى فصلٍ لم يُسمِّه مؤلِّفُه فصلاً عنوانُه : « الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني » . ولم يكتفِ كرمُه الجمُّ ولطفُه المعهودُ بما دلَّني عليه ، وإنَّما أعارني الكتابَ أنظرُ فيه عسى أن أنتفع منه بشيء .

ولم ينفعني الكتابُ بشيء إلاّ أنه هدمَ صورةَ الدكتور طاهر أحمد مكّي في ذهني ، وذلك نفعٌ لم أكن أريد أن أصل إليهِ ، ولم يكن الدكتور دودو يريدُ - عافاه اللهُ - أن يصلَ إليه أو يوصلَني إليه ، ولكن كان الأمر كما قال محمد بن كُناسة :

وسمَّيتُه يحيى ليحيا ، ولم أكن   لأعلمَ أن الفألَ فيه يَفِيلُ

ونظرتُ في الفصل فلاحظتُ عليه أمرينِ :

أوّلُهما أنَّه نقَلَ عن المصادرِ التي أرَّخت لأبي الفرجِ كلَّ ما وردَ فيها من أغاليط دون أن يتدخَّل - ولو مرَّةً واحدة - يُحكِّمُ فيها عقلَه وعِلمَه لعلهما يهديانِه إلى ما يُخالف روايات هذه المصادر ، حتّى وَددتُ لو أنّه أعرضَ عنها جُملةً وتفصيلاً فلخَّص لنا كتاب الدكتور محمد أحمد خلف الله الممتاز الموسوم : « صاحب الأغاني ، أبو الفرج الأصبهانيّ الراوية » . ولو فعلَ ذلك لكان ما قالَه أدنى إلى الصوابِ ، وأقربَ إلى العِلمِ ، ولكنَّه لم يفعل .

بل لقد ودِدتُ أن لو رجَع إلى كتاب « الأغاني » نفسِه الذي يكتب عنه ، يُعرِّفُ القرّاءَ - بزعمِه - به ، ليعرِفَ أنَّ أبا الفرج لم يولد بأصبهان ، وإنَّما في سامرّاء أو الكوفة ، وأنَّه لم يُهدِهِ إلى سيف الدولةِ الحمدانيِّ ؛ لأنَّه لم يرَ حلب في حياتِه ، وأنَّه لم يُتوفَّ سنة : ٣٥٦هـ ، وأنّه... ، وأنّه... مما قال مُتابِعاً بعضَ المصادر ، ولا أقول كلَّها . وإلاّ أفلم يرَ إلى ياقوت الحمويِّ يقول عن عام وفاتِه المذكور : « وفاتُه هذه فيها نظرٌ ، وتفتقِرُ إلى التأمّل » فيسأل نفسَه عن هذا النظر ما سببُه ؟ وذلك التأمّل ما دواعيه ؟ ولكنَّه لم يفعل - كما قلتُ - فجاءت



ترجمتُه لأبي الفرج ترجمةً لم يصحَّ فيها شيء واحدُ عندي إلاّ اسمُه وأسماء شيوخِهِ . وهذا حديث لا أريد أن أخوض فيه ؛ لأنَّه ليس من دأبي الآن .

هذا أمرٌ لاحظتُه عليه ، فأما الأمر الثاني فهو أنَّه تحدَّث عن «الأغاني» حديثاً كان يجولُ بخاطري وأنا أقرؤه أنّني قرأتُه من قبلُ ، وهذا ما أريدُ أن أُفيضَ فيه فأقول :

يقول الدكتور مكّي على الصفحة ٢٥٢ من كتابه : «لكن يؤخَذُ على أبي الفرج أنّه وقد تأثّر بأخلاقه الشخصيّة ، وبمنهجه في التأليف أنه اهتمَّ بسردِ الجوانب الإنسانيّة الضعيفة في حياة الشعراء ، وركّز على جانب الخلاعة والمجون في تصرّفاتِهم ، وأهمل الجادَّ الرزينَ المعتدِل منها ؛ مما يوهم القارىء - وقد أوهمَ البعضَ فعلاً - بأن بغداد لم تكن على أيامِهِ غير مدينةٍ نافقة بالمُجّانِ والقيان والسكارى...» .

هذا ما قالَه الدكتور مكّي ؛ فأوهمَ القارىء أنّه من ملاحظاتِهِ الشخصيّة على الكتاب ، ولكنَّ هذا القول - لدى الحقِّ - ليس له ، وإنَّما هو للدكتور زكي مبارك في كتابه : «النثر الفني في القرن الرابع» فقد قال في ١ : ٢٣٤-٢٣٥ : «كان الأصبهانيُّ مُسرِفاً أشنعَ الإسرافِ في اللّذات والشّهواتِ ، وقد كان لهذا الجانبِ من تكوينِهِ الخُلقيِّ أثرٌ ظاهِرٌ في كتابه ؛ فإنَّ كتابَ الأغانيِ أحفَلُ كتابٍ بأخبار الخلاعة والمجون ، وهو حين يَعرِضُ للشعراء يهتمُّ بسردِ الجوانب الضعيفة في أخلاقهم الشخصيّة ، ويُهمِل في الجوانبِ الجِدّيَّة إهمالاً ظاهراً يدلّ على أنه قليل العناية بتدوين أخبار الجدّ ، والرزانة والتجمّل والاعتدال ، وهذه الناحية أفسَدت كثيراً من آراء المؤلِّفين الذين اعتمدوا عليه ، ونظرةٌ فيما كتبه المرحوم جرجي زيدان... وما كتبَه الدكتور طه حسين... تكفي للإقناعِ بأنَّ الاعتماد على كتاب الأغاني قد جرَّ هذيْنِ الباحثيْنِ إلى الحطِّ من أخلاق الجماهير في عصر الدولة العباسية ، وحَملَهما على الحُكم بأن ذلك العصر عصرُ شكٍّ ، وفسقٍ ، ومجون...» .



والقاريء المُنصفُ يُدرك أن الدكتور مَكّي ـ وقد وضعَ أمامَه كتاب الدكتور زكي مُبارك ـ كان يُحاول محاولةَ الطالبِ، أيَّ طالب، حين يغشّ على ورقة زميله، فيضعُ في حسابِه ألاّ يكتشفَ السّرقةَ أستاذُهما؛ فيُبدِل كلمةً هنا، وأخرى هنالِك، وينسى أنّ جوهر الموضوع يبقى هو هو. هذا إلى أنّ الطالبينِ معاً يومنان إلى سرقتِهما حين يقعان في الخطأ الواحِد نفسِهِ. وهكذا فعل الدكتور مكي، وقبل أن أُشير إلى ما وقعَ فيه هو والدكتور مبارك من قبلِهِ، أريد أن أُوازنَ بين قولِه وقول الدكتور مبارك فأقول:

لقد قال الدكتور مبارك: إنّ الأصبهانيّ كان ضعيف الأخلاق ماجناً؛ فدعاه ذلك إلى أن يختار من حيوات الشعراء ما يوافق هذا الجانبَ الخُلقيَّ الماجنَ فيه، فجاء كتابُه كتابَ خلاعةٍ ومجون. هذا ما كان قالَه الدكتور مبارك، فهل ترى أنّ ما قاله الدكتور مكّي يختلف بشيء عنه؟ ثمّ ألا ترى أنه كان من الواجبِ على الدكتور مكي ـ وقد أخذ الفكرة وشيئاً من اللفظ فأعادَهما ـ أن يقول بعد كلامِه ذاك: «ينظر النثر الفني...»؟ ولكنَّه لم يفعل!

ولعلّك تقول: إنّ الدكتور مكي لم يعتَدِ الإحالةَ في حواشي كتابِه هذا كثيراً. وذلك صحيحٌ منك، ولكن ما رأيُك في أنّه سرَد قائمة مصادره، ومراجعِه من عربيّة وأجنبيّةٍ، ولم يتعرَّض إلى حرف الزاي من: «زكي مبارك»، ولا إلى حرف النون من: «النثر الفني»؟

ولعلّك تُماريني فيما قلتُ من أنّه سرقَ، فسأطلبُ منك إن فعلتَ تفسيراً لاتّفاق الأفكارِ مرّةً، ولاتّفاق الألفاظِ مرّةً أخرى.

يقول الدكتور مبارك: «كان لهذا الجانب من تكوينه الخُلقي أثرٌ ظاهرٌ في كتابه»، ويقول الدكتور مكي: إنه في كتابه «... تأثّر بأخلاقه الشخصيّة».

وأنا الآن أريد أن أفهم الفرق بين «تكوينه الخُلقي» و«أخلاقه الشخصية» ثمّ بين «أثر ظاهر» و«تأثّر».



ويقول الدكتور مبارك : «... إنَّ كتاب الأغاني أحفل كتاب بأخبار الخلاعة والمجون ، وهو حين يعرضُ للشعراء يهتم بسرد الجوانب الضعيفة في أخلاقهم الشخصيّة ، ويُهمل في الجوانب الجدّية إهمالاً ظاهراً يدلُّ على أنه قليل العناية بتدوين أخبار الجدّ والرزانة والتجمل والاعتدال...» .

ويقول الدكتور مكي : «إنّه اهتمَّ بسرد الجوانب الإنسانية الضعيفة في حياة الشعراء ، وركّز على جانب الخلاعة والمجون في تصرّفاتِهم ، وأهمل الجادَّ الرزينَ المُعتدِلَ منها...» .

والفكرةُ ـ كما ترى ـ هي هي ، والموضوعُ هو هو ، ولم يَزِد الدكتور مكي على أن يُبدلَ لفظةً بلفظةٍ ، وبتعميمٍ تخصيصاً ؛ فقد قال مبارك : «يهتم بسرد الجوانب الضعيفة في أخلاقهم الشخصيّة» وقال مكّي : «اهتمّ بسرد الجوانب الإنسانية الضعيفة في حياة الشعراء» ، فبقيت الجُملتانِ إياهما في المعنى سوى أنَّ ما كان يتصوّره مبارك أخلاقاً صار عند الدكتور مكّي : «جانباً إنسانيّاً ضعيفاً» وبقي المعنيانِ في دلالتهما أمراً واحداً ، وبقي السردُ سرداً ، والجوانبُ جوانبَ ، وصارت «يهتمّ» التي قالها مبارك : «اهتمَّ» عند الدكتور مكي . أما الخلاعة والمجون فقد نقلهما الدكتور مكي من كتاب الأغاني إلى حَيَواتِ الشعراء ؛ فبقي الجوهر هو هو ، وخَلِّ عنك أخبارَ «الجد والرزانةِ والتجمّل والاعتدال» عند الدكتور مبارك فقد يرى الدكتور مكي أن أسلوبه يقتضيه أن يختزلهما في صفتين هما : «الرزين المعتدل» واهباً للدكتور زكي مبارك «الجدَّ والتجمُّلَ» وإلاّ فما الذي تغيَّر ؟!

وتأتي الفكرةُ الثالثة وهي رؤية الدكتور زكي مبارك في أن هذه الأخبار الماجنة قد «أفسدت كثيراً من آراء المؤلّفين الذين اعتمدوا عليه ، ونظرةٌ فيما كتبه المرحوم جرجي زيدان... وما كتبه الدكتور طه حسين... تكفي للإقناع بأن الاعتماد على كتاب الأغاني قد جرَّ هذين الباحثين إلى الحطِّ من أخلاق الجماهير في عصر الدولة العباسية ، وحملَهما على الحُكم بأن ذلك العصر عصرُ



شكٌ ، وفسقٍ ، ومجون... » ، فقد جاء الدكتور مكّي ليأخذها ـ وهو لا يمتلك جرأة زكي مبارك في تسمية الناس بأسمائهم ـ فقال : إنَّ ما نقلَه الأصبهاني من جوانب الخلاعة والمجون « يوهِمُ القاريء ـ وقد أوهم البعضَ فعلاً ـ بأن بغداد لم تكن على أيامِهِ غير مدينةٍ نافقةٍ بالمُجَان والخلعاء والقيان والسكارى... » .

وكلُّ ما فعله الدكتور مكي أن خصَّص « عصر الدولة العباسية » عند الدكتور زكي بـ« بغداد » ، وليس في ذلك فضلٌ كبيرٌ ، ولا علمٌ وافرٌ ؛ لأنَّ أحداً لم يقل إنَّ حاضرة الخلافة العباسيّة كانت إستانبول ، أو نواكشوط ، أو فرانكفورت ، وأنَّه اعترف لجورجي زيدان وللدكتور طه حسين بأنَّ لهما أنفين ، وأربع عيون ، وعقلَيْن ، ولسانَيْنِ فجعلَهما من الناس ، ثمَّ تفضَّل عليهما بأن جَعَلهما من الناس الكاتبين المقرونين فقال : « مما يوهم القاريء ـ وقد أوهم البعض فعلاً ـ بأن بغداد ... » . وأين هذا التعميم من تحديد الدكتور زكي مبارك ؟ ثمَّ إذا كان لدى الدكتور مكّي من هذا « البعض » غير زيدان وطه حسين فلماذا لم يتفَضل علينا بِذِكرِهِ ؟

وكان مما يؤيِّد عندي أمرَ السرقة ـ فضلاً عن القرائن المعنويّة واللفظيّة التي عرَضتُها ـ أنَّ رأي الدكتور زكي مبارك نفسَه لم يكن له أدنى حظٍّ من الصواب ، وقد فصَّلتُ هذا فيما كتبتُه عن الأغاني ، ولا أريدُ أن أُعيدَه مما يجعلني أشير إليه إشارةً عابرةً فأقول :

إنَّ أبا الفرج لم يكن « مسرفاً أشنعَ الإسراف في اللذات والشهوات » ؛ لأن المسرِف أشنع الإسراف لا يمكنه أن يكتب مثل كتاب « الأغاني » ، ودليلي على ذلك أنَّ المرحوم الدكتور زكي مبارك نفسَه لم يكن بأقلَّ من أبي الفرج إسرافاً ، ولكنَّه لم يستطع أن يكتب في كل حياته ما يُعادلُ نصف حجم كتاب الأغاني ، فإذا علمتَ أن أبا الفرج كتب سبعة وثلاثين كتاباً سواه عَداً وإحصاءً منها « أيام العرب » في ألفٍ وسبعمائة يومٍ كان ذلك حسبي من أنَّه لم يكن مُسرِفاً إلاَّ في التأليف ، وطلب العِلم .



نعم ، كان أبو الفرج يشرب الخمرَ ، ويلاحِق النساء ، ويتعشَّق الغلمان ، ولكنَّه لم يكن بِدعاً في عصرِه فقد كان القاضي ابن قُرَيْعة مثلَه ، وكان القاضي الإيذَجيُّ مثلَه ، وكان القاضي التنوخيُّ مثلَه . وكان مثلَه محمد بن عمران المرزبانيّ ، فطالما كانت شكواه حين يُسألُ عن حالِه : «ما حالُ من ابتُليَ بقارورتين : قارورةِ حِبرٍ ، وقارورة خمر» .

هذه واحدةٌ ، فأما الثانية فهي أن اسم كتاب أبي الفرج هو : «الأغاني» فماذا كان ينتظر الدكتور زكي مبارك ، وتابِعُهُ مكّي أن يدور في مجالس الغناء غير السكر والعربدة والمجون وتجميش القِيان ؟ أيدور فيها مسألةُ خَلق القرآن الكريم أم محنة الإمام أحمد بن حنبل ؟

إنَّ الدكتور مكّي كان مسؤولاً ـ لو لم يكن سارقاً ـ أن يدلَّنا على ما افتأت به أبو الفرج على أخلاق أولئك الشعراء فاختار من أخلاقِهم ما يُوافق أخلاقَه ، وكان مسؤولاً أن يدلَّنا على جوانب المجون في ترجمة أبي الطُفيل ، وعبد الرحمان بن أبي بكر ، ومالك بن الرَّيْب ، ومحمد بن كُناسة ، وعشراتٍ سواهم ، أم أن ذنب أبي الفرج أن غلبت الزندقةُ في العصر العباسي على طائفةٍ من الناس ، حتّى اضطرَّ الخليفة المهديُّ أن يستحدث «ديوان الزنادقة» ، وأن يكون حمدويه ـ جدُّ الشاعر الحمدوي ـ صاحِبَ ديوانِهم ؟ وسرِقةُ الدكتور مكّي من الدكتور زكي مبارك ـ رغم وضوحِها ـ قد يصعُب تصديقها عند بعض الناس ، مما يضطرّني أن أسوق مثلاً آخر سرَقَه بحروفِه من محمد عبد الجواد الأصمعيّ ، فأقول :

إنَّ الأصمعيَّ لم يكن أستاذاً جامعيا ، ولا عالِماً بمعنى العِلم عند بعض الناسِ ، وإنّما هو رجلٌ كان يعمل في دار الكتب المصريّة ، ويُشرِف على ما تطبعه من كتبٍ ، ويفخَر بما يهتدي إليه ـ وهذا من حقِّه ـ من تصويب هذا التصحيف ، وتقويم ذلك التحريف ، ويفرح بصنع هذه الفهارس أو تلك على غِرار



ما يصنعُ المستشرقون ، وبالجُملة فإنَّ الرجل لم يفخر بأن له دكتوراه ، ولم يفرح بأن له تلاميذ ، مع أنه لم يُنقِصْ من عِلمِه لا عدمُ حمله الدكتوراه ، ولا عدمُ وجدانِه التلاميذ . وعلى أيَّةِ حالٍ إنَّه رجلٌ على قَدِّ حالِه ـ كما ننظر إليه اليومَ ـ وأكبرُ من قدِّ حاله إذا نظرنا إليه بعيون النصف الأول من القرن العشرين .

وكتب هذا الرجلُ ـ أعني الأصمعي ـ كتاباً سمّاه : «أبو الفرج وكتابه الأغاني» وقد أرَّخ للطبعة الثانية من مقدَّمتِه فيه بـ« ٢٦ مايو سنة ١٩٥١ » ، وهو كتابٌ يدلّ على الصبر ، والمعرفة ، والتنقيب ، ولكنَّه لا يدلّ على منهجٍ ، وما ذلك ـ أعني المنهج ـ بمطلوبٍ منه ، فحسب موظَّفٍ في دار الكتب أن يعرف قيمة ما تضمّه الدار من نفائس ، ولكنَّ غيابَ المنهجِ لم يمنع كتابَ الأصمعيِّ أن يكون كتاباً ممتازاً فيما وَفَّره من مادَّةٍ أوَّليَّةٍ لدارس أبي الفرج وكتابِه .

ولا أكادُ أشكُّ في الدكتور طاهر أحمد مكّي يعرف الكتاب ، ولا أكاد أشكُّ أيضاً في أنه اطَّلع عليه ، وأنّى له ألاّ يطَّلِعَ عليه والكتابُ مطبوعٌ في أشهر دار مصرية للطباعة والنشر ، أعني دار المعارف بمصر ، فتعال نرى كيف أفادَ الدكتور مكّي من هذا الاطّلاع .

قال الأصمعيُّ على الصفحة السادسة من كتابِه : «أوَّلُ ظهور كتاب الأغاني في عالَم المطبوعات ، وتداول العُلماء الأخِصّاء له من قرّاء العربية هو الجزء الأوّل ، فقد طُبع بمدينة جوبييزفولد سنة ١٨٤٠م ومعه ترجمته... باللاتينية للعلاّمة المسيور روزجارتن ، وكلُّ كلماته مضبوطة بالشكل الكامل ، وينتهي إلى أثناء أخبار (ابن محرز ونسبه) ويقع القسمُ العربيُّ من هذا الجزء في ٢٣٨ صفحة من حجم كتاب الأغاني ، وآخِر صفحة فيه تتَّفق مع صفحة ١٥٢ من الجزء المطبوع بمطبعة بولاق ، وصفحة ٣٨٢ من الجزء المطبوع بمطبعة دار الكتب المصرية... » .



ويقول الدكتور مكّي على الصفحتين ٢٥٤-٢٥٥ : «وكما حاز كتاب الأغاني في القديم شهرةً واسعةً نال في العصر الحديث أهميّة بالغة ، فنشر المستشرقُ الألمانيّ كوزجارتن (١٧٩٢ ـ ١٨٦٠) الجزء الأول منه ، رفق ترجمةٍ له باللغة الألمانية تحت عنوان... في مدينة جريفسفالد... بألمانيا عام ١٨٤٠ ، ويقع القسم العربيّ منه في ٢٢٨ صفحة من حجم الأغاني ، وينتهي عند أخبار (ابن محرز ونسبه) وآخِر صفحةٍ فيه تتفق مع صفحة١٥٢من الجزء الأول في طبعة بولاق ، وصفحة ٢٨٢ من طبعة دار الكتب ، وكلُّ كلماتِه مضبطة [كذا] بالشكل» .

وللقاريء أن يلاحِظ خلافاً بين مكّي والأصمعي في اللغة التي تُرجم إليها الكتاب ، وفي اسم المستشرق ، وفي اسم المدينة ، وكلُّ هذا صحيحٌ لا غبار على صحّتِه ، وأريد أن تتذكّر أن الدكتور مكّي قد درس في أسبانيا ، مما يُمكّنُه من ضبط الأسماء الأجنبيّة ، ومع هذا كان من حقّنا على الدكتور مكّي أن يُشير إلى ما حرّفه الأصمعيُ في الحاشية كأن يقول : «ينظر الأصمعي : ٦٠ وقد وهم في ذكر اسم المستشرق ، والمدينة ،...» ، ولكنّه لم يفعل ؛ لأنّه يريد أن يسطو سطواً مفضوحاً عليه ، فيسلخَ من كتابِه بقيّة المعلومات التي ذكرها سلخاً يكاد يكون حرفاً بحرفٍ اللهمَ إلاّ في قوله : «وكل كلماتِه مُضبطة بالشكل» فقد أراد أن يهرب من قول الأصمعيَ : «وكل كلماته مضبوطة بالشكل» وأنَى له أن يهرب ؟ فدلّ على عِلمِه الوافر بالعربيّة! فضلاً عمّا دلّنا عليه من وجوه هرب السارق البائسة!!

وستقول لي : إنّ فيما أوردتَه من خلاف بينه وبين الأصمعيَ في اسم المستشرق الألماني ، وفي اسم المدينة التي طُبع فيها الكتابُ ، وما إلى ذلك ما يدلُ على أن الرجل لم يسرق ، وإنّما لديه من العلم بكتاب «الأغاني» مثل ما لدى الأصمعي فأقول :



يقول الأصمعي على الصفحة السادسة من كتابه : «تم طبع كتاب الأغاني... بمدينة القاهرة في عشرين جزءاً بمطبعة بولاق سنة ١٢٨٥هـ (١٨٦٨م) وقد أكمله المستشرق رودلف برونو بطبعه الجزء الحادي والعشرين منه في سنة ١٣٠٦هـ (١٨٨٨م) ، وقد ثبتَ بعد البحث والتحقيق أن هذا الجزء ليس من تجزئة المؤلف ، بل هو زياداتٌ عثر عليها العلاّمة المستشرق المذكور في عدة نسخ مخطوطة محفوظة بمكتبات برلين وغيرها عند مراجعتِهِ طبعة بولاق على الأصول المخطوطة ، فجمعها في جزء واحدٍ سماه الجزء الحادي والعشرين» .

ويقول الدكتور مكّي على الصفحة : ٢٥٥ يقول :

«تم طبع الأغاني بعد ذلك كاملاً وللمرَّة الأولى ، بمطبعة بولاق في عشرين جزءاً عام ١٢٨٥هـ ـ ١٨٦٨م وهي طبعةٌ غيرُ محققة علمياً ، وذاتُ أخطاء ، وأضاف إليها المستشرق برونوف... الجزء الواحد والعشرين... وهذا الجزء ليس من تجزئة أبي الفرج وإنما مجرّد زياداتٍ عثر عليها برونوف في عدة نسخٍ مخطوطةٍ ، ومحفوظة بمكتبة برلين وغيرها عند مراجعتِهِ طبعة بولاق على هذه الأصول فجمعها وجعل منها جزءاً مستقلاً ، أعطاه اسمَ الجزء الحادي والعشرين» .

وسأدع للقارىء أن يوازن بين النصّين ، فإذا فعلَ فلَه عليَّ أنّه لن يجد من فرقٍ سوى تغيير اسم المستشرق برونو إلى برونوف ، علماً أن الصحيح هو برونو كما قرّر الدكتور الطاهر ـ رحمه الله ـ في «مقالات» ٧١ ، وسوى أن الدكتور مكّي قال عن طبعة بولاق : «وهي طبعةٌ غير محقّقة علميّاً وذات أخطاء» كما لو أنه بقولِهِ ذلك قد فتحَ عكّا ، وإلاّ فليذكر لي كتاباً واحداً طُبع في بولاق كان مُحقَّقاً تحقيقاً علمياً . وما لي أسألُه هذا السؤال الساذَجَ ونحن نتحدثُ عن القرن التاسع عشر ، ولا أسألُه عن تاريخ إلقاء المستشرق الألماني براجشتراسر محاضراتِهِ العميقة عن تحقيق النصوص في جامعة القاهرة ؟ ألم يكن ذلك عام : ١٩٣١ ؟



ولك أن تنظر بعد ذلك إلى ما أضافه لقول الأصمعيّ من قبيل أن يقول الأصمعيُ : «العلامة المستشرق المذكور» فيفسِّر الدكتور مكّي قولَه بأنه «برونوف» ، ومن قبيل أن يقول الأصمعيُ : «... هذا الجزء ليس من تجزئة المؤلِّف» فيفسِّر قوله بأنه : «... ليس من تجزئة أبي الفرج» وهكذا .

على أن الذي أحزنني في هذه التفسيرات هو ما صار إليه قول الأصمعيّ : «عدة نسخٍ مخطوطةٍ محفوظةٍ...» إذ صار عند الدكتور مكي : «... مخطوطة ومحفوظة» . وقديما سئل الجاحظُ : ما البلاغةُ ؟ فقال : «معرفة الفصل من الوصل» . وليس في الجملة فصلٌ فلماذا الواو ؟

وهكذا أراد الدكتور مكّي أن يهربَ من عبارة الأصمعيّ ، فدلَّ مرَّةً ثانيةً على عِلمه الوافر بالعربيّة ، فصحَّ فيه المثلُ العربيُ : «أحَشَفاً وسوءَ كَيْلة» ؟ لقد كُنّا نرضى من الدكتور مكّي بالحَشَفِ يزعُم أنه رُطَبٌ ، بل ويبيعُناه على أنّه تمرٌ فما عتَم أن اكتال لنا منه بميزانٍ لا تتعادل كفّتاه!

وإذاً فليس لي ولك ونحنُ نقرأ ما سلِم من ركاكة الأسلوب في هذه التفسيرات إلاّ أن نتذكّرَ قول الشويعر العربي :

كأننا والماءُ من حولِنا   قومٌ جلوسٌ حولَهم ماءُ

فكلاهما «قد فسّرَ الماء بعد الجهدِ بالماء» .

وأريد أن أفترضَ أنّ كلَّ هذا ممّا يُماريني فيه الناسُ ، ومما يماريني فيه الدكتور مكّي نفسُه مما يدفعني أن أعرِضَ عن حديثه عن صُنع المستشرق الإيطالي جويدي بمعاونة نفرٍ من المستشرقين فهارس الأغاني ، وعمّا وقع للحاج محمد الساسي حين ترجمها ، وأضافَها إلى الجزء الحادي والعشرين أقول : سأُعرِضُ عن هذا كلّه رغم يقيني الذي لن يتزعزع بأن الدكتور مكي سرقَه من الأصمعيّ ، وسكت .



ولو لم يكن من مصاديق هذا اليقين إلاّ أنَّ الدكتور مكّي يعلمُ عِلم اليقين أن من حقّ الأصمعيّ أن يُذكر كتابه في الحاشية ، لا لشيء إلاّ لسبقه في التأليف لكان في ذلك الكفاية وما يزيد على الكفاية ، ولكنَّ ذلك لم يحدث ولو مرّةً واحدة . بل إن الدكتور لم يُكلِّف نفسَه حتى أن يذكرَه في قائمة المراجع ذكراً عابِراً . فإذا كان لذلك من معنًى ـ وهو كائنٌ ـ فهو أن الدكتور مكّي قد جعَلَ من نفسِه أحدَ اثنين لا يُشرِّفُه أن يكون أيّاً منهما ؛ فهو إمّا أن يكون لا يعرفُ قواعِد البحث الأدبي ، وهذا احتمالٌ مُستبعَدٌ جداً ـ لأنَّ حامل شهادة الدكتوراه حتّى ولو كانت دكتوراه جامعة يَعرِف هذه القواعد فما بالك بالدكتور مكّي الذي يمنح الناس شهادات دكتوراه فلسفة (p.h.d) ؟ وإمّا أن يكون ـ كما قلتُ ـ سارقاً ، وهذا ما أنا مُوقِنٌ به ، وإلاّ لما كتبت .

قلتُ : سأُعرِضُ عن كلّ هذا ، وسأفترضُ أنّه مما يُماريني فيه الناسُ ؛ لأنَّ الذي تحدَّث عنه الأصمعيُّ من أمر الأغاني وطبعاتِه مما يُمكن أن يُهتدى إليه بالرجوع إلى هذه الطبعات نفسِها ، ولكن ما رأيُك في علاقةٍ خاصّةٍ ـ هي علاقةُ مرؤوسٍ برئيسِه ـ تقتضي أن يأمر أحمد زكي باشا (الرئيس) محمّد عبد الجواد الأصمعيَّ (مرؤوسَه) أن يقوم بعملٍ يخدم به نسختَه من كتاب الأغاني ، أعني نسخة أحمد زكي ، فيقوم به ، ثمَّ يبدو له أن يتحدَّث عمّا قام به إلى الناس في كتابه عن أبي الفرج ، ثم نجدُ هذا الحديث نفسَه عند الدكتور مكّي ؟ يقول الأصمعيّ :

« كان إمامُ أئمّة اللغة العربية في عصرِه العلاّمةُ المرحوم الشيخ محمد محمود بن التلاميد الشنقيطي صحّح نسختَه الخاصّة المحفوظة بدار الكتب المصريّة تحت رقم (١٤٤ أدب ش) ، وبذل جهد المستطاع [كذا] في تصحيح ما فيها... فلقد كان أعلم أئمة اللغة العربية في وقته ، وأعرفَهم بغريبها ، وأحفظَهم لأنساب العرب ، وتأريخهم... بما دوّنه بخطّ يده على هوامشها ، وفي كلماتها ،



وفي ثنيات سطورها ... وكان العلاّمة المرحوم أحمد زكي باشا بمناسبة اشتغالي في الخزانة الزكيّة في ذلك العهد طلب إليَّ أن أصحح كتاب الأغاني المحفوظ بخزانته... على نسخة الإمام الشنقيطي المحفوظة بالدار ، فلبّيتُ الطلبَ ، وكابدتُ... لأني قرأتُ هذا الكتاب بإمعانٍ ودقّةٍ سطراً سطراً... وكان الإمام الشنقيطيّ... يكتب صواب الكلمة تارةً بالهامش ، وطوراً يكشطها ثم يكتب صوابها بغاية الدقّة في موضعها الأصليّ ، وآونةً يُصلح الحرف المغلوط بالحرف الصحيح كالدال في موضع الراء ، ومرّةً يكشط نقطةً أو يضيف على الموجودة أخرى ، أو يُعجِم الحرفَ المهمَلَ ، أو يُهمل المُعجَمَ ، وهلمَّ جرّا... » . ثم يواصل الأصمعيُّ حديثه على الصفحتين : التاسعة والعاشرة بأنّه أتمَّ التصحيحات وأن أحمد زكي أشار عليه بطبعِها ، ففعل ذلك على هيأةِ جداول ليُسهِّل مراجعتها عام ١٩١٦ ، وبأنَّ مصحّحي القسم الأدبي استفادوا منها عند طبع الكتاب .

ويقول الدكتور طاهر أحمد مكّي على الصفحة : ٢٥٦ من كتابه :

« كان الشيخ محمد محمود بن التلاميد الشنقيطي يملك نسخةً من طبعة بولاق ، وكان حُجة في العِلم بغريب اللغة ، وأنساب العرب ، فقام بتصحيح نسختِه الخاصة مدوّنا تصحيحاته في الهامش ، أو في ثنايا السطور ، يكشط الكلمة المحرفة ثم يُعيد كتابتها بدقّة ، أو يصلِح الحرف المغلوط أو يعجم الحرف المهمل ، ويهمل المعجم ، يكشط نقطةً أو يضيفها ، ولما كان شيخ العروبة أحمد زكي يملك نسخةً من كتاب الأغاني ، طبعة بولاق ، فقد طلب إلى محمد عبد الجواد الأصمعيّ أن يصحح له نسخته على نسخة الشنقيطي المحفوظة بدار الكتب المصرية ، ورأى فيما بعد أن يجمع هذه التصحيحات ، ويطبعها في كراسة مستقلّة... وقد طُبعت هذه التصحيحات على هيئة جداول ليسهل مراجعتها ، وصدرت في عام : ١٩١٦ ، وقد استفاد منها مصحِّحو القسم الأدبي عند إعادة طبع الأغاني » .



هذا ما قاله الدكتور مكي ، ولا أريد أن أُعلّق عليه بشيء فقد وضح الصبحُ لذي عينين ، وإنّما أريد أن اشهد له ببراعة السرقة ؛ فقد سلخ ما قاله الأصمعي في ثلاث صفحات ليضَعَه في صُرَّةٍ لا تكاد تبلغ الصفحة ، وتلك آيةٌ بيّنةٌ على دُربتِه في النقل ، ومهارتِه في الإغارة .

ولعلّه يكون من حقي بعد هذا النصّ أن أقول : إنّ صاحبنا الدكتور مكّي قد وقع في الفخّ ، فاعترَفَ ـ في الأقلّ ـ بأنّ هناك رجلاً له صلةٌ بكتاب الأغاني اسمه محمد عبد الجواد الأصمعيّ ، ولهذا الاعتراف ما بَعدَه من اعترافٍ ضمنيٍّ بالسطوِ . وجليّة الأمر وتفصيلُه أن الدكتور سيحتجُّ بنفسِه أو يحتجُّ له الآخرون من تلاميذه الكُثر ـ هكذا أريد أن أفترض ـ بأنّه رأى نسخة الشنقيطي بنفسِه ، والدليل على ذلك أنه وضع على عبارة «بدار الكتب المصرية» رقماً أحالَنا عليه في الحاشية فقال : «النسخة الأصليّة للأستاذ الشنقيطي توجد محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١١٤٠ أدب ش» .

وسأغضُّ النظر عن اتفاقهما في وصف ما صنع الشنقيطي بنسخته من كشط ، وإعجام ، وإهمالٍ ، وما إلى ذلك ، وأغضُّ النظرَ أيضاً ـ قربةً لوجهِه تعالى ـ عن علمِه بأن أحمد زكي قد طلبَ من مرؤوسه الأصمعيّ أن يصحّح له نسختَه . أريد أن أغضّ النظر عن كلّ هذا خشية أن يدّعي الدكتور مكّي أنه قد قرأ كلّ ذلك في كرّاستِه المطبوعة عام ١٩١٦ ـ وأنا لم أطّلع على هذه الكرّاسة ـ ولكنّني أريد أن أسأل سؤالين أوّلهما : أنّه إذا كان الدكتور مكّي قد رجع إلى الكرّاسة فأخذ منها هذه المعلومات فلماذا لم يذكرها في الحاشية ؟ وهي حاشية أهمُّ كثيراً من ذكر رقم نسخة الشنقيطي في دار الكتب المصريّة ؛ لأنّ الأصمعيّ نفسَه قد ذكر هذا الرقم ، أم يكون الدكتورُ ممن يَستَفتونَ في دمِ البرغوث ويستحلُّون دمَ الحُسين سبط رسول الله ؟

هذا سؤالٌ ، وأما الثاني ـ وهنا الفخُّ الذي وقع فيه الدكتور ـ فهو أن



الأصمعيّ يقول عن كرّاستِه تلك : «واستفاد منها أيضاً مُصحّحو القسم الأدبيّ - وكنتُ منهم - عند إعادة طبعِه بمطبعة دار الكتب المصريّة ، ولكن لأمرٍ ما لم يُشَر إلى اسمي في هذه الطبعة» . ويقول الدكتور مكي : «وقد استفاد منها مصححو القسم الأدبي عند إعادة طبع كتاب الأغاني» .

وأقول : إنّ اعتماد مصحّحي القسم الأدبيّ على كرّاسة الأصمعي أمرٌ لا يعلمُه إلاّ الأصمعيُ والمصحِّحون ، فأمّا المُصحّحون فقد بلغوا من غمطِ حقِّ الرجل - كما يقول هو نفسه - بحيث لم يذكروا ذلك في طبعة الأغاني نفسِها ، ومن هنا ما كان لنا أن نعلمَ أن كراسة الأصمعيّ كانت أحدَ مراجع التصحيحِ لو لم يقل الأصمعيُ ذلك بنفسِه في كتابه عن أبي الفرج ، فمن أين علِم الدكتور مكّي بهذه الحقيقة فأثبَتها ؟ ثمّ ألا يُمكن للباحث الباحث أن يشكّ في صدقِ دعوى الأصمعيّ فيوازن بين كرّاسته وطبعة الدار فيأتينا بالخبر اليقين ؟

وأنا إنّما قلتُ : من أين علِم بهذه الحقيقة ؛ لأنه لم يبق له من مهربٍ إلاّ الاعتراف بالسرقة فقد «قطعت جهيزة قولَ كلِّ خطيبٍ» . فهو إنْ قال : إنّه أخذها من الأغاني لم يستقم له ذلك ؛ لأن مُصحّحي الدار لم يعترفوا بالاستفادة ، ولم ينصّوا عليها مما جعل الأصمعيَّ ينتصِفُ لنفسِه منهم فيذكر ذلك ، وإنْ قال : إنّه أخذها من الكرّاسة لم يستقم له ذلك أيضاً ؛ لأن كرّاسة الجداول طُبِعتْ سنة ١٩١٦ ، على حين أنّ الأغاني طُبع بعد تسع سنواتٍ من صدورها ، فكيف تسنّى للأصمعيّ أن يشكو من أمرٍ لم يقع بعدُ ، أو أن يُقرِّر شيئاً لمّا يحدثْ ؟

وإذاً لم يبق إلاّ أن يكون الدكتور مكّي قد سرق كلّ تلك المعلومات من كتاب الأصمعيّ : «أبو الفرج الأصبهاني...» . تلك هي الحقيقة المؤلمة . وأقول مؤلِمة ؛ لأنّ مَن يسرق في كتابٍ لا يُمكن أن يوثق به في كتبِه الأخرى ، ثم أيّ كتاب ؟ كتاب عن مصادر الدراسة الأدبية كلُّ ما فيه أن يصف الأغاني ، أو الشعر والشعراء لا بن قتيبة أو سواهما . ومع هذا يزعم له الدكتور مكي على



الصفحة الخامسة عشرة أنّه « عملٌ رائد » . وأنا لا أعرف من أين توهّم له الريادة ، وكتابه مطبوعٌ عام ١٩٦٨ على حين أن الدكتور أمجد الطرابلسي قد أصدر كتابه « نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب » سنة ١٩٥٤ ، أي قبل أن يصدر كتاب الدكتور مكي بأربعة عشر عاماً[1] ، أننا قرأنا في العام نفسِه عام صدور كتاب الدكتور مكّي يوم كنّا طلبةً في السنة الأولى من كليّة الآداب كتابين في مصادر الأدب أحدهما للدكتور عزّة حسن ، وثانيهماللدكتور عمر الدقّاق ، ثمّ ما للريادة ولكتُبٍ هي أقربُ ما تكون إلى الارتزاق من جيوب الطلبة منها إلى شيء آخرَ ؟

وهَبْ أن الكتاب رائدٌ في بابِه ، أفتكون الريادةُ بالسرقة ؟ إنَّ الرائد لا يكذب أهلَه ، فهل صدّقنا الدكتور مكّي ؟ ذلك ما أرجو أن يكون قد اتّضح .

(١) ينظر « مقالات » ٦٥ للعلامة الراحل الطاهر .

فهرس الموضوعات





مكتبة
الفكر
الجديد

للمؤلِّف :

- ديوان عليّ بن محمد الحِمّاني ، بغداد ، ١٩٧٤ ، ط٢ بيروت ، ١٩٩٨ .
- الصراع بين القديم والجديد في الشعر العربيّ ، بغداد ، ١٩٧٨ ، ط٢ بيروت ، ١٩٨٥
- فنّ التمثيل عند العرب ، بغداد ، ١٩٧٨ ، ط٢ بيروت ، ١٩٨٥ .
- مقالات في الشعر العربيّ المعاصر ، دمشق ، ١٩٨٥ .
- الأغاني لأبي الفرج الأصبهانيّ (تقديم) ، الجزائر ، ١٩٩٢ .
- رؤيا أوروك (شعر) ، دمشق ، ١٩٩٢ .
- الأمثال لأبي بكر الخوارزميّ (تحقيق) ، الجزائر ، ١٩٩٣ .
- مسرحيّات شوقي (تقديم) ، الجزائر ، ١٩٩٣ .
- ديوان أبي حُكيمة الكاتب (تحقيق) ، دمشق ، ١٩٩٣ ، ط٢ ألمانيا ، ١٩٩٧ .
- مُقطّعاتُ مَراثٍ لابن الأعرابيّ (تحقيق) ، الجزائر ، ١٩٩٤ .
- ملحمة كلكامش (تقديم) ، الجزائر ، ١٩٩٥ .
- جهاز المخابرات في الحضارة الإسلامية ، دمشق ، ١٩٩٨ .
- ذمّ الثقلاء لابن المرزبان (تحقيق) ، ألمانيا ، ١٩٩٨ .

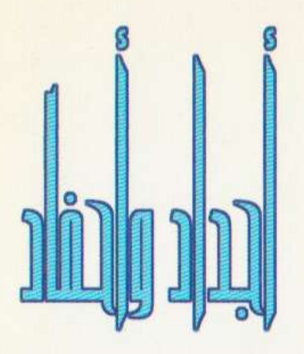
تحت الطبع :

- الشعر في الكوفة منذ أواسط القرن الثاني حتى نهاية القرن الثالث ، ألمانيا .
- تلقيح العقول لبريّة بن أبي اليُسر الرياضي (تحقيق) ، ألمانيا .
- ديوان بكر بن عبد العزيز العجلي (تحقيق) ، بيروت .
- نافذة الليل (شعر) ، ألمانيا .

المُعَدّ للطبع :

- أوهام المحقّقين .
- شذرات من اللغة المُولّدة .
- كتاب الشِّعر لابن شمس الخلافة (تحقيق) .

لوحة الغلاف للفنان ضياء العزاوي



هذا كتابٌ يكادُ يكون مدخولَ النِّسبةِ في كتبي وليس مدخولَها تماماً في كتبِ الآخرين ؛ لأنَّه مباحثُ متفرِّقةٌ لا يكادُ يجمعُها جامعٌ ، سوى أنها في تراجم أدباء قُدماء كبارٍ ، وذكرياتٍ عن أمثالِهم من المعاصرين الكبار . ومن هنا فهو مباحثُ مُتفرِّقةٌ ولكنَّها مؤتلِفةٌ . وحسبُك من مُفارقةٍ أن يكونَ المتفرِّقُ مؤتلفاً .

تأتلِفُ هذه المباحثُ بما يُعجِبُك من ثورتيْ بكر بن عبد العزيز العِجْليِّ ، والجواهريِّ - على الرُّغم من أنَّ بينهما أحد عشر قرناً - ولكنَّ بكراً لا يأتلِف مع الجواهريِّ فنيّاً حتى لو قلتَ لي : إنَّ بكراً لا يبلغُ خُمسَ قامة الجواهريِّ شعريّاً لوافقتُك . والجواهريُّ لا يأتلِفُ مع بكرٍ فارسَ ميادين وقريعَ حروبٍ حتّى لو قلتَ : إنَّ الجواهريَّ لا يبلُغُ خُمسَ قامة بكرٍ فارسَ ميادين لما جادلتُك . ولكنّهما مع هذا وذاك مؤتلِفانِ إذا نظرتَ إلى ما يَنقُصُ بكراً إزاء الجواهريِّ ، وإلى ما ليس في الجواهريِّ من بكرٍ ، وأهمُّ من هذا أنَّهما مؤتلفان إذا نظرتَ إلى معنى ثورة الشاعر في القرن التاسع الميلاديِّ ما هي ؟ وإذا نظرتَ إليها في القرن العشرين ما معناها ؟

